الغـربي عمــران

حصــن الزيــدي

قارون

روايـة

حصن مرداس

ملقى على الأرض وقد تشبثت أصابع عبد الجابر بفوهة بندق والده الشيخ مرداس الـ"قرنوف".. ناظراً في عينيه يستجديه الرحمة.. بادله بنظرات مبهمة.. قطعها دوي رصاص "قرنوفه".. رددت جبال الوادي صداها الحزين. عم صمت مغلف بالتساؤلات غطى ملامح من التف حوله من الرعية.. فيما كان الشيخ راكعاً إلى جوار ابنه.. يرى سيلان الدم من صدره.. يتأمل عينيه الذاويتين محاولا رسم ابتسامة رضا يشجعه بها.. متسائلا: هل ما صنعته صائباً؟!. للحظات ثم لفظ جبار أنفاسه.. ليرتفع صريخ حناجر من حوله من الرعية.. أحتضن الشيخ رأس ولده بحنو مدارياً صوته الباكي. ثم وقف تساعده سواعدهم.. كان رأسه مكشوفاً والريح تتلاعب بشعره الكثيف.. مرر ناظريه فيمن حوله.. مشيراً على عدد منهم سرعة لف جثمان "جبار" وحمله ليدفنوه في مقبرة الحصن.. للحظات تعاون الجمع ثم حُمل على أكتاف ثلَّة ابتعدت به.. بينما وقف مرداس يشيعهم بملامح جامدة.. وكف مستشاره زيد الفاطمي ممسكة بيده يشد من أزره. يتابعان مجموعة الرجال السائرين به مبتعدين وسط سهول الوادي شرقاً حتى صعدوا به. مرتفعات الحصن مخلفين "الطولقة" الكبيرة وهي ناشرةً أفرعها في كل اتجاه فوق ملتقى السيول.. وصلوا بعد حين الساحة الأمامية للحصن.. وانعطفوا به ليدخلوا بوابة المجنة.. حولهم تفرقت شواهد القبور.. وضعوه جوار ركام ضريح جده الكبير.. وبدأوا بحفر قبرٍ له.

أثنا ذلك كانت عيون نساء الحصن تراقب متسائلةً.. ما لبث أن تصاعد نواح جماعي.. بينما مجموعة منهن يعَدِّدن بطولاته.. في تلك اللحظات ظلت والدته "شبرقة" في حجرتها رافضة ما وصلها من الخبر.. مرسلة من يزجر النائحات.. غير مصدقة ما وصل إليها من أن زوجها قد قتل ابنها جبار.. أغلقت أبوابها على نفسها رافضة حضور من القادمات لمواساتها. أنقضى ذلك النهار وتسرب الليل وهي تنتظر قدومه ليخبرها كذب ما تتناقله الأفواه.. ظلت ساهرة في ليلتها الأولى حتى أشرقت شمسُ نهارٍ جديد.. وهي تقف أمام النافذة المطلة على الوادي الفسيح.. تركز ناظريها على أطراف غابة الجبال حيث تدور الحرب.. تبحث بين جموع الرعية عن جبار. لكن تواصل نحيب النسوة لليوم الثاني يزعجها أكثر.. تكرر إرسال من يزجرهن.. ولأيام تجيل النظر باحثة بين تلك الجموع عمَّ يطمئن روحها.. متسائلة: لماذا لم يرسل مرداس من يطمئنني إن كان مشغولاً بالحرب؟.

وللأسبوع الثاني تواصل نسوة الحصن نحيبهن.. حتى خلخلن يقينها.. لكنها أستمرت تظهر عناد انتظارها لعودته.

تغلق النافذة وتنكفئ على نفسها كسيرة.. تتمدد دامعة وقد لفت ناظريها بشرة ذراعيها الجافة.. شبيهة بقشور السحالي.. تهامس نفسها: ماذا تبقى لي في هذه الحياة ومرداس يواصل قتلي منذ حين؟. وها هو اليوم يقتل ما تبقى لي!. تسحبها وحدتها وحيرتها إلى ذكريات الأمس.. وقد أغمضت عينيها ممددة على فراشها لترى مرداس في زيارته لها نفسها.. كانت تلك هي الزيارة الأخيرة بعد زواجه من زوجته الثانية "فاطم" قبل خمسة عشر سنة. تلك الليلة خرج من حجرتها دامعاً.. ولم يعد لزياتها قط. تبلل الدموع خديها وتشعر بالاختناق.. تنهض لتطرد إحساساً بالغبن يفجر قلبها. لكن الذكريات تنهال عليها يذهب بها إلى أيام صباها.. إلى ذلك اليوم البعيد وقد زُفت عروساً.. يسير بها حمار "صبياني" وسط صفوف يتقدمها والده على خيلته البيضاء.. يحيطه أخوتها وبنو عمومتها.. يتقدمهم راقصوا "البرعة".. يلوحون بنصالهم العاكسة لأشعة الشمس. حين أشرفوا على الوادي.. بدا لها حصن مرداس مهيمناً من قمته البعيدة.. وقف المستقبلون في دائرة عظيمة.. تدوِّي رصاص بنادقهم التي رددت صداها الجبال العالية.. وقد خَفُتَ وقع الطبول. أشارت عليها "الشارعة" إلى وسط الدائرة.. لترى شاباً قصير القامة.. تميَّز بإكليل من أغصان الريحان يعلو رأسه.. تطيل النظر إلى وجهه البيضاوي بشعره البازغ.. تلتقي عيناها بعينيه.. تمس قلبها رعشة غامضة لم تألفها.. إحساس لذيذ يستقر في أعماقها.

تمر السنوات وقد أمست أماً لابنتين.. تبعتهن بذكر سُمي "عنصيف".. الذي أحتفى بقدومه الحصن.. وذبح الشيخ العجول الرضيعة شكراً لله. لتصبح "شبرقة" سيدة الحصن.. ثم رُزقت بـ "عبد الجبار".

تتذكر طفولة عنصيف التي حرص والده على اصطحابه إلى مجالسه ومواقفه القبلية.. حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال أطلق يده على الوادي.. على مزارع البن والقات.. وقضايا رعيته.. وسريعاً ما فرض سطوته على الجميع. تتذكره يوم غادر إلى صنعاء لتسليم إمامها خراج الوادي.. وهو يقود الرعية تلبية لنداء الإمام لإخضاع قبيلة متمردة على طاعته. ودوما يعود متقدماً رعيته الذين يقودون قطعان المواشي إلى زرائب الحصن.. كما يحملون الأسلاب من أثاث وحبوب وأواني منزلية.

تنتظر مثوله بين يديها بوجهه الباسم الذي يحمل كثيراً من بياض وجهها واستطالته.. يركع محاولاً لثم ركبتيها.. فتمد كفيها بغبطة رافعة وجهه.. ناظرة في عينيه الباسمتين.. ثم تحتضنه هامسة: لي أن أفخر بك ابناً.

تتذكر يوم وصلت مجموعة من الرعايا إلى باب الحصن يشكون توافد غرباء على الوادي وتكاثرهم منذ شهور.. أستمع إلى شكواهم: "أخدام" سود. غوغاء لا يهتمون بنظافتهم ولا معيشتهم.. يهيمون جامعين ما يصادفونه من بقايا ملابس وأحذية وأواني.. وقد بنوا مجموعة أكواخ متجاورة تحاذي الطولقة الكبيرة. في البدء لم يهتموا لوجودهم. لكن توافدهم استمر

وأكواخهم تكاثرت. ومع الأيام تحولت الأكواخ إلى "درم". ثم انتشرت "الادرام" على امتداد حافتي الوادي.. يهيمون أسراباً يتسولون من يجدون .. وقبيل نهاية النهار يعودون إلى أكواخهم يمضغون القات.. ومع قدوم الليل يشعلون النار ويرقصون على قرع الطبول. توالت الأيام وقد تعوَّد الناس على وجودهم على هامش حياتهم.. يعاملونهم بشفقة.. والبعض بازدراء.

كان عنصيف يستمع إلى هلع من يحكون.. وهم يصفون حياة "الأخدام" بأنهم لا يرتادون المساجد.. ولم يُرَ أحدهم يصلي قط.. أو يُسمع عن عرس في ادرامهم منذ ظهورهم.. وأن ظنوا بأنهم يعيشون حياة بهائمية.. فبعض نساؤهم يُبحن أنفسهن لمن يرغب ولو بالقليل.. ولم يُشاهد لهم جنازة منذ وفدوا إلى الوادي.. ولا يُعرف لموتاهم قبور... .

أستمع لشكواهم. وابتسم قائلاً:

- أتودون القول بأنهم غوغاء؟

هزوا رؤوسهم صامتين علامة الإيجاب. ليقف رافعاً كفه دون أن ينطق. وكانت تلك ما تعودوا عليه حين يريد انصراف من حوله.. ليفكر وينظر فيما سمع. انصرفوا بعدها على أمل أن يلبي عنصيف ما يأملوا به. لكنها الأيام تمر.. و الوافدون من "الأخدام" في تزايد.. وقد أمتهن بعضهم سرقة ما يصادفونه في طريقهم. وبات بعض الرعية يتعرضونهم بالرجم. والملاحقة.. بل أن منهم من ذهب للاعتداء على أكواخهم بهدمها وإحراقها. وكان رد الأخدام بإحراق محاصيل بعض حقول الرعية.

يحضرها ذلك اليوم حين كلف "عنصيف" مجموعة من حراس الحصن للطواف على الادرام وإنذار سكانها بسرعة مغادرة الوادي. مهددا بهدم أكواخ من يتخلفون فوق رؤوسهم.. ثم منظرهم في ذلك الصباح المغيم وقد خروجوا من أدرامهم.. يسيرون مصطحبين نسائهم وأطفالهم في مجموعات كبيرة.. حاملين طبولهم وأسمالهم.. تتجه مقدمة صفوفهم شرقاً.. ظن من شاهدهم برحيلهم عن الوادي.. لكن ما أن حاذوا الطولقة الكبيرة حتى انحرفوا صاعدين سفوح مرتفعات حصن مرداس.. وقد انتظموا في طوابير طويلة تحاكي خيوط النمل.. إلى أن وصلت مقدمتهم الساحة الأمامية للحصن.. لتتوافد صفوفهم مشكلةً طوقاً شبيهاً بحذوة الحصان على أطراف الساحة.. لحظتها كانت عيون الحصن ترقبهم بحذر.. وقد صوَّبت البنادق الطويلة من فتحات الأسطح وأبراج الحراسة.. لم يمر وقت حتى سكبت السماء مزونها.. ظن من في الحصن بعدها بأنهم سيتفرقون.. لكنهم ظلوا في أماكنهم دون حركة رغم استمرار هطول الأمطار.. تلبست من في الحصن حيرة وتساؤلات.. وسرت خشية من أن يقتحموا البوابة وقد اقتربت صفوفهم.. انطلقت زخات من الرصاص.. سقط على عددٍ منهم . لكن ما زاد حيرة الحصن أنهم ظلوا في وقفتهم دون حراك.. محيِّر حتى انحسرت

السحب.. حينها دبت الحركة بينهم وصدحت أنغام مزاميرهم بنواحٍ شبيهٍ بأنين الماء.. ثم تلتها ضربات طبولهم المبللة.. يهزون أجسادهم في دوائر يمينا وشمالا. مرددين كلماتٍ تماثل عواء رعود شاردة. ازدادت حيرة من في الداخل لما يدور. تشجع عنصيف وأخرج مجموعة من الحراس لمعرفة ما يفكرون به.. وقف أحدهم مشيراً عليهم بالصمت.. خفت إيقاع الطبول والمزامير.. وصمت كل شيء إلا من حفيف رياح باردة. ثم قال مخفياً خوفه:

- أتريدون الموت؟

سرت همهماتهم.. يتلفتون إلى وجوه بعض.. ليرفع شاب كفه.. توجهت الأنظار إليه.. وأشار البعض له بأن يتقدم.. متشبثا بذراع فتاة تقاربه عمراً تقدم حتى كان أمام الحراس.. وجه الشاب كلامه مجيبا على الحارس:

- إن أردتم قتل من تبقى.. فافعلوا!

خيم صمت.. إذ لم يتوقع الحارس ذلك الرد.. وبعد تفكير خرج صوته مرتبكا:

- إذا ما تبتغون من صعودكم؟

- نبتغي حماية الشيخ.

هنا أدرك الحارس بأن عليه أن يثبت لسيده بأنه أهلا لتقريعهم.. ورفع صوته بحدة:

- الشيخ لا يحمي من يمارسون المحرمات ولا يعرفون دين الله..!

- نحن ضعفاء.. ونريد أن نعيش في سلام.

- لا بقى لكم في الوادي.. ومن تأخر سيُقتل!

يتابع عنصيف ما يدور ويفكر حين عادوا لقرع طبولهم.. ونفخ مزاميرهم.. لتردد الجبال صداها. يفكر بالخطوة التالية.. متيقناً من سذاجتهم. لحظتها برقت في ذهنه فكرة أن يستغل رغبة البقاء لديهم لتسخيرهم في اعمال الزراعة. تمتم هامساً: لما لا؟. وقرر الخروج إليهم.. تتبعه مجموعة من الحراس.. ما أن ظهر حتى أصمتوا طبولهم ومزاميرهم يتطلعون بصمت وجهه المستطيل.. راسماً ابتسامة مراوغة.. محاولاً أن يجعل صوته قوياً للتأثير عليهم:

- أسمعوني جميعاً.. سأطرح عليكم فكرة.

انتشر همسهم.. ليستنتج بأنهم لم يفهموا.. ثم أردف وقد لان صوته: تهيمون بين المزارع.. دون عمل وهذا ما لا نقبله. ولذلك على كل منكم أن يشتغل أو يرحل عن الوادي.

تقدم ذلك الشاب من بينهم وإلى جواره تلك الفتاة:

- كلنا على باب الله.. ولقمتنا تأتينا بمشقة وتعب.

أثناء ذلك أنشغل عنصيف متأملا قداً ملتصقاً بثيابها المبتلة.. تبتسم وهي تشد على كف رفيقها.. تخيل جسمها الأسمر عارٍ . ابتلع تخيلاته وقد تغير تفكيره:

- سنعفُ عنكم جميعاً إذا وافقتم على أن يعمل القادرون منكم في مزارعنا.. وحينها يعود من لا يقدر إلى أدرامهم ليعيش الجميع في سلام.

ساد ارتباك بين صفوفهم.. وقد أصابت الشاب حيرة مما طُرح.. ناقلاً ناظريه بين من حوله يستمد منهم العون. بينما الشابة وقد شدتها نظرات عنصيف وابتساماته المتكررة.. لم تفارق عينيها وجهه وكأنها سُحرت بذلك الوجه الأبيض.. عاود رفيقها يخاطب من حوله:

- ما هو رأيكم فيما سمعتم؟

لترتفع أصوات من هنا وهناك: انتدبناك فأفعل ما تراه.

أدركت الشابة تردد رفيقها.. التفتت لتحتضن بكفيها وجهه تهزه بحنو.. مركزة عينيها في عينيه:

- ألا ترى بأن الجميع في محنة. هيا كن شجاعا وأنقذنا!

ابتسم عنصيف حين التقت عيناه بعينيها.. راق له وجهها الأسمر الفتي.. متيقناً من أنه على وشك اصطياد حجرين بعصفور واحد.

خرجت كلمات الشاب مرتبكة:

- نوافق على ما طرحت.

تقدم بعدها عنصيف ليصافحه.. رافعا صوته:

- لقد عفونا عنكم.. ومن اليوم أنتم أبناء الوادي.. وجميعكم في حمى الشيخ مرداس.

ولم يكن هدفه من مصافحته إلى الإمساك بكف الشابة.. حينها أحست بدفء يسري في كيانها وتيقنت أن تلك الرسائل منه كانت حقيقية.

أرتفع تهليل الجميع فرحاً.. وقد أعطى عنصيف الإشارة للحراس بفرز القادرين على العمل.. لم تغب شمس ذلك النهار حتى كان أكثر من مائتين رجلاً وامرأة قد تم اقتيادهم إلى مأوى ملاصقٍ لحبس الحصن.. وتُرك كبار السن يصطحبون الصغار منحدرين باتجاه أدرامهم.. تاركين جثث قتلاهم في الساحة .

أفاقت "شبرقة" من ذكرياتها على صوت من تخبرها بأن حريقاً هائلاً قد شب في غابة الجبال العالية.. عادت بوعيها كمن أفاقت من حلم.. لتقف فزعة أمام نافذتها.. وقد بدا لها منظر النار وأعمدة الدخان العملاقة هولها مرعباً.

.

تلك الشابة السمراء "حمامة" أمست بداخل أسوار الحصن.. وقد أُلحقت ضمن خادمات دار شبرقة.. وذلك جل ما تحلم به أي خادمة.. جدران كانت تراها بالأمس بعيدة المنال عالية تعانق السماء.. واليوم تسكن بداخلها وتطل على الوادي من عليائها .. متأمله أدرام تتناثر على الحواف كـ"مقاور" نملٍ.. وقرى متباعدة على قمم الجبال وسفوحها.. وخضرة لمزارع تملأ العين.

لم تتقبل أي من الخادمات مجالستها تاركات لها أحط الأعمال وأشقاها من كنس وتنظيف وطحن. لم تكن تلك الأعمال لتنتهي إلا لتبدأ من جديد. ولم يكن العمل يقتصر على النهار بل يمتد إلى أنصاف الليالي.. وما أن تنتهي حتى تتكوم في إحدى زوايا بيت النار كالقتيلة تغط في نوم عميق. وأمام قساوة من حولها وعناء العمل كانت تستدعي نظرات عنصيف وابتسامته التي سكنتها يوم اطلالته على الساحة.. ومن ليلة إلى أخرى تتوقعه.. ترهف السمع وسط ظلام دامس.. وما أن تشعر بحركة أو سماع صوتٍ حتى يركض قلبها مستبشرا.. تسارع إلى خلع ملابسها.. تتخيل بياضه يبدد ظلمة معاناتها.. بأنفاسه تلفح وجهها.. وتغمض عينيها ذائبة تحت أغطيتها. ودوماً تلعن الريح التي تحرك النوافذ والأبواب.. وتلك القطط العابثة بليلها.

تتابع حمامة أخبار رفيقها بعد أن كلفه عنصيف سَوق الأخدام يعاونه عدد من الحراس بسياطهم إلى المزارع.. تسترق النظر لتراه عند الفجر يخرجون بهم.. أو مع عودتهم مساءً.. لعدة مرات حاولت التسلل للقياه.. لكنها عيون الحراس في كل زاوية وخلف الأبواب تترصد لكل حركة. أكتفت باستراق النظر وبأخبار تِعْشاقه لمن تحت يديه من خوادم ممن يعملن بالمزارع.. مع الأيام تشعر بأنها وقعت في دوامة من الشقاء.. وإن الهاها بقايا أمل. لتزيد معاناتها ما تصلها من أخبار إتهام الأخدام لرفيقها ببيعهم للحصن.. ثم جرأتهم عليه بالضرب. بعد وفاة عدد منهم صرعى الأمراض وإعياء قسوة العمل. ليتكرر الاعتداء عليه محاولين قتله.. أثناء ذلك هرب منهم مجموعة.. وتخفوا وسط أشجار المزارع.. ليتعقبهم الحراس ويقتلوا منهم عدداً.. ويُسحب من تبقى بعد أن أصيبوا بإصابات خطيرة.. ولأمر عنصيف إحكام وثاقهم إلى أعمدة أُستحدثت في ساحة الحصن الخارجية.. ومع خروج مصلو الجمعة أعدموا بزخة رصاص. ومن يومها يساقون مقيدين إلى بعضهم البعض.. تحرسهم بنادق الـ"بشلي" عوضا عن سياط نُقِعَت بزيت السمسم.

استمر تحاشي خادمات الدار لحمامة وعدم مشاركتها طعامهن.. مرددات على مسمعها "آكل يهودي ولا تآكل خادم". واستمرت زاوية بيت النار ملاذ دموعها. ولم تعد تحلم بتلك النظرات وتلك الابتسامة التي رافقت وحدتها كثيرا. إلى ذات ليلة حين أيقظتها أصابع لامست وجهها.. ظنت بأنها تحلم.. أو تكون حشرة عابرة.. لكنها رائحة لم تألفها داهمت أنفها.. أعقبها همساً عذباً أنسكب في مسامعها.. اجتاحتها رجفة شلت حركتها.. ثم أخذ بدنها ينتفض لهبوط أصابعه إلى رقبتها.. وأنسلت إلى صدرها. كغريقة استعادت حركة.. ذراعيها.. فرَّتهما لتحتضنه خوفاً من أن يتبخر كأحلامها السابقة.. تتمتم باكية: أخيراً تذكرتني أخيراً... لم ينطق بكلمة سوى همس محموم.. تاركاً كفيه تتفقد تضاريس جسمها. للحظات داهمها خوف أن يكون شخصاً غيره يعابثها.. فكرت في رفيقها.. لكنها تذكرت بأنها تعرفه خاصة في الظلام.. شرعت بخوف تتلمس وجهه.. تحاول ما يمكن تذكره من ملامحه.. في وجل تلمست أنفه. كان طويلا وضخماً.. بينما هو يرتجف من حمى شبق تعود عليه حين شروعه في مداعبة أنثى جديدة .. منشغلاً بإزالة ما تبقى من أسمالها حتى كانت عارية.. أغمضت عينيها يقودها إلى مشارف اللذة.. تشفي غليل شوق يحتلها منذ شهور.. لا تعرف كيف أنقضى الليل وقد أنسل من بين يديها ترى شبحه الداكن واقفاً. لم تنم بعدها حتى تسرب الضوء.. لتتفقد أثاره على بشرتها الآبنوسية.. وفي مداخل لذتها.. تكتم صرخة "لم يعد حلماً وقد بتُ في أحضانه" وإن انتقصت متعتها الشكوك. بعد تلك الليلة أمست تنتظر عودته ليالٍ للتتيقن أنه هو.. ومع عودته الثانية.. تمنعت وقد حاولت استدراج منادمته.. ظل يراوغها بضحكات قصيرة.. وحين أدرك اصرارها حدثها بكلمات أسكرتها.. ليحملها على أجنحة الشهوة الحارقة.

توالت الليالي سخية بلهيب الشوق.. تروي حرمانها.. وقد بدت راضية بحياتها.. تداعب من حولها على الدوام ببهجة.. تاركة تساؤلاتهن حول ما اعتراها من تغير.. يسمعنها مندهشات تغني بهيام طوال النهار.. وقد تبسم وجهها الأسمر طوال الوقت. لكن مفاجأة أربكتها فلا تدري أتسعد أم تحزن وقد أحست بأعراض الحمل.. تفكر برهبة حول ما سيحل بها حين يكتشفنها. رجته ذات مساء السماح لرفيقها بلقياها.. أن يراه الجميع يجالسها.. قالت له: هو من أخترته زوجاً! وكان لها ما أرادت.. حين أشار على الحراس السماح لرفيقها بالاختلاء بها. كان صوته يتردد وسط الساحة الداخلية للحصن ليسمعه من في الدور.. وإن لم يحصل ذلك قط.

مضت الليالي وفرحها يتزايد بزيادة تكور بطنها. تتمناه صبياً.. تتشوق أن ترى عنصيف يضمه إلى صدره.

..

ما زال ذلك اليوم عالقاً في ذاكرة شبرقة.. يوم مقتل "عنصيف" وفرار قاتله ليحتمي بالشيخ "شنهاص" شيخ غرب الوادي. سريعاً ما امتلأت ساحات الحصن بالرعية بعد أن سمعوا

بالخبر.. جاءوا ليشاركوا في تشييع الجنازة.. مطالبين بالقصاص من القاتل.. لم يكن القاتل غريباً.. فهو أحد سكان الحصن من أبناء عمومة الشيخ مرداس.. بل آخرهم بعد أن طرد مرداس جميع أبناء عمومته من الحصن في سنوات متباعدة.. وحولهم كأجراء يسكنون قرية منحدر الحصن. ظلت أسباب القتل غير واضحة. وإن كان البعض يؤكد بأن وراء ذلك التنافس على قلب فتاة.

وقف "زيد الفاطمي" مستشار الشيخ خطيبا في جموع الرعية بعد الدفن.. يحثهم على الثأر. وعلى التكاتف وطاعة ولي الأمر فيما يوجه.

جلس زيد إلى الشيخ بعد ان تفرق الجمع مشيراً: أرى بأن تشيعوا بأن شنهاص من وراء قتل عنصيف.. وأنه من شجع القاتل على ما أرتكبه. وان نعمل بسرعة لتجهيز الرعية لنباغت قرى الغرب وضمها إلى مشيختهم... أن نستغل هذه الفرصة التي لن تتكرر.

ظل الشيخ يستمع إلى مستشاره صامتاً.. وقد راقت له الفكرة.. ليدعوا عقال القرى وأمنائها.. ويطرح عليهم ما أشار عليه مستشاره.. داعيا الجميع إلى سرعة إعداد الرعية لمسح العار.. ذاكرا لهم أن قرى شنهاص وما فيها "فيد" حلال لهم وللرعية.. مذكرا لهم أن عليهم بإعداد الرعية سراً فالحرب خدعة.

أنشغل الشيخ ومستشاره بتوفير البنادق ومونتها.. مرسلاً من يثق بهم لجلبها.. يرتب كل شيء ليوم الفصل والهجوم.

...

لم يكن لشبرقة أن تفهم ما يدور حولها.. بعد انهيارها ضحية لأحزانها.. رافضة تناول الطعام.. لتسوء حالتها حتى فقدت وعيها. وأمست لصيقة الفراش تتبول على نفسها.. ما أضطر بناتها إلى نقل حمامة من زاوية بيت النار بطابق الخادمات.. لتبيت جوار باب حجرة شبرقة للسهر والعناية بنظافتها. في الليل تهب مسرعة كلما شعرت بحركة أو سمعت أنَّه.. وطوال النهار تقف إلى جوارها تهش الذباب عن وجهها. ولا يعلم أحد أن حمامة هي الأخرى قد أصابها حزن عميق على رحيله.. تخفي على من حولها ما يعتمل في أعماقها.. وإن سألتها إحداهن تشير إنما ذلك عوارض الحمل.

ودوما تطيل النظر في لحظات إغفاءتها إلى وجهها.. تدنو وقد أغمضت عينيها تسترق قبلة على جبينها.. تعرف بأن ذلك الوجه ليس وجهه وإن ظنته للحظات وجهه.. تمد أصابعها تلامس أنفها المدبب الطويل.. وجهها المستطيل.. فمها الصغير. تدمع عيناها حزناً وهي ترى ذلك الشبه يخفف بعض أحزانها.

تخدمها بحب.. فتهتم بإطعامها.. وتبولها وتنظيفها كما لو كانت طفلتها. ودوما سعيدة لقربها منها.. تراها سادرة في غيابها لأسابيع.. ولذلك كان الجميع يتوقعون رحيلها. إلى ذلك الصباح حين فتحت عينيها لتصطدم بوجه حمامة الذي كان يهم بتقبيلها.. وللحظات تحركت عيناها.. تتأمل وجهها ثم تبتسم وتعود لغفوتها.. تكرر ذلك لأيام.. ثم تحاول النطق.. لتنطق: من أنتِ؟!. أجابت بلهفة: خادمتك حمامة سيدتي. ثم تصمت وقد طالت نظراتها تتابعها بعينين متعبتين.. ولأيام يتكرر ذلك ثم تعاود سؤالها: من أنتِ؟. ويوماً بعد يوم أضحى صحوها يزداد وأسئلتها تتكرر: لماذا أنت إلى جواري؟!. ثم تعودت وجودها إلى جورها. وأخذت تطلب منها أن تساعدها لتذهب إلى بيت الراحة. ولم يمر وقت حتى عادت إلى طبيعتها وقد تغلبت على أحزانها.. وإن سكنت أعماقها.

رأت حمامة العودة إلى طابق الخادمات.. لكنها أمرتها بالبقاء إلى جوارها. وذلك مع زرع في قلوب خادمات الدار العجب وقد فضلت السوداء عليهن. تبتسم حمامة جازمة أن روح عنصيف هي من تحميها.. وهي من أوعزت لوالدته الرأفة بها.

لكنه القدر يغير سعادتها.. فما أن دخل حملها شهره الأخير حتى زُف إليها خبر مقتل رفيقها.. بعد أن وُجِدت جثته في سكن الأخدام مشوهة.. ما بعث أحزانها وضاعفها.. لتصاب مشاعرها بتبلد مفاجئ.. ويغزوها شعور بأنها وحيدة في هذه الدنيا.. وآخر من لها لا تعلم عنهم شيئاً بعد أن انقطعت أخبار أمها أو أخوها إثر دخولها الحصن. لم يتحمس الشيخ لمعاقبة الجناة.. فالأخدام كائنات بلا قيمة يتم نسيانهم. أحست شبرقة بحزنها.. وقربتها إليها أكثر.. وطلبت نقل مكان نومها إلى إحدى زوايا حجرتها ما أعاد لها بعض اتزانه.. وفي تلك الزاوية وضعت طفلتها ليدهش من حولها لبيضاها.. أظهرت شبرقة حفاوتها بالوليدة.. واختارت لها اسم "زُهرة". وإن ظل شغل الخادمات الغمز واللمز حول بياضها اللافت.

....

لم ينتظر مرداس حتى يبرأ جرح مقتل عنصيف في قلب شبرقة.. ليفاجئها بالزواج من صبية من صبايا قرية المنحدر.. كان جرحها لا يزال ينزف.. وكأنه بتلك الصبية أراد قتلها.. تحضرها ضجيج الزغاريد وضرب الطبول وهم يدخلون بالعروس بوابة الحصن.. لحظتها كادت تفقد صوابها.. تبحث عن مبرر لخطوته تلك.. فلا تجد ما يقنعها.. تردد سؤالها بصوتٍ مسموع: ما حاجته لزوجة جديدة؟. وللمرة الأولى تسمع حمامة ترد على ما يعتمل في قلبها: لو وقفت ياسيدتي عند أفعال غيرك لتوقف قلبك. وبالفعل أشعرتها كلمات حمامة في تلك اللحظة بأن عليها أن تكون أمام مرداس دون قلب. بعد دخول تلك الصبية الحصن تغيرت مشاعرها تجاهه. وما زاد إيلامها انقطاعه عن زيارتها لعدة أشهر. وجاء محملاً بهدايا كثيرة.. كان واثقا من قدرته على إرضائها: أنتِ سيدة الحصن.. وما الصبية الجديدة إلا خادمة ضمن خادماتك الكُثر.. ولم آتِ بها لتحتل مكانك.. فأنتِ زوجة الشيخ مرداس.. وأنت

أم الشيخ عبد الجبار. تزوجتها من أجل أن يكون لأبنك أخوة وعزوة. كانت تسمعه صامتة وقد أظهرتْ له رضاً زائفاً.. ولم يكن يدري أن كرهه قد استقر في أعماقها. تلك الأحداث المؤلمة أفضت إلى علاقة وثيقة بين شبرقة وحمامة.. وقد تحولت من خادمة إلى جليسة.. تتحدث إليها طوال الوقت كأنها صديقة قديمة. بل أنها أصبحت تشاركها طعامها.. ما أثار تعجب الجميع.. لتهمس إحدى بنتاها تذكرها بمقوله يرددها الجميع "أغسل الوعاء بعد الكلب.. واكسره بعد الخادم". لكنها لم تأبه لكلام من حولها. ولم يكُن لإحداهن أن تتجرأ على حمامه بعد ذلك.. الحديث حول لون طفلتها.

.....

حتى يوم مقتل عنصيف كانت قرى الوادي مقسمة إلى مشيختين.. فقرى مشرق الوادي تتبع حصن مرداس.. وقرى مغربه تتبع دار "شنهاص" في قرية "الجفنة". وكانت العلاقة بين الشيخين تتسم بالعداء المستمر.. فكل منهما يتربص بالآخر.. ليأتي فرار القاتل مبرراً لهجوم مباغت وواسع اجتاحت فيه رعية مرداس قرى غرب الوادي في أيام قليلة. وكانت البداية حين أنتهج مرداس مناورة تمويه.. طارحاً على شنهاص ثلاثة خيارات.. أولها: تسليم القاتل دون قيد أو شرط.. أو رحيله من الوادي واسقاط أملاكه وهدر دمه إن عاد.. وثالث الخيارات الحرب بينهما. ولم يكن في خياراته صادقاً.. فغايته الظهور في مواقفه بالرجل المسالم.

لم يساور شنهاص أدنى شك حين وافق على الخيار الثاني وأعلن طرد القاتل وبذلك تؤل جميع أملاكة لمرداس. لكن الهجوم باغتة بعد أيام قليلة.. لتتساقط قرى الثانية تلو الأولى.. ولم يستفق حتى كان الرعية يطوقون داره.. وتم اقتياده وابنيه وعدد من بني عمومته وزوجته وأبنته.. ولم يكتفوا بل تم نسف داره ودور من قاوم. وبترت أكفهم اليمنى للذكور.. وسُملت العين اليسرى لكل أنثى.. ثم أودع الذكور حبس الحصن .. ومن يومها لم يخرج منه أحد عدى الأبن الأكبر لشنهاص الذي توفى نتيجة لتعفن جراح ذراعه. ليعلن مرداس بعدها ضم القرى إلى أملاكه.. أثناء الهجوم كان مشايخ الوديان المجاورة قد عقدوا اجتماعاً لمتابعة تلك الحرب.. معبرين عن إدانتهم لما أقدم عليه مرداس.. المنافي لأعراف وأسلاف القبيلة.. رافضين ما وصفوه بالقسوة في معاملة شنهاص وأفراد أسرته.. معلنين استهجانهم لذلك الهجوم الذي لم يكن هدفه ازالة مظلمة.. بل بهدف التوسع والطغيان.. معبرين عن رفضهم لنتائج تلك الحرب.. مهددين بالتدخل عند عدم التجاوب.

.....

شبرقة كانت تعرف العروس الجديدة "عيشة" بسذاجتها.. لكن ما كان يؤلمها صِلاة قُربى والدها بقاتل عنصيف.. فهم أبناء عمومة مرداس الذي سلبهم ممتلكاتهم على سنوات متباعدة.. وجعلهم كسائر سكان الوادي أجراء.. وإن ميزهم بسكن قرية أسفل الحصن أسماها

"قرية منحدر الحصن". وما زاد من المها تباعد زياراته بعد زواجه.. ثم انقطاعه عنها. لتتحامل على نفسها وتبادر إلى زيارة "عيشة" محملة بالهدايا.. بعد أن رُزقت ببكرها "جمالاً". مظهرة سروراً بالغاً.. كاتمة غيرة تفتك بها وهي تتأمل ما يحيط بالنفاس من طنافس وأثاث ثمين.. وعناية لافتة. لكن ما كان يخفف ألامها أن أبنها "عبدالجبار" أمسى يد والده اليمين.. بعد أن دفعت به صغيرا لمرافقته وحضور مواقفه.. ولم يمر وقت حتى حل مكان أخيه الراحل.. ودوما ماكان مرداس يردد عليه: "من شابه أباه ما ظلم. أريدك أن تتعلم مني كما تعلم الراحل.. كيف تدار الرعية.. وكيف تكون شيخاً.. حين كنت في سنك كنت مرافقا لوالدي.. وذات يوم نهرني بعد أن لاحظني أتباسط مع الرعية وقال لي موبخاً "الرعوي يا ولدي مثل سقف البيت... إن لم تدعسته تسربت مياهه فوق رأسك.. يا ولدي كن ذئب وإلا دهستك البهائم. وأنا أريدك أن تكون شيخاً.. والشيخ يدعس ويسلخ وإلا لن يكون شيخاً".

وهكذا أقتدى جبار بوالده.. يتبعه نهاراً.. ويقضي لياليه متفقداً أرجاء الحصن.. زائراً لمخازن البن ومقاشره. وشونة الحبوب.. يتوقعه الحراس في كل وقت. تتذكر شبرقة أنها دوما ما كانت تحذره أن النساء آفة الرجال.. خوفا أن يتبع خطى شقيقه الراحل. وتسعد وهو يقضي أوقاته بجوار والده حتى أضحت له كلمة مسموعة. لكن بدايته كانت بعد أن قلده والده مسئولية مزارع البن والقات.. وهي المزارع التي يعتمد الحصن على مواردها. إذ أن ما تنتجه تلك الأشجار من بن يدر عدة أشولة من "الفرانصي" إلى جيب الشيخ.. من تجار يحملونها باتجاه البحر. كما أن القات يسوق بكميات يومية إلى الأسواق الداخلية محمولاً فوق قوافل الجمال القادمة إلى الوادي. باشر جبار مسئوليته وقد وزع الإشراف على مجموعة رجاله. أشخاص عليهم الإشراف على عمل الأخدام في المزارع. وآخرين بالإشراف على مقاشر البن وتجفيفها وتشوينها.. ومجموعة يتابعون قطاف القات وتسويقه.. متخذا من الشدة والحزم وسيلة لإخضاع الجميع.. ولم يمر موسم حتى توسع في استصلاح المزيد من سفوح الجبال وغرس الاف الشتلات.. ومع زيادة المساحة ظهرت مشكلة تناقص أعداد الأخدام.. بعد توالي الوفيات بينهم.. نتيجة للأعياء وانتشار الأمراض.. ولم تأتِ السنة الخامسة حتى تفاقمت المشكلة مهددة تلك المساحات الشاسعة بالجفاف. ليسارع جبار إلى سد النقص المتزايد بإشراك المحابيس من الرعية.. ولأول مرة يرى الناس المغضوب عليهم من الرعية جنبا إلى جنب مع الأخدام مسخرين لأعمال مزارع الشيخ.

.....

تسعد حمامة وهي تتابع ابنتها وقد بدأت تحبو.. تخرج أصواتاً محببة تدعو كل من حولها: دادا.. دادا.. دادا. أمها وشبرقة وبنتيها والخادمات وكل من يقترب منها.. تتمنى في قرارة نفسها أن تشب وقد تناسى الجميع همزهم ولمزهم حول اختلاف لونها. أن تقبلوها كما لو كانت واحدة منهم.. تلك الأماني كانت تخرجها من رعب يهدد مستقبل ابنتها.. تحلم بزهرة

وقد أضحت إحدى فتيات الحصن يتسابق إلى ودها الجميع.. لتمدها تلك الأحلام بسعادة نابضة. ومع تكرار تلك الأحلام تتلاشى أحاسيس الخوف.. ومشاعر الغربة التي غزتها بعد مقتل عنصيف ومقتل رفيقها.. وما كان يزيدها ثقة بضمان غد زهرة اهتمام شبرقة وعطفها عليها. ما يزرع في قلبها مزيد من الطمأنينة. ولذلك تتفانى في خدمتها.. مظهرة سعادة وحبور حين تشعرها برضاها.. تقضي النهارات قرب قدميها. ومع حلول المساء تضطجع في زاويتها وقد الصقت صغيرتها بصدرها تنتظر صوت شبرقة التي يحلو لها المنادمة طيلة الليل.

يوم خطت زهرة خطوتها الأولى فردن اذرعهن مهللات.. بينما عينا حمامة اغرورقت بالدموع لرؤية لهفتهن.. وأيام فطامها تناقلتها أحضانهن بفيض حنان.. ويوما بعد آخر تشعر بأنهن أفسحن لها مكاناً في قلوبهن.. ما زرع يقيناً بأن سنين صغيرتها في أمان. وهكذا حتى تجاوزت زهرة الثامنة من عمرها وجميعهن يرعينها كأمهات لها. وكثيراً ما تخيلتها عروساً.. تتوقف أمام أحلامها في خوف متسائلة: ومن سيكون عريسها؟. من يقارب سنها بداخل الحصن جمال. لكنه عمها!. ولما لا يكون عريسها من خارج الحصن؟!. تغمض عينيها هروباً من تساؤلات لا تجد لها أجوبة.. لتبهت أحلامها وتتداخل. فكرت أن تخاطر وتبوح لشبرقة حتى تساعدها.. هي تعرف بأنها حفيدتها.. فقط تطلب منها أن تكون راعية لها. أن تشارك في حملها الذي يثقلها وطأته يوما بعد يوم.. لا تفكر بنفسها.. فقط أن تضمن لصغيرتها حب من حولها.

ذات صباح سألتها إحدى بنات شبرقة بفرح صبياني: لأبنتك عيني أمي! صمتت تقلب كلمات الصبية باحثة بين الثنايا عن مقصد.. أو أنها أرادت أن تبدي تحببها. وحين طال صمت حمامة أردفت: أو أنك توحمت بعيون أمي!. كما لو أنهم بدأوا يكتشفون ذلك الشبه.. ليس في عيونها أو بياضها فحسب.. بل وتدويرة فمها.. واستطالة وجهها.. وذلك الأنف. دمعت عيناها وهي تنظر في عيني زهرتها متذكرة وجه عنصيف الذي ورثه عن أمه ليورثه للصغيرة. جازمة في تلك اللحظة أنهن يعرفن سر زهرة.

تمر ليالي حمامة متشعبة بمنادمة سيدتها شبرقة.. حتى تلك الليلة التي خلدت للنوم وقد ظنت أن شبرقة خلدت للنوم بعد صمت طويل. ليتسلل نوم لذيذ إلى عيونها وتراخت مفاصلها. لكنها تسمع صوتها يتسكع وسط ظلام الحجرة.. لم تستجب في البداية متمنية أن تتركها للذة النوم.. لكن صوتها أكثر اصراراً يدعوها لمواصلة المنادمة.. قاومت نعاسها مستجيبة.. تتمنى أن لا يطول لتعود لنعاسها.. لكن ذلك الصوت أستمر يتنقل من موضوع إلى آخر ماراً بـ "عيشة" وأبنها جمال الذي تعيب عليه ملازمة أمه. وقالت بصوتٍ منتشٍ: أن عيشة لا تجيد تربية الرجال.. فابنها يشابه البنات في سجاياه. وحين لم تتفاعل حمامة مع موضوع جمال انتقلت شبرقة إلى موضوع آخر.. يقفز صوتها وحمامة ترد عليه بما يدل متابعتها لما يقال. بينما

في سرها تتمنى أن تعتقها.. إلى أن قالت بصوت عطوف: زهرة لم ترث لون زوجك!. محاولة أن تبدو كلماتها عفوية.

إلا أن حمامة أحست للحظات بميسم ساخن يعبر مسامعها.. لتتمزق خيوط النعاس متبعثرة وسط الظلام.. لم ترد من فورها منشغلة بضم أبنتها إلى صدرها وكأنها شعرت بمن ينازعها.. ثم أخذت تستعيد تلك الكلمات.. مستنتجة بأنها تعرف من وراء بياض زهرة.. وما توده هو التأكد من انتماء الصغيرة إليها ليس إلَّا. ردت بصوت راجف:

- تعلمين سيدتي بان تلك مشيئته.

ما أن أكملت إجابتها حتى سمعت سؤالاً صريحاً:

- من يكون والدها؟

شعرت حمامة بعدم حيادية الصوت.. لتجتاحها رعشة خفيفة جعلت صغيرتها تتململ على صدرها. تتخيل ابتسامة شبرقة.. وهي تنتظر اجابتها.. لكنها فظلت الصمت. مفضلة تدليل نفسها باستماعها لصدى الكلمات.. دون أن تستحثها شبرقة بالرد.. يتراءى لها وجه شبرقة وقد استطال أكثر وهي تنتظر. لتذهب ذاكرة حمامة بعيدا.. إلى تلك الليالي القليلة التي كان عنصيف يغرقها بشبق ساخن.. يزرع قُبلة وقد عراها وسط ظلام بيت النار.. يدغدغها بكلمات لم تألفها.. يترك لها هداياه.. لتكتشفها جسمها يضوي بقعاً داكنة. لا يفارقها فجرا إلا بعد أن يشبعها بقبلات خبير بمواطن الإغواء.. يعريها.. يداعب بؤر إثارتها. يشعل جسدها نجيمات تتوهج نشوة حتى تمتد طوال يومها. يدحرجها على أرضية ظلمة بيت النار. لتتأمل بدنها صباحاً نهم اللذة.. تستعيد لحظات فسوقه بإشعال غلمتها. غير مصدقة أنها أمست بين أحضان سيد الحصن شعلة حارقة.. وكثيراً ما تمنت أن يخلو بها نهاراً لتملأ عينيها بعريه.. أن تنظر في عينيه وتتلمس مخارج همسه.. وأن ترى مفاتن بياضه. أعادها صوت شبرقة.. لتجيب وكأنه لا يعنيها:

- كنت أتمناه صبياً.

وكعادتها تبادر بسؤال لاهث:

- ولماذا صبي؟

قلدتها بسرعة الإجابة:

- حتى يكون حاضراً بيننا!

- من تعنين؟

هنا شعرت بحشرجة صوتها يستحثها سرعة الاجابة.. لتبتسم حمامة وقد أحست برودة غامضة تلفح وجهها.. استوت على فراشها واضعة زهرة على حجرها.. لتمارس لعبة الصمت والذهاب بذاكرتها بعيداً.. وكأنها تستدعي ليالي عنصيف تستقوي به على أمه. ليأتيها صدى همسه "ستكونين غدا بأحسن حال.. وسأرعى ما في بطنك ما بقيت حياً..." يوشوشها بينما أصابعه تمسد ظهرها.. ثم يهبطن حتى ردفيها.. شاهقا "من له مثل هذا يعيش في وجد عمره ". يمددها يدلق وعاء عسل في ساقية ظهرها.. يلعق هبوطا حتى أخمص قدميها.. يتأجج جسدها وتحتدم غلمتها.. يعيد على ظهرها يسكب المزيد بين نهديها.. ينسال حتى كأس فخذيها.. يمرر لسانه من الأعلى إلى الأسفل .. ثم يضمها إلى صدره.. يتمازج جسديهما على أرض بيت النار.. تشعر بأنها تحرق بذرات جمره.. لتكتمل لذتها باشتعال جسمها.

تستفيق لصمت يصم الأسماع.. تتساءل حمامة: ترى لمَ تلقِ بسؤالها ولا تلح على الاجابة؟. هل هي الأخرى تنشغل بذكريات لذيذة؟. أم أنها تدخل مع نفسها في رهانات حول ما سأنطق به.. تبتسم وتجيب:

- عنصيف!

في هذه المرة لم تسارع شبرقة إلى سؤالٍ آخر.. تاركة لصدى صوت حمامة يتردد: عنصيف.. عنصيف.. عنصيف. تخيلته عصفوراً خافق الجناحين وسط الظلمة.. باحثا عن منفذ. تتوقع في كل لحظة أن يعاود صوت شبرقة بسؤال آخر.. لكنه الصمت يجثم وكأنها أجادت لعبة الانتظار.

تتقلب وقد غادرها ملاك النوم.. ولم يعد لها إلا الانتظار. تراهن على سماع سؤال آخر.. رهان يذوي أمام جبروت الصمت.. تحاول وتحاول تخيل ما يشغل شبرقة طوال ذلك الظلام.. تتلبسها حيرة قبيحة.. ترتجف متسائلة: هل أخطأت بنطق أسمه؟ ليعود إلى مسامعها رفيف أجنحة ترتفع لتسمع اصطدامها بالسقف.. يسقط.. رفيف عودته التحليق ليصطدم مرة ثانية بالجدران.. ينزلق حتى القاع.. تشعر به يجثم جوارها.. تتمنى معاودة صوت شبرقة.. تنتظر وكأن الليل أستحال إلى دهر دون حواف.. تنتظر حتى ذبل انتظارها.. وظنت بأن شبرقة نست الأمر وأبتلعها النوم.. ظل دوي الصمت يصم مسامعها.. فاجأها وهجاً يتسلل من شروخ النوافذ.. هي المرة الأولى التي يخيفها الفجر.. حينها سمعت وقع أقدام شبرقة تتمتم كعادتها بأدعية الفجر متجهة خارج حجرتها.. كعادتها في مثل هذا الوقت إلى بيت الراحة لتتوضأ.. تردد أدعيتها المعتادة.. ثم تعود لتستقيم على سجادة صلاة الفجر وسط العتمة.

.....

يوم فر قاتل عنصيف ترك وراؤه زوجته ورضيعها "قارون" ووالده العجوز دون عائل. ليأمر مرداس بطردهم من الحصن.. وضم إرث القاتل من مزارع الوادي وما يرثه في

الحصن إلى أملاكه.. وبعد توسط عاقل قرية المنحدر منحهم مرداس بيتاً ومزرعة كأجراء لديه.. توفى العجوز بعد أيام كمداً وحسرة.. لتجد أم "قارون" نفسها وحيدة دون عائل أو سند. في مواجهة واقعها الجديد.. موزعة يومها بين العمل في مزرعة لصيقة بالبيت وإطعام بقرتها والعناية بدواجنها.. وإرضاع وليدها. وليلاً ترهف السمع علِّها تسمع خطو زوجها متسللاً إليها.. لكن الليالي تمضِ والوحدة تتسع. تخشى على صغيرها الذي يشب من مخاطر شتى.. تحرص على أن يظل بقربها ولا يفارق ناظريها حتى بعد أن بلغ السادسة.. تنهاه عن مخالطة أقرانه.. أو الحديث مع الغرباء. لا يعرف عن والده غائب شيء.. تردد بأنه سيعود قريبا. تحدثه بين فترة وأخرى عن قرب زيارته لهم.. وأن أحلامها لا تخطئ.. فهي تراه في منامها وكأنه لم يغب تقول لقارون: أراه يحملك على كتفيه ويسير بك بعيداً.

.....

لم يهنأ جبار بعد تزايد هجمات العصاة.. الذين يتسللون ليلاً من غابة الجبال حيث يحتمون بها.. يشعلون الحرائق في مزارع البن والقات.. ويسطون على زرائب المواشي ومدافن الحبوب. تُسمع أصواتهم تغني بعد كل هجوم وقد تسلقوا جروف مظلمة.. لتردد صدى أصواتهم جبال الليل.. ممعنين في تحدي حصن مرداس.. ومع اقتراب الفجر يتواروا وسط أشجار الغابة.

اختار جبار من بين الرعية مجموعات ليكمنوا لهم ليلاً.. فلم تتوقف هجماتهم.. ليستنتج تواطؤ خفي بين بعض الرعية والعصاة.. لجأ إلى إرسال عدد من رجاله ينضموا إليهم.. كعيون لرصد تحركاتهم.. لكن من أرسلهم لم يعودوا. لتتباين الأقاويل: قيل أن العصاة أجهزوا عليهم. وقيل: بل انضموا إليهم.. وقول آخر: أن وحوش الغابة أنقضَّت عليهم. جمع بعدها "عُقّال" قرى الوادي وكلفهم بالخروج ليلاً على رأس مجموعات من الرجال ينتقوهم من كل قرية لحراسة مداخل الغابة.. ومعابر الوادي ليلاً. لتأتي تلك الخطة ثمارها.. فبعد ليال تم القبض على عدد من المتسللين. ليأمر جبار بشد وثاقهم إلى أعمده ساحة الحصن الخارجية.. وكلف رجاله بإطلاق الصاص عليهم بعد أداء صلاة الجمعة.. ثم تُركوا لعدة أيام معلقين ليعتبر من يفكر بالعصيان.

خيم الهدوء على ليالِ الوادي بعد ذلك.. وظن الحصن بأن من في الغابة قد انكسروا.. أو أنهم عبروا الجبال وتشتتوا في وديان بعيدة.. لكن ما حدث بعد أسابيع أعاد الرعب إلى الوادي من جديد.. حين فوجئ رواد سوق الجمعة صباحاً.. بسبع جثث وقد شنقت إلى فروع الطولقة الكبيرة.. عرف الناس أن تلك الجثث لحراس مزارع البن.. انتشر الخبر.. وأمسى المكلفون بالحراسة من القرى لا يجرؤن على الخروج.

.....

فتحت زهرة عينيها ذلك الصباح لتجد نفسها على فراش لم تعتاده.. وجدران ليست جدران حجرة شبرقة.. نهضت تبحث عن أمها لكن لا أحد.. سمعت جلبة تأتي من نافذة ضيقة.. نهضت تستطلع الأمر.. رأت وجوه لنساء وصبايا تتصارخ من نوافذ الدور الأخرى.. عيونهن منصبة نحو الساحة الداخلية.. مجموعة من الحراس يسوطون كائناً يتلوى بين اقدامهم.. لم يجذبها الأمر في البداية فقد تعودت أن تشاهد ذلك بين فينة وأخرى.. لكن صوت من يسوطونه شدها.. عادت تتابع ما يدور.. تحاول أن تمييز كلماته.. لكن أزيز السياط يطغى على كل صوت.. يتعاقب الأزيز ذابحاً للهوى وذلك الجسد يتلوى.. ترى ذلك الكائن وقد أدميت أطرافه.. خيل لها سماع اسمها: زهرة... زهرة! عادت تتفرس.. أحست بما يذبح روحها وهي ترَ مِزق ثوب يشبه ثوب أمها يتطاير.. صرخت مرعوبة متجهة تبحث عن سلم الهبوط.. سريعاً ما وصلت الساحة.. تأكد لها بأنها أمها.. تعثرت أرضاً بعد أن وقف أمامها جبار بألسنة سوطه.. سقطت أرضاً.. لبرهة التقت عيناها بعيني حمامة مادة كفها باتجاهها.. زحفت وصفير السياط يتعالى.. أنطلق طعم النار في لسانها.. فجأة ابتعد الحراس يجرون سياطهم الطويلة تاركين لها أن تقترب.. لامست أصابعها الدامية.. هزت كتفيها صارخة.. لتكتشف همود جسمها.. احتضنتها صارخة.. تتمرغ فوق صدرها حتى فقدت وعيها.

أفاقت على فراش بارد.. تحاول تذكر ما كانت قد رأته.. كومت أطرافها خائفة وهي تتذكر.. ثم صمتت للحظات تبحث حولها.. عرفت أنها في نفس الحجرة التي كانت بها قبل رؤية أمها تُجلد. رأت امرأة ترقبها من الباب. هلعة تنتحب وهي تتلمس ما حولها كمن يبحث عن شيء.. تقدمت تلك المرأة.. جلست جوارها.. مسحت على رأسها ثم احتضنتها.. بعد وقت هدأت تسترق النظر بخوف إلى وجهها.. رأت وجهها بعين واحدة.. بيضاء البشرة.. شفتين باسمتين.. ندت منها أنَّة: أين أمي؟! عادت ذات العين إلى ضمها صامتة. مر ذلك النهار ولم ترَ غيرها.. اليوم التالي. ولإيام ظلت إلى جوارها حتى الفت قربها.. صوتها الذي تستخدمه قليلاً.. تكرر سؤالها: أريد أمي؟ ترد عليها دوما بابتسامة ونظرة حزينة. عرفت أن أسمها "شادن". وأنها تعيش في طابق للخادمات.. وأنا أحدى خادمات دار شبرقة. نبهتها عدم صعود الأدوار العليا. تخفي توجسها أمام شادن.. تتمنى أن تجد إجابات لأسئلتها.

وعت زهرة على الحياة وهي ترى من يُعاقَبون في الساحة الداخلية للحصن.. ودوما ما يقود جبار جلد المغضوب عليهم من الرعية.. وقلة من يعزروا أو يعذبوا حتى الموت.. الجميع يتهامس بالأسباب.. والجميع يعرف أن غضب الشيخ وراء كل عقاب. ظلت زهرة في توجس ممن حولها تفضل الانزواء. لتنفجر باكية بين وقت وآخر تسأل ذات العين. لماذا قتلوا أمي؟.

.....

تزايد أعداد العصاة.. وتزايدت هجماتهم. ولم تكن تلك المعضلة التي تؤرق الحصن وليدة آنية بل تعود بدايتها إلى أيام مضت.. وبالتحديد إلى ذلك اليوم الذي خرج فيه جبار لاستقبال عدد

من مشايخ الوديان المجاورة.. ضمن دعوة التصالح التي أطلقها الشيخ مرداس. وبعد وصول المشايخ أطراف الوادي رأى جبار أن يستريحوا قليلاً تحت ظلال أشجار رابية تشرف على جزء من الوادي.. ومنها أخذ يشير إلى مزارع البن الشاسعة.. وإلى قرى الوادي المنتشرة.. ليلحظ نشاط من في الوادي من الرعية.. يعملون بهمة. ثم أشار إلى أحدهم مفكراً تجريب بندقه الجديدة "المُيّمَن". كان ذلك المزارع منكب بفأسه يشق الأرض.. لحظتها أنزل بندقه عن كتفه.. وصوَّبها على ذلك المزارع.. رافعاً صوته متباهيا: "حقوا لي على ذلك الخادم" حبس الجميع أنفاسهم شاخصين بأبصارهم.. للحظات ظلت اصبع جبار جامدة على الزناد.. تتابع عينه الهدف بينما من حوله ينقلون أبصارهم بين فوهة البندق وذلك الرعوي وهو يهوي بفأسه على الأرض.. طارت العصافير مذعورة لحظة سقوط حامل الفأس يتلوى ارضاً. هلل البعض منبهرين لمهارة جبار.. وصمت البقية مواصلين السير نحو الحصن.

هرع من كان في الجوار بعد سماعهم دوي الطلقة.. وجدوه يتخبط في دمه بعد أن اخترقت الرصاصة أسفل بطنه.. وضعوا تراباً ناعماً على ثقب الرصاصة.. ثم حملوه على أكتافهم باتجاه قريته.. لكنه لفظ أنفاسه مع انطفاء شمس ذلك النهار.

مع مساء ذلك اليوم صعد ابن القتيل "عرَّام" وقلّة من أقاربه إلى الحصن.. مستنجدين بالشيخ أن يتفضل على ميتهم بكفن وما يعين زوجته على مصابها.. لكن جبار خرج عليهم مستاءً لضوضاء أحدثتها أصواتهم.. وصلت مسامع الضيوف.. آمراً لهم: عودوا غداً.. وسيرى الشيخ في طلبك بعد أن ينتهي من واجب ضيوفه. رفع "عرَّام" صوته محتجاً وهو ما اعتبره جبار انتقاصاً من مهابته.. أمر الحراس بتفريق من جاءوا وتقييد ذلك المعتوه " جوار الدواب خارج بوابة الحصن.. حتى يرى ما يعالج حمقه.

حين أشرقت شمس اليوم الثاني لم يجد الحراس عرَّام.. ولا تلك الدواب التي رُبط إلى جوارها. ثار جبار صارخا: كيف يجرؤ ذلك النذل على سرق دوابنا والفرار بها.. أين سيذهب من عقابي؟! وفي التو أرسل رجاله للبحث عنه واقتياده إليه. لكنهم عادوا مع انتصاف النهار ليخبروه أن جيرانه سكان القرية رأوه يسوق مجموعة من الدواب فجراً وقد حمل على إحداهن جثمان والده.. وأركب أمه "ناصية" والقليل من متاعهم على بقية الدواب ورحل بعيداً. ساد حزن بين سكان القرية لفقدان "ناصية". تلك المرأة التي كانت تداوي خلافاتهم بحكمة وتبصر.

تتذكر شبرقة أنها أرسلت في طلب لقاء زوجها.. توسلت ألا يشجع جبار على ارتكاب المظالم.. ذكرته بمصير عنصيف الذي ذهب نتيجة لإهانة أعراض الرعية.. ركعت بين يديه دامعه ترجوه حماية ما تبقى لها.. ليرد ساخرا: ولدك مقدام.. وما شكوى الرعية إلا دليل شجاعته.. هو شيخهم.. والشيخ إن لم يتعلم برعيته فبمن سيتعلم؟!. انصرفت مكسورة القلب.. تفكر في وسيلة لنصح جبار من رعونة قد تأتي عليه.

بعد حين انتشر خبر لجوء "عرَّام" إلى غابة الجبال.. التي لا يجرؤ أحد دخولها لكثرة ضواريها. ظن الجميع أنها افترستهم. في الوقت الذي كانا قد وصلا إلى اطراف الغابة الأخرى التي تنتهي بجبال وعرة.. بعد أن أمرته والدته بإشعال مشاعل والسير بها.. ما أن جاورا شلالاً كبيراً حتى باشرا بدفن الميت تحت شجرة "ساج" كبيرة تمر مياه الشلال بمحاذاتها.. ثم أتخذوا من أحد الكهوف مأوى. ولم تكن تلك الأشجار بخيلة عليهم بثمارها وطيورها التي كان عرَّام يصطادها كطعام.

مرت أشهر لتنتشر أخبار عن تسلل عرَّام وزيارة بعض أصدقائه.. وما أن وصل الخبر مسامع جبار حتى أرسل رجاله لملاحقة من يلتقي بهم.. لتتسع دائرة الخوف ويفر البعض خوفاً رعونته.. وتمسي الغابة ملاذاً للفارين من بطش يتزايد. أطلق مستشار الشيخ زيد الفاطمي في إحدى خطب صلاة الجمعة على الفارين بـ "العصاة". وأفتى بمطاردتهم.

.....

شب قارون ولا يعرف من الوادي إلا بيتهم.. وخوف أمه يزداد عليه.. فلا يعرف أنه فارقها يوماً.. فلا تنزل المزرعة إلا وهو إلى جوارها.. ولا يأمن قلبها إلا وهو في مرمى نظرها. تسألها إحدى جاراتها:

- ولدك لم يعد صغيراً حتى يظل لصيقك.. دعيه يتعرف على الدنيا.. أرسليه يبحث عن والده**!**.

ترد عليها مذعورة:

- لكني أخشى عليه فلا يزال صغيراً لا يعرف سيئاً.

- لقد تجاوز الثانية عشر وهو كظلك يتبعك.. ألا ترين أقرانه يرعون أغناماً.. أو يساعدوا ذويهم في الوادي.

ظلت كلمات صاحبتها تنخر عقلها.. تتأمله لتراه صغيراً.. وإن بدأت تفكر أن تكلفه ببعض الأعمال فترسله إلى المزرعة ليأتي بطعم للبقرة.. وتشجعه على ملاحقة الدجاج وإدخالهن القن قبيل المغيب. وحين اقترب يوم تسليم "شرك" المزرعة.. شجعتها صاحبتها أن ترسله بديلٍ عنها.. قالت لها المسافة قريبة.. وهذا هو يعينك يصعد الصباح ويعود قبيل الظهيرة.

ترددت قليلاً.. لتجد نفسها وقد أمست تصف له الطريق إلى الحصن.. تحذره "إياك والحديث إلى الغرباء.. أنجز تسليم ما علينا من شِرك وعُد إلي سريعاً". ثم توصيه بما يجب قوله حين يصل دوره لتسليم ما عليهم والعودة. وهكذا ما أن أشرقت الشمس حتى ودعته حاملاً زكيبة البن على ظهره.. تراقب سيره من سطح بيتها تكفكف دموعها.. وما أن أختفى صاعداً

مرتفعات الحصن حتى شعرت بوخز في قلبها.. تحدث نفسها: اللهم أجعله خيراً.. ورده لي سالماً غانماً يارب العباد. ثم تصمت قليلاً لتعاود الهمس إلى نفسها: ولما القلق بعض الوقت وأراه هابطاً يعود إليَّ. جلست ترقب المرتفع لترى البعض عائدين.. أنتصف النهار ليتزايد قلقلها.. أحست بضيق صدرها.. شردت تتأمل تلك الجبال السامقة تهرب من هواجس تؤلم روحها.. ظلت دمعتها حتى اقترب النهار من نهايته.. تردد: الله لطيف بعباده. الطف بي.. غابت الشمس وقد داهمتها مشاعر باردة وعلى صوتها منتحبه.

.....

يوماً بعد آخر تلاشى نفور زهرة من شادن وتوطن الأمان في قلبها.. أمست تنام بين أحضانها.. لتحل رائحتها مكان رائحة حمامة.. تتبعها كظلها مشاركةً أعمالها من تنظيف وطبخ وترتيب. ومع الأيام تعلمت الكثير. ترى شبرقة عن بعد لحظات خروجها أو صعودها الدار.. تعرف أنها تتجنب تلاقي عيناها. وصدى تنبيهات شادان تتردد "لا ترفعي عينيك إلى وجهها حين تقترب سيدتك هابطة أو صاعدة. وحين تقف ابتعدي منشغلة بأعمالك". بدورها زهرة كانت تلاحظ شبرقة حين تقف موجهة لشادن حول بعض ما يجب عمله لا تعيرها أي اهتمام وكأنها غير موجودة. تحلم زهرة أن تلتفت إليها.. تسألها عن أحوالها. لكنها تمضي.

يجمعها الليل بشادن تهرع دموعها مواسية.. تشكو عدم فهم ما يدور. تهز شادن رأسها مواسية حين تتحدث عن عذاباتها. لتكرر نصائحها "لم تعودي صغيرة.. هذا أنت تقتربين من العاشرة.. عليك أن تدركي بأنك خادمة.. وأنك غير ما كنتيه تظنين صغيرة.. فلا داعي للشكوى والتذمر.. ولا تتعلقي بأوهام.. وأعلمي بأنك مجرد خادمة". وكلما لاحظتها تجنح للانطواء ترددت على مسمعها "تذكري أنك خادمة.. وقيمتك في نشاطك وما تقومين به من أعمال.. وأي تباسط كان من شبرقة أو من بناتها يوما يعتبر تفضل منهن عليك". تحاول زهرة استيعاب ما تسمعه.. تحاول تجاهل شبرقة وبناتها.. أن تمحوا أياماً كُن يناغينها.. يحملنها بين أذرعهن.. تشاركهن طعامهن وفراشهن. ظل الغموض يحيرها.

كانت شخصية شادن تحيرها.. عطفها.. حرصها.. ودوما تحاول اكتشافها. تسألها عن ماضيها.. عن فقدانها لعينها.. ترد بنظرات حائرة وقد دنت بوجهها أرضا قائلة: قد أحكي يوما عمَّ يشبع فضولك.. لكنك لن تجدي ما يثير. لتعزز إحساسها بغموض يكتنف ماضيها. تنشغل نهاراً بالعمل.. ومع قدوم الليل تأخذ قصد من الوقت لتعليم زهرة فك الخط.. وحفظ آيات من القرآن وبعض الأوراد والأدعية.. تدفعها لاستخدام عقلها في شؤون الحياة.. تحيرها روح شادن المختلفة عمن في الحصن. تستمع إلى ثرثرة زهرة ونادراً ما تتحدث عن نفسها.

مع توالي الأيام ظنت زهرة بأنها ستنسى حمامة.. لكنها تسمع استغاثتها.. وتراهم يسوطون في منامها. تفيق في كل مرة وقد بللها العرق. تلوذ بشادن.. التي تسارع لاحتضانها. مرددة أذكار وأدعية. تمسك بوجهها ناظرة في عينيها بغموض محبب. ترى في عينيها شروداً.. وذلك الوجه المستطيل بياضاً يميل للصفرة.. تهامسها في حنو:

- أذكري الله.

- لا يزالون يسوطونها.. ولا تزال تستغيث بي!

ترد عليها وقد أتسعت عيناها رعباً. وهي تشعر بعمق محبة شادن.. مُيّقِنة بأن الله أرسلها بعد فقدان حمامة.. تنتابها مخاوف أن تفارقها يوماً.

أمست زهرة تجيد كتابة الكلمات.. وتقرأ القرآن.. تستمع في زهو إلى كلمات شادن المشجعة:

- تتعلمين بسرعة.. لكن أحرصي على ألا يعرف أحد في الحصن بأنك تجيدين ذلك. ودوما تعلمي أن تستمعي أكثر مما تتحدث.

- كيف لي ذلك.. وأن أحس بأن بداخلي نار تتقد.. وأريد من يسمعني.

- إن أردتِ البقاء داخل هذا الحصن عليك أن تخفي أشياء كثيرة.. وتنسي أشاء أخرى مثل طفولتك.. وأمك.. تنسي حتى مشاعرك.. عليك أن تعرفي أن شبرقة سيدة هذا الحصن.. تنتظر الإخلاص.. وألا تطمعي بشيء آخر.. فبقائك يتطلب استمرار تفانيك في خدمتها.

لم تكن زهرة تحب رؤية حمامة في منامتها.. ولم يكن صراخها يسعدها.. وكانت تلك الأحلام تزيدها عذابا وتبعث الماضي دور رضاها.. فتحضرها تلك الأيام حين كانت وامها في حجرة شبرقة.. وتضطرب حين لا تجد أجوبة لكثير من الأسئلة.

دهش قارون لكثرة الصاعدين من الرعية.. وما زاد عجبه لتلك الصفوف الطويلة المنتظرة في ساحة واسعة أما الحصن.. البعض يقود دواباً محملة بأكياس الذرة وزكائب البن.. وآخرون يزمون قطعان الماشية.. نسوة يحملن سلال البيض و"قفاع" الدواجن.. وأخريات على رؤوسهن أواني سمن و"قعبان" العسل. من شتى الأعمار يملأ ضجيجهم الساحة.. سمع بعضهم يتهامسون وقد خالطت أصواتهم خوف ورهبة.. أصطف خلف من اصطفوا حتى اقترب بثقل ما يحمل نحو مصطبة ارتفعت فوقها مظلة كبيرة. بعد حين جاء دوره أمام تلك المصطبة وقد فُرشت بمفارش زاهية.. يتكئ على جدار ضريح كبير عدد من الرجال يتوسطهم رجل قصير خالط الشيب شعره.. عرف ممن حوله أنه الشيخ مرداس.. ومن على يمينه ولداه جبار وجمال وإلى شماله مستشاره "زيد الفاطمي" بعمامته الكبيرة وجسمه

الضامر.. فارداً جناحي سجل الشِرك أمامه.. وحولهم عدد من حاملي بنادق الـ "جرمل" التي تُرَ لأول مرة في الوادي.

لاحظ أن من يصل أمام المصطبة يضع ما يحمل.. ثم يباشر بتقبيل كف مستشار الشيخ زيد.. معرفاً باسمه.. يدون المستشار ما أوصله الرعوي في سجله.. ثم يشير عليه بالتمام.. ليلتفت الرعوي نحو الشيخ راكعاً.. يقبل ركبته المغطاة بقماشة مزركشة.. لاهثاً بالدعاء.. ثم يستدير عائدا من حيث أتى.. وهكذا الذي يليه.

تقدم "قارون" وألقى بزكيبته أمام المستشار زيد.. سأله عن اسمه.. وما أن نطق اسمه حتى التفت الجميع يتفرسون ملامحه.. ثم انتشر همس. سأله زيد الفاطمي بصوت هامس ناظراً إلى الشيخ وقد علت شفتيه ابتسامة غامضة:

- أهذا كل ما عليكم من شِرك؟

رد مبتسماً ببراءة:

- تقول أمي لم يتبقَ لنا إلا القليل من الذرة.

عاد صوت زيد حاداً:

- أين شِرك عسل النحل.. وعجل وسمن البقرة و شقران الدجاج؟

انطفأت ابتسامة قارون:

- ما لدينا من نحل اصطدناه من شجوج الجبل.. و ...

ولم يسمح له زيد يكمل:

- لا زلت غِر يابني.. والحق على والدتك.. عليك أن تعلم بأن الوادي بجباله وشعابه وكل ما فيه حق الشيخ.

ظل قارون مرتبكا لا يلوي على شيء.. وبإشارة من الشيخ امتدت أكف الحراس لتقتاده بعيداً. بينما أنشغل زيد بمن يليه من الرعية.

قادوا قارون باتجاه الحصن.. أدخلوه مع آخرين باباً ضيقاً يجاور بوابة كبيرة.. لم يميز ما حوله لظلمة المكان الذي تحتله روائح عفن.. رويداً رويدا رأى جدران داكنة.. عشرات الرجال بملامح شبحية ونظرات منكسرة ملتصقين بارض تربة.. العيون تتأمله بإشفاق لا يعرف سببه.. مكان شبيه بسرداب فسيح.. ينتهي بباب آخر داخلي.. عرف فيما بعد بأن من خلفه يُحبس من لا يخرجون. لأيام ينتظر أن يخرجوه ليعود لأمه.. وإن كان من حوله

يهامسونه بأن من يدخل الحبس لا يخرج بسهوله.. مع الأيام عرف أن من خلف الباب الداخلي محابيس لم يخرجوا منذ أدخلوهم قبل اثنى عشرة سنة.

.....

زادت معاناة وحيرة زهرة لتزايد ظهور حمامة في منامها.. صراخ ودماء ودموع.. إلى ذات ليلة حين جلست تحكي لشادن:

- رأيتها وقد تغير حالها.. تضحك.. وقد بدت بقوام ممتلئ.. ووجه تغطيه ابتسامة ساحرة. هرولت بفرح لاحتضانها وكأنها لم تمت. لكنها صدتني.. كانت تتلفت كمن تبحث عن شخص ما.. وحين ظهرتِ أنت بوجه طافح بالبشرى.. وكنتِ بعينين باسمتين.

تتحدث زهرة إلى شادن وقد كسى وجهها الطويل حزن وحيرة.. ثم سألتها باهتمام على غير عادتها.

- كنت بعينين!.. وماذا بعد؟

- ثم عانقتك كما لو كنت صديقاتها الحميمة.. وأمسكت بكفك ماضية بك بعيداً. احترت حين تركتَّني.. لكني هرولت محاولة اللحاق بكن.. التفتت حمامة تزجرني.. ثم مضت بك بعيدا حتى اختفيتن.

- ثم ماذا؟

- هل عرفتِ أمي يوماً؟

- كنت أراها رؤية عابرة.. لكني لم أجالسها.

- إذاً كيف تفسرين رؤياي.

صمتت شادن تردد أدعيتها. ثم سألتها بصوت هادئ:

- هل رأيتني أسير معها راضية؟

- بل سعيدة!

عادت شادن تقلب الأمر.. ليسود صمت ثقيل.. لفَّت زهرة بأغطيتها وهي تواصل أدعيتها بصوت هامس حتى انتظمت أنفاسها.

يوما بعد يوم لم تعد ترى وجه شادن ناقصاً عيناً.. ولا تلحظ تشوه محجر عينها.. فقط تشعر بها كأجمل ما تكون.. بوداعتها وحنوها الدائم. بإيماءاتها.. يشعرها وجهها الباسم بالأمان.. مكررة سؤالها وقد أرتمت على صدرها:

- أرجوك لا تتركيني ..ولا تدعي حمامة تقودك بعيداً إذا دعتك لمصاحبتها!

- عليك أن تتحلي بالإيمان فلم تعودي صغيرة.

- أنت ترين الأمر ليس بالصغر أو الكبر.. ترين كل من حولي لا يعنيهم أمري.. وقد قتلوا أمي.. وأنت الأن أقرب الناس إلي بعطفك وصدق مودتك.

- إذاً حان الوقت الذي يجب أن أخبرك بأن رعايتي لك ليست إلا لأمرها هي!

التفتت زهرة مغضنة بين حاجبيها بتعجب.. ناظرة في عينها:

- أمر من؟

- شبرقة.

- شبرقة! كيف ذلك؟.

- هي من كلفتني.. ودوما تسألني...

- كلفتك بماذا؟

- كلفتني برعايتك.

- ولماذا لم تخبريني من قبل؟!

- نبهتني بعدم الإفصاح.

- لا أصدق ما تقوليه.

- بل هو الصدق.

- وهل الحب يأتي بالأمر.

- لا عليه سلطان.

- وخوفك عليَّ هل بالأمر؟

- لا أملك غير ذلك.

- فكيف تقولين أنها من أمرتك؟!

- تلك هي الحقيقة.. وعليك أن تكتمي ما أفشيت به اليك.

- لماذا أنت بالذات؟

- لو لم أكن أنا لكلفت غيري.

- لا تهمني ما سمعته منك.. وما يهمني أن أكون إلى جوارك دوماً.

- أنت قارئة كتاب الله.. فلا تخافي.

- هل أفهم من كلامك بأنك تنوين تركي؟

- لن أتركك. لكن تذكري أن شبرقة مهتمة بك.. وتذكري بأنك في أمان.. وستظلين بداخل الحصن طالما أخلصت لشبرقة.

- لا يهمني الحصن.. يهمني أنتِ.

تزايد خوف زهرة من فقدان شادن.. وإن ظلت ذلك الكائن المجهول.. ولذلك تكرر سؤالها:

- وعدتني أن تحدثيني عن نفسك؟

تبتسم دوما بعطف.. ثم تهامسها:

- أنا عند وعدي.. لكن الوقت لم يحن بعد.

- أشعر بأني أعرفك.

لمعت عين شادن بشجن دفين وهي ترى نظرات الخوف في عيون زهرة.. لتتسع ابتسامتها.. وقد أخذت ترتب ما ستحكي.. وقبل أن تبدأ ارتجفت شفتيها. ونزت من عينها دمعة شاردة.. أدركت زهرة ما يعتمل في أعماقها.. مسحت على خدها .. وسارعت لتخفيف ألمها:

- لا عليك من الحاجِي.. لا تحكي واهدأي وصلي على باهي النور.

فردت شادن ذراعيها كطفلة خجلا تضم زهرة بحنو.. لتتسع مساحة الصمت بينهن طوال تلك الليلة.

.....

لم تصل قارون أخبار أمه.. التي كررت الصعود إلى بوابة الحصن مصطحبة بقرتها.. محاولة إخراج ولدها مقابل تسليمهم البقرة.. ودوما تسمعهم يرددون: أذهبي وسيلحق بك بعد أيام. وفي آخر صعود لها.. خرج جبار زاجراً.. وقد أمر الحراس باقتياد بقرتها.. صارخا: البقرة بقرتنا هي اذهبي!. لتهبط وحيدة تؤانسها دموعها.

في الوقت الذي كان يعيش قارون حكايات المحابيس وقد فتحت له نوافذ جديدة.. غيرت من مداركه.. فلم يعد كما كان قبل دخوله باب الحبس.. ليعرف بأن كل حبيس حكاية دامية من البؤس والشقاء.. متخيلا أن كل فرد من سكان الوادي حكاية تمشي على قدمين.

وما أثار دهشته أن يعرف بأن والده قاتل.. عرف حكايته من خلف باب الحبس الداخلي.. حين كان صوت "شنهاص" يتسرب ليلة بعد أخرى.. ويعرف بأن نكبة شنهاص كان وراءها والده. كان قارون يشعر بالخجل وهو يستمع حكاياته.. وأن معرفته بتلك الحكايات قد حملته دَيناً له. حكايات حزينة تلك التي أعادت ترتيب عقله وقلبه.. أنارت له الكثير.

ودوما تزوره وصايا أمه: "يا ولدي لا تجالس من هو أكبر منك.. ولا تسمع إليهم. يا ولدي لا تأمن لأحد.. يا ولدي أبتعد عن الناس تسلم... ". يحدث نفسه: لو أني اتبعت وصاياها لمَا عرفت ما عرفت من حكايات حزينة. ولا عرفت بأني ابن قاتل. ودوما يتساءل لماذا كانت تحكي لي حكايات ناقصة "أبوك ياولدي ذهب وسيعود إلينا بعد أيام". ودوما كانت تمضي الأيام والشهور والسنون وهي تكرر نفس الحكاية الناقصة. "أبوك مظلوم وسينصفه الله.... !" في الحبس يربط ما يسمعه من حكايات بصدى وصايا وحكايات أمه. ليكتشفها امرأة غريبة.. وأن والده هو الآخر ليس كما كان يتصوره كمثل الآباء.. لذلك حرص على سماع مزيد من حكايات المحابيس.

في الحبس بدأ يرى نفَسَ كائن جديد.. يرى ذلك الصبي إلى جوار أمه ولا يراه نفسه.. يحاول التعرف على نفسه الأني.. على الوادي الذي يعيش فيه.. أمه ووالده الذي لا يعرفه. حكايات منحته حياة متخيلة.

لم يعد الحبس تلك الجدران الضيقة.. فأفواه من سكنوه يحلقون بعيدا وكأن تلك الجدران أثير.. يحكي للمحابيس عن الرعية ليل نهار.. حتى من يُقبض عليهم من العصاة.. يحكون في محاولة للتحايل على الموت الذي يقترب منهم.. يحكون طوال الوقت.. حتى أثناء اقتيادهم إلى الساحة.. لحظات إحكام وثاقهم على أعمدة الساحة يحكون لعيون مصلين يوم الجمعة... وأمام صوت زيد الفاطمي وهو يتلو "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفون من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم". لحظات التعذيب وحتى مواجهة الموت تظل أصواتهم تحكي.

عقب ذلك يعلم مَن خلف جدران الحبس أن أرواحهم تحررت من جهنم الحياة.. إلى جنان الفضاء الرحب.

.....

في صباح يوم مشمس نودي على قارون.. ظن من في الحبس أن فرج الله قد حل به.. وأنهم سيتركونه يعود لأمه.. لكن رجال جبار اقتادوه باتجاه بوابة الحصن.. حتى الساحة الداخلية.. وقفوا به تحيطه عدة سياط.. يتأمل اصطفاف دور الحصن المحيطة بالساحة.. تردد جدرانها السامقة ضجيج متداخل.. التفت الجميع حين خرج جبار من باب أحد الدور.. رآه قصيرا.. يلوح بسوط أسود.. مشيراً عليهم إحكام وثاقه.. بينما دار حوله نصف دورة.. ثم وقف أمامه مركزاً عينيه الضيقتين يتأمل ملامحه.. أفزعه هدوءه.. أشار بطرف سبابته على ملتقى حاجبيه.. وصرخ بفم لافت اتساعه:

- ها قد نمت لك شعيرات وأصبحت رجلاً.

لم يدر قارون ما يعني بتلك الكلمات.. لكنه أستنتج بأنه يسخر منه.. تتالت تلك الحكايات التي سمعها عن بطشه وقسوته.. ففضل الصمت. صرخ جبار ثانية: ولك بشرة صفراء تحاكي بشرة الموتى.

نطقها راسما على ملامحه علامات التقزز.. وأردف: حان الوقت لتسدد دين والدك؟

تأكد له تلك اللحظة أنه ينوي شراً.. ثم واصل: ماذا تتمنى قبل أن نبدأ؟

- ..... !

- أراك صامتاً.

أخذ جبار يلوب مهتاجاً وكأن صمت قارون قد أثاره مهتاجاً. ثم أردف:

- كيف تريد أن تعود إلى أمك؟

أبتسم قارون لذلك السؤال:

- الأمر بيدك.

- هذا السوط يجب أن يثلم وجهك المثلث.

قالها وهو يلوح بسوطه.

- وماذا بعد؟

- وهذا فمك الصغير يجب أن يتسع.

- فمي؟

نعم فمك الذي يهذر بتوافه الكلام.

- أي كلام؟

- بما يتبجح به للمحابيس.. ويفاخر بأنك ابن قاتل أخي.

- في مثل ذلك لا أفاخر.

- وأن الشيخ سرق مزارعكم.

- هذا ما يقوله الناس.

- لكن فمك يهذر بذلك.

- هذري لا يغير من الأمر شيئاً.

- ما دمت ترى ذلك.. عليك أن تكون شجاعا وتتحمل مداعبتي!

- .....!

- يبدو أنك مخنث ولا تعي بمواقف الرجال.

شعر قارون بالإهانة.. ولم يدر كيف يرد عليها وهو مكتَّف اليدين.. غيظ دفعه لاستحلاب عصارة فمه.. أقترب من وجه جبار وقذف بما فيه زفرة واحدة.. لتنهال الصفعات على وجهه حتى أدمي فمه.. أطبق رجاله برقبته وهوى به أرضاً.. تلك اللحظات زاد ضجيج نوافذ الدور.. ليرى قارون وجوه نساء كُثر. صرخ جبار على رجاله: هيا أروني بسالتكم في أبن الزانية. أزت السياط تتناوشه.. وهو يتلوى أرضاً محاولاً تفادي ألسنتها. زاد صخب نوافذ الدور ابتهاجا برقص السواطين. حريق يطال أطرافه وقد مزقت ألسنة السياط جلده.. سريعا ما غطت الدماء ذراعيه التي يحاول حماية وجهه.. تطايرت مزق ردائه المهترئ ليصل حريقها إلى جلده. أشار جبار للسواطين بالتوقف فظن قارون بأن الأمر أنتهى.. لكنه سمعه يأمرهم : والآن أين بلطاتكم. عليه أن يسدد دين أبيه!

في تلك اللحظات كان ضجيج الساحة يصل زهرة.. ذكَّرها بيوم أمها. في البدء قاومت رغبتها متشاغلة بما بين يديها من عمل.. لكن الصراخ زاد.. استجابت على مضض واعدة نفسها بنظرة خاطفة من إحدى النوافذ ليس إلا.. لكنها دُهشت لكثرة وجوه النوافذ.. وهياج جبار وحماس رجاله حول كائن يغطي الدم معظم بدنه.. همت بترك النافذة.. لكن زئير جبار أثارها وهو يشير عليهم بإحضار البلطات. أرتفع صوت حاد من إحدى النوافذ العالية "كفى.. كفى يا عبد الجبار". استدارت محاجر الجميع تبحث عن مصدره. لتميز العيون وجه "عيشة" زوجة الشيخ. امتط جبار غاضباً.. وقد فتح فمه الكبير متحدياً من يعترضه. خيل لزهرة وهي تتابع ما يدور أن ذلك البدن الممدد لأمها.. وهي تكرر استغاثتها: زهرة.. زهرة.

وقفت مذهولة تحاول استيعاب الأمر.. تسأل نفسها محدقة فيه: أيعقل أن تكون أمي حية؟! لم تتمالك حين هرولت هابطة سلم الدار.. تردد: أماه.. أماه. حتى خرجت إلى الساحة تشق طريقها باتجاه ذلك الكائن.. وما هي إلا خطوات حتى وقف لها جبار بالمرصاد.. ركعت متوسلة "أرجوك أتركها.. أرجوك...". لطمها لتخر أرضاً.. نهضت صارخة تحاول الوصول.. سحبها من شعر رأسها وهو يصرخ غضباً: ابتعدي وإلا نلت ما يناله!. لم تنقض هنيهات حتى رأت "عيشة" قادمة تتبعها خادماتها.. وقد وقفت أمامه غاضبة: ألست في مقام أمك ياجبار.. الا تسمعني؟ يكفي هذا الصبي ما نال من عقاب.. أتركه!.

ودون أن تنتظر رده.. أشارت على السواطين: هيا توقفوا.. كفى.. أعيدوه إلى محبسه! تلا ذلك صخب النوافذ.. لم يستوعب جبار ما يدور.. أستدار هائجاً وترك الساحة.

مع حلول مساء ذلك اليوم.. تهامس من في الدور أن الشيخ طلق عيشة.. ليخيم على الحصن إحساس مبهم.

.....

أمست زهرة تهذي:

- لقد رأيت أمي وسمعتها.. هو صوتها الذي يلاحقني في منامي.. لم تمت.. لقد رأيتها.

لترد عليها شادن دامعة العين:

- ياصغيرتي خففي عن نفسك .. لقد تجاوزت الثالثة عشرة ولا زالت روحك تسافر إلى ما يشقيها.

- لكنها حية.

- من رأيته ليس بأمك.. بل صبي يعرف الجميع حكايته.

- ومن أين له بذلك الصوت ؟

- أوهامك جعلتك تريه أمك!

- ترى من يكون؟

- لا عليك فيمن يكون...

منذ ذلك اليوم انشغلت زهرة بذلك الشاب.. أن ترى حمامة فيه.. تتحايل على شادن أن تخبرها حكايته. لكن ما أثار تعجب شادن أن تفكر صبية في شاب رأته لأول مرة. لتطرأ مواضيع جديدة منذ ذلك اليوم على منادمتهن.

طلاق عيشة أعاد لشبرقة بصيص أمل بعودة مرداس إليها.. لم تظهر على من حولها ما يجول بخاطرها.. لكنها انشغلت بترتب الكلام الذي ستقوله له.. وقد أضمرت أن تظهر بعض التمنع عند قدموه.. لتوحي بأنها ليست متلهفة.. لكنها بعد وقت أحست بأن عليها أن تغفر له.. وأن تفتح قلبها من جديد. ليلة بعد أخرى تستعد لقدومه.. تهتم بجسمها.. لتعكف خادماتها على نزع ما أهملته من شعر.. ودهن يطري المهجورة.. ينقشن الحنا ويخضبن أطرافها مستغربات تحولها.. تستعرض ما كانت قد أهملته من ملابس السنوات الخوالي. أمست تعد الأيام والليالي. فجأة يتسرب إليها خبر من عروسٍ جديدة من قرية هجرة الفواطم. تمنت ان يكون ما وصلها شائعات.. لكن الأيام تفصح عن أعيرة نارية. لحظتها غامت عيناها وسقطت مغشياً عليها من هول المفاجأة. بعد أن رأت موكب العروس يشق الوادي باتجاه الحصن.. ولأيام ظلت حبيسة حجرتها.. تشعر بالخجل ممن حولها.. ليتحول كره قلبها إلى حقد نحو من عاشرته سنوات طويلة.. بعد أن أمعن في إهانتها وإذلالها بالهجران وتوجيه الطعنات المتتالية. لتشعر بأن الحصن أمسى لا يعنيها في شيء. وقررت اعتزال الجميع باحثة عن سكينة لروحها.

زارها جبار فظنت بأنه قدم ليساندها في محنتها.. لكنه كعادته يأتيها قبل أن يشرع في أي خطوة يطلب منها الدعاء.. مستعرضاً ما حققه في زيادة مساحة المزارع.. وفي ملاحقة العصاة. ولم يعلم أنها كانت تنتظره أن يتحدث عن إهانات أبيه لها.. فكرت لحظتها أن تغادر الحصن عائدة إلى بلادها.. لكنها فكرت ببنتيها وتذكرت أن مرداساً لم يعيرهن منذ ولادتهن أدنى اهتمام. رافضاً من تقدموا للزواج منهن. حتى تجاوزت أكبرهن الثلاثين من عمرها. تحاملت على نفسها وقررت كتم ما فكرت به.

لتسافر بها ذاكرتها إلى ليالٍ بعيدة.. حين كان مرداس يسعد بالسكن بين أحضانها.. يبوح لها بهمومه وبما يحلم به.. ودوما يأخذ ما تشير عليه به. وحين يسافر إلى خارج الوادي يعود محملاً بالشوق والهدايا الثمينة. لم تكن تتخيل أن يتغير ويمعن في هجرانها.. فلا تعرف لأكثر من خمس عشرة سنة هل هي مطلقة أم لا زالت على ذمته.. ومع زواجه بالأخيرة سكن الكره له.. ونست صوته.. حتى رائحته.. وبهتت ملامحه من ذاكرتها.

تمضي في عزلتها وقد فقدت اهتمامها بما يدور حولها.. وذبلت أحاسيسها.. لتقرر في لحظة تأمل محو ما تبقى منه في صفحة ذاكرتها.. أن تستعيد توازن حياتها بمعزل عنه.. وتكتفي بمكانتها كأم للشيخ جبار.. ذلك ما تحسبه تبقى لها.. وإن كان مثل أبيه فاقد الإحساس.. لكنه يظل ولدها.. وشرعت بسلخ مشاعرها كزوجة لمرداس. ولذلك صرفت أوقاتها للصلوات وتأمل ملكوت الله. تنهض في جوف الليل تناجي القدير دامعة متضرعة أن يصون لها كرامتها. وأن يحفظ ابنها جبار.. ويشمله برعايته. تحرص على إخفاء انكسارها أمام بناتها وابنها.. فلا تظهر إلا قوية ومتماسكة.. تتصنع سعادة زائفة.

ليفاجئها ذات ليلة بزيارتها.. وقفت وسط حجرتها تحاول أن تبدو متماسكة.. لم تتحرك بينما وقف ينتظر أن تنحنيِ لتقبيل ركبتيه كما هي العادة. لمحت بطرف عينيها وقد بدا أقصر مما كان.. مشوش الملامح.. وعينيه ضيقتين.. وذلك الشعر الذي غلبه البياض يزيده دمامة. أنتظر أن تصرف بناتها وخادماتها كما كانت تصنع حين يحضر. لكنها خطت نحو نافذتها لتطل على فضاء الليل.. تأمل طولها الفارع ليلحظ ضمور قدها وامتلاء ردفيها.. وشموخ أنفها.. تمتم آه من تصابيها!. أستمر الصمت يمرغه دون أن تلتفت. بادر آمراً بنتيه والخادمات بالخروج.. التفتت مشيرة إليهن بالبقاء. أحس لحظتها بأنها ذاهبة بعيداً.. مدركاً بأن عليه تقديم بعض التنازلات لإرضائها. بدأ بالسؤال عن الأحوال.. فلم تلتفت أو ترد عليه.. أنتقل لمداعبة بنتيه ببعض الكلمات الأبوية.. ثم تجرأ واقترب منها ليمسك بكفها.. هامساً: أعرف بأنك عاتبة على زواجي.

ثم صمت ينتظر ردها.. وحين طال انتظاره واصل متجاوزا سنوات قطيعته له: لا ضير من أن أحدثك بما جئت من أجله.. تعلمين أن زواجي من بنت زيد ألفاطمي.. إنما هو زواج منفعة.. وهدفي كسب ولاء الفواطم لمساندة ابنك بعد أن تكاثر العصاة.. وتزايدت هجماتهم.

صمت ينتظر أثر كلامه عليها.. لكنها أمعنت في تجاهله.. ثم أردف: الفواطم أكثر الخلق معرفة بشرع الله.. فهُم آل بيت رسوله الكريم.. وبمقدورهم تطويع الرعية لمشيئتنا.. أو دفعهم للعصيان.. فبحفظهم لكتاب الله وأحاديث الصادق الأمين يسيسون الناس.. فلديهم بلاغة الحديث. صمت مرة أخرى ظاناً بأنه قد أبلى في تليينها.. لكنها أستمرت وكأن حديثه لا يعنيها.. ثم أنتقى لها كلمات ودودة.. ليعود صوته بنبرة هادئة يحدثها عن الأيام الخوالي.. وعن نيته أن يعوضها في القادم من الأيام. لكن صمتها أستمر.. أحس بأنه يهذر دون صدى.. توقف حادساً بأن كلماته لم يعد لها وقع لديها.. شعر بهزيمته أمام تجاهلها.. التفت حوله.. لتخونه دمعة انزلقت على خدة.. لتختفي تحت جذور شعر دقنه الكث.. أطرق يحرث بناظريه قاع الحجرة.. يمسح جبينه كمن يزيل هماً ثقيلاً جثم عليه.. ثم عاود الاقتراب منها ناظراً إليها كطفل لا يلوي على شيء. لكنها نفرت.. ليخطو مبتعدا عنها نحو باب الحجرة.. ولم يلتفت إلى نحيب بناته.. مردداً: أنكِر إن تكون هذه هي شبرقة التي عرفتها. هبط مهدداً ومتوعداً.. تائها في أي الطرق يسلك.

.....

مع نهاية السنة الأولى لزواج "فاطم". سقط جنينها.. وبعد أشهر سقط للمرة الثانية.. لتتهاطل التقولات بين النساء.. منهن من تقول: إن فاطم لا تريد أن يكون لها خلف من مرداس.. لأن والدها غصبها على الزواج منه وهو في سن جدها.. وأنها من تتخلص من حملها. وأخرى تجزم بأن عملاً قد عُمل لها. لكن شادن كان لها رأي آخر باحت به لزهرة في مسامرتهن.. أن مرضاً خفياً قد حل بها!.

تُفاجئ فاطم من في الحصن بإغلاق أبوابها إثر إسقاطها الثالث.. بعد أن أخبرها والدها زيد الفاطمي: لقد فتحت الكتاب ووجدته يشير إلى ضرورة أتقاء أعمال النفوس الشريرة وعدم مخالطتهن.

ورغم أن شبرقة لم تلتقيِ بها قط.. إلا أنها أشاعت بأنها وراء ما يحصل لها. أما "عيشة" جليستها فقد برأتها من أيِ فعل شرير.. وإن أقفلت دونها أبوابها مساواةً بغيرها.. وبذلك الغت فاطم ما كانت تنظمه منذ وصولها من موالد وجلسات مديح.. التي كانت تدعوا إليها جميع نساء الحصن.. ولم تكتفِ بل دعت بعض نساء قرية المنحدر. ومع الأيام يتردد عليها بعض النساء طلباً للشفاء من علل تسكنهن.. أو طلب الخلفة وجلب الحبيب. لتتلُ عليهن ما تيسر.. وكثيرا ما تحققت على يديها امانيهن.. وما زاد يقينهن ببركاتها حفظها للقرآن.. وحفظ أوراد وإنشادها بصوت ساحر. لكنها لم توجه الدعوة يوماً لشبرقة.. وبدورها منعت بناتها وخادماتها من الذهاب إلى دار فاطم.

.....

تلقف المحابيس قارون فاقداً للوعي.. مُوقنين موته قبل شمس يوم غد.. ولذلك أمسوا يرتلون فوق رأسه "ياسين والقرآن الحكيم" بصوت باكٍ.. مساعدةً لروحه على الرحيل دون الم. لكن شفتيه تفاجئهم وقد تحركت لتشاركهم طوال الليل دون صوت.. ومع انبلاج الفجر كان همسه يساير ترتيلهم.. ولم تنقضِ ساعات النهار حتى كان صوته يشاركهم بوضوح. أعتبر المحابيس ما يدور معجزة حين أستطاع فتح عينيه رغم تورم وجهه وتداخل ملامحه.. ليسألهم: أين أنا؟. من أنتم؟. من يشعل النار في بدني...؟. رويدا رويدا أستعاد وعيه متذكراً جبار وسياط من حوله.. صراخ النوافذ... وخلال أيام أخذت جراحه تلتئم. وإن ظلت روحه مثخنة بجراحها. وقد أنزوى بنفسه في أحد الأركان يخشى من حوله.. فلا يكلم أحداً أو يستمع إليهم .. يتوقع في كل لحظة عودتهم لاقتياده. لكنها الأيام تتعاقب حتى حلت أشهر الصيف دون أن يعودوا لاقتياده. ثم أشهر الخريف بأمطاره الغزيرة تاركاً زاويته ليشارك من حولهم حكاياتهم. وفي ليلة ماطرة هرب الجميع دون أن يشعر بهم أحد. هرع بعض حراس الحصن لسماعهم اصوات استغاثة من وسط غمرة أمطار غزيرة.. ليقف الجميع أمام فجوة استحدثت في جدار الحبس.. تبُدلت نظرات الخوف.. بينما صعد أحد الحراس ليخبر جبار بما حدث.

هرول جبار كالمجنون وسط عتمة عاصفةً كالمجنون.. يتبعه رجاله ببنادقهم.. طافوا حول الحصن.. فقط دوي الرعد وذلك الوميض المتلاحق يرافقهم.. هبطوا قرية المنحدر.. ليتوزعوا باتجاه عدة قرى.. يصرخ جبار بهستيريا: هيا أعبروا السيول.. لاحقوهم لا تدعوهم يفروا.. أريدهم أحياء.. هيا أسرعوا طاردوهم في القرى وجروف الجبال.

تنقلوا بين عواصف متواصلة بين القرى القريبة.. دون أثر.. حاولوا خوض مجرى السيل فتراجعوا من تعازمه.. وما أن خفت الأمطار وقل منسوب السيل حتى عبروه بصعوبة ليخوضوا أوحال المزارع بحثاً عن أثر لهم.. متنقلين من قرية إلى أخرى يهددوا أقارب الفارين بسحب الأراضي منهم واقتيادهم.. كما هدموا في طريقهم أكواخاً لأخدام. ولأيام يجولون وسط الأمطار دون أن يستدلوا على فار. فجأة انتشر خبر عن وجود جثث في المزارع وحواف المجرى.. هرع رجال جبار ليروا جثثاً متفرقة. وبعد توقف الأمطار تزايد رؤية تلك الجثث وقد انتفخ بعضها وتفسخت أخرى.. وأخذت الكلاب والطيور تنهشها. توالت تلك الأخبار عن رؤية أعدادٍ منها جرفها السيل أسفل الوادي.. وأن جثثاً لا يعرف عددها قد جُرفت إلى وديان بعيدة. عم الحزن أرجاء القرى بين الرعية.. وتعالى نحيب متواصل في الأنحاء.

.....

- سأحدثكِ اليوم حول حياتي.. أليس ذلك ما وتودين؟.

بتلك الكلمات بادرت شادن مسامرتها لزهرة. وقد استوت صامتة وهي التي جُبلت على الهذر. لتواصل شادن: سأحدثك أولاً عن والدي.. وهو بين من كانوا في حبس الحصن.. فأنا أبنة الشيخ شنهاص وأظنك سمعتي بفراره. بعد أن ظل منذ أكثر من خمس عشرة سنة.. يحلم بالفرار.

تهدج صوت شادن.. وتقاطر الدمع من عينها.. لتشاركها عينا زهرة.. وقد شعرت أن كلمات شادن أجنة تهوي: وأمي التي كانت تعيش وقد تعودت أن تكون في دارها مخدومة.. هنا أمست خادمة رغم سنها.. وترين أننا لم نلتقِ.. رغم أننا في حصن واحد.. وقد مُنع عنا اللقاء أو الجلوس إلى بعض.. مهددين إن خالفنا بالموت. خمسة عشرة سنة لا أراها إلى من بعيد.. وكثيرا ما حلمت في منامي أني ألامسها.. تعيش صمتاً مميتاً. ولا أملك لها نفعاً. ألا ترين كم هو الغبن الذي يثقل قلوبنا...

لم تكمل وأجهشت باكيةً.. لتعاود زهرة باحتضانها.. مواسية وقد أدركت مقدار الظلم الذي وطأ قلبها.. لترد عليها:

- ودوماً أتساءل من تكونين؟. رغم همس بعضهن.. إلا أنك كنت كائناً غامضاً.. عشت في رعايتك سنوات.. شدني إليك حزمك وحنيتك.. كرمك وحلمك.. اخلاصك وصدقك.. كنت عكس كل من في الحصن.. وذلك ما جعلني أجزم بأن خلف سجاياك حكايات.. لكني لم أتخيل صدقاً ابنة ذلك الحبيس.. وأن تتحملين كل تلك المعاناة. وكثيراً ما أدهشتني سجاياك.. فمن أول يوم أحطتني بعطفك وسبغتِ عليّ حبك دون معرفة سابقة.. ولم أكن أجد لذلك جواباً.. رغم قولك بأن شبرقة وراء ذلك. إلا أن قلبك كان يشي بحب لا سلطان عليه .. كنتُ محتارةً

وأنت تتصرفين كملاك حارس.. تحرصين علي أكثر من نفسي.. حتى أنك علمتني القراءة والكتابة.. وجعلتني أحفظ من القرآن.. ودوما تحدثيني بعقل الحكمة حتى ملأتِ قلبي محبة.. واليوم تكشفي عن عذاباتك.. أن تعيشي كل هذه السنين تحلمين بالفرار.. الله كم تحملتِ من غبن كنت أحسب أن لا أحد تجاوز غبني.

صمتت زهرة تشارك شادن نحيبها وقد تشبثت كل منهن بالأخرى. ولليالٍ من الحكايات المحزنة.. والدموع السخية.. توقعت زهرة بعدها أن تتغير شادن.. إلا أنها زادتها حباً. وظلت هي تلك الخادمة المتفانية.. المحافظة على صمتها.. حتى إذا ما انزوين تفتح قارورة حكاياتها.. مواصلة: بلادي تستطيعين رؤية جبالها من أسطح الحصن.. لو نظرتي غربا سترينها.. فهي ليست بعيدة.. سترين قراها على القمم المنيعة. هناك ولدت وتزوجت رجلاً ظننت أن سعادتي لن يعترضها عارض. حتى ذلك اليوم حين فاجأنا مرداس برعيته كنت يومها في زيارة لدار والدي.. لم تكن بعيدة عن بيت زوجي وأطفالي.. ولم أستطع العودة إليهم.. فقد كان هول تلك اللحظات عصيب. لم نكن نتوقع الحرب أبداً.. ولذلك سريعاً ما سيطر رعيته على قرانا حتى وصلوا شوارع دار"الجفنة" ليحاصرونا ببنادق "المُيمَن" الجديدة على الوادي.. برصاصها ذا الدوي المفزع.. مطالبين إخلاء دارنا من سكانه.. في البداية رفض والدي وبادلهم حراسنا الرصاص.. ومع صباح اليوم الثاني هددوا بنسف الدار بمن فيه.. ففضل والدي التسليم بعد أن تعهدوا و"طبعوا وجييهم" بأن لا يمس أحدنا بسوء.. صدقنا بأنهم سيتركوننا ويكتفوا بنهب الدار.. وما أن خرج أخرنا حتى عملوا على نسف الدار.. وربطوا أيدينا إلى خشبة ثبتت فوق اكتافنا.. ثم جعلوا نفراً منهم يسوقونا لساعات طويلة تحت حر الشمس باتجاه الحصن.. وكلما حاذينا قرية تركوا سفهاؤها للنيل منا.. وما أن اقتربنا من الحصن حتى عادوا "للزوملة".. لم نكن نتصور أن نهان ونمتهن بتلك الطريقة.. وما كان أفظع من ذلك حين بتروا أكف الرجال منا.. وشوهوا عيوننا كما ترين. ثم يأتي خبر مقتل زوجي وأطفالي بعد أن طوقوا البيت بعشرات البنادق.. مطالبين تسليم نفسه ومن معه.. لكنه رفض.. وأثناء ذلك قَتل عدداً منهم قبل أن يقتلوه ويقتلوا أطفالي الثلاثة.. ولم يكتفوا بل نهبوا أثاث البيت حتى النوافذ والأبواب حملوها معهم. صمتت شادن تتأمل وجه زهرة الذي كان جامداً.. وقد تدلت شفتيها كمن يوشك على البكاء. ثم أردفت: والأن هل تعرفتِ إليّ؟.

تئن شادن بحكاياتها الحزينة.. بينما أطراف زهرة ترتجف لخوف ينخرها.. تلجأ لدموعها صامتة.. يخلدن إلى النوم متدثرات بغبن ثقيل. زادت محبة زهرة لشادن بل وزاد إحساسها بها.. وحكاية بعد أخرى تكتشف صلابة ورهافة شادن.. لتشعر بأنها لم تعد تلك الصغيرة.. وقد أحست عليها أن تبادلها العاطفة والرعاية.. لم تكن شادن تظهر حزنها أمام الآخرين.. وبعد أن ظلت طوال السنوات الماضية تستمع لأنين زهرة.. أمست بحاجة إلى من يستمع حكاياتها.. تلك الحكايات التي كانت تكشف لها الام لم تكن تدركها.. وأحداث لم يكن لها أثر يوم وقوعها.. لتضج جراحاً وآلام دفينة. تحفزها على التفكير بالانعتاق.

غيرت تلك الحكايات في زهرة الكثير.. كما غير فيها منظر ذلك الفتى الذي رأته يجلد.. وأمسى سؤال يؤرقها: لماذا جُلد؟. ولماذا أرادوا بتر أطرافه؟. ولماذا "عيشة" هي من غامرت لإنقاذه. تنصت لحكايات شادن ولا تعرف أن ذلك الفتى يشغلها.. تظن حضوره سلوى.. وقد غيرت أحاسيسها ولا تعرف لماذا تخجل شرحها.. مفضلة الاحتفاظ بها.

.....

دعا مرداس مستشاره زيد وابنه جبار لتدارس حالة المزارع.. ومعالجة الأوضاع قبل تدهورها.. كان زيد يشك في غرق من فروا.. لكن فضل عدم البوح بشكوكه حتى ينجلي الأمر.. طارحاً عدة مقترحات.. أستحسن الشيخ إحداها.. وفحواه أن يقسم الرعية أيام الأسبوع بين العمل في مزارع البن والقات.. والعمل فيما بين أيدهم من أرض. إلا أن زيداً أشار بالتريث في تنفيذ ذلك حتى انقضاء فصل أمطار الخريف.. وهو بذلك يهدف إلى التأكد من صحة شكوكه. وبالفعل صدقت شكوكه فلم تمض أسابيع حتى أنتشر خبر بين الرعية أن من فروا من حبس الحصن قد لجأوا إلى الغابة.. وأن تلك الجثث التي وجدت لم تكن إلا لقلة منهم. وفي لقاء تالي صادق المستشار للشيخ بشكوكه التي كانت تساوره.. معللا بأن الرعية قد هولوا في عدد الجثث بينما كانت قليلة نسبة لعدد الفارين الذي يتجاوزا الثلاث مئة فار. ظل الشيخ صامتاً.. وقد حيرته مسألة هدوء الغابة.. حين قال: لو كان من فروا قد أنظموا إلى الغابة كما تظن.. فلماذا توقفت هجماتهم؟. فهذا الشهر ينقضي ولا من خروج حتى لأحدهم!. اليس من المنطقي أن تتزايد الهجمات عمَّ كانت عليه وقد زادت أعدادهم؟!.

أعترف زيد بأن الأمر محيراً وأن عليهم مزيد من التأني ومتابعة ما ستفصح عنه الأيام.. لتنقضي أيام الشهر الثاني .. وبدأ فصل الشتاء دون جديد.. لتزداد حالة المزارع سوء.

.....

لم يكن للمحابيس يد في هروبهم كما كان يظن جبار.. وكانت الحكاية أن المحابيس قد استفاقوا على سماع طرقات متواصلة خارج الحبس.. في البدء ظنوا أن حراسهم يقومون ببعض أعمالهم.. إلا أن مواصلة سماع تلك الطرقات أثار بينهم عدة تساؤلات.. وإن رجح البعض أن يكون ما يسمعوه دوي لرعود السماء.. ظل الترقب والنقاش ينير ظلمة تلك السراديب. للحظات الصق بعض أسماعهم على الجدران وآخرين أكفهم في محاولة لمعرفة ما يدور.. أرتفع الهمس بعده مؤكدين أن تلك الطرقات على جدران الحبس ليست من السماء.. تحفز الجميع وقد ازدادت وضوحاً.. ومع ازدياد وتيرة الطرقات حُبست الأنفاس خوفاً.. وأخذ نفر منهم يتلون ما يحفظون من القرآن.. ليفاجئنا باهتزاز بعض أحجار الجدار هزات خفيفة.. حينها تأكد للجميع أنهم أمام حدث كبير.. ورويدا رويدا تخلخلت إحدى الأحجار لتظهر لوامع البروق من شقوقٍ دقيقة.. ما لبثت أن أتسعت مع توالي الطرقات

لترتجف القلوب وقد سقطت إحدى الأحجار.. ناحت الحناجر بالبكاء والدعاء وقد تسرب صوت من الخارج: ساعدونا بتوسيع الفجوة لنساعدكم على الخروج!. هلل الجميع بصوت واحد غير مستوعبين ما يدور.. لتتسابق أظافرهم لخلخلة أحجار حول الفجوة.. تزايد وميض البروق.. وشهق البعض لبرودة زخات المطر. وتواصل ضجيج الرعود.. لفحت وجوههم روائح ندية وأصوات متداخلة.. اختلطت رياح باردة بأصوات متعددة.. دخل شبح من الخارج معرفاً بنفسه وقد تزاحم المحابيس حوله: أنا "عرَّام" وقد جئت ورفاق لي لإنقاذكم.. فهل تنظمون لنخرجكم قبل أن ينتبه إلينا أحد.. لن نترك أحداً حتى أخوتنا الأخدام يجب أن يرحلوا معنا.

بُهر قارون بشبح "عرَّام" وقد وقف دون خوف أو تردد يقود الجميع للهروب. خرجوا ببطء.. كان قارون وسط طابور طويل يمسك بذراع من قبله.. ليمسك به من بعده.. يهبط بهم نفر وسط عواصف شديدة.. لم يكن من يميز موطئ قدميه.. فقط وميض البروق تنعكس على وجوههم وملابسهم الغارقة.. ثم يعود ليبتلعهم ظلام وهدير يصم الآذان.. هبطوا حتى جاوروا الطولقة الكبيرة. وتجمعوا جوارها لالتقاط الأنفاس... ظل عرام ورفاقه يتدارسون عبور السيل وقد تعاظم في مجراه.. بينما البعض ينتحب.. وآخر يهذي من شدة البرد.. وآخرين تمددوا أرضاً عاجزين مواصلة المسير. تبرع من يحملوهم مواصلين السير بمحاذاة المجرى الهادر.. حتى وصلوا منطقة أيقن عرام بأنها أفضل من غيرها للعبور.. مشكلين سلسلة بشرية متلاحمة السواعد.. وبدأ الأشداء منهم مصارعة الانجراف حتى نجحو في الوصول إلى الحافة الأخرى.. تابعت السلسة خوض المياه.. وقبل النهاية تراخت قبضة بعضهم وتساقطوا ليجرفهم السيل.. قيل إن السبب أذرع دون كفوف.. وقيل أن البعض انهكه التعب. ولا يُعرف عدد من ذهب بهم السيل ولا من يكونون.. نجا قلة منهم بعد أن علقوا بجذوع أشجار قريبة.. ومصدات صخرية.. ومضى السيل بمن ابتلعهم بعيدا.. واصل الناجون سيرهم متخللين مزارع موحلة ومساحات معشبة حتى وصلوا أطراف الغابة.. كان الجميع منهك.. لكن عرام واصل التخفي بهم بين جذوع الأشجار ليتوغلوا في الغابة خوف لحاق رجال جبار بهم.. مضى وقت يصارعون إعيائهم ويأسهم حتى وصلوا أعماق الغابة.. لتهاجمهم بعض الضواري.. قاتلوها ببسالة.. مخلفين عدد ممن نجحت الضواري في افتراسهم.. وواصل الجموع سيرهم حتى وصلوا جوار الشلال الكبير. توزعتهم كهوف متفرقة.. غير مصدقين بنجاتهم.. ولأيام يرتشفون جوع مميت.. أستمرت الأمطار وقد تخللت بعضهم حمى قاتلة ومات منهم عدد آخر بالجوع والتعب.. انقشعت بعدها السحب وتسللت خيوط الشمس لتضج شقشقة العصافير وأصوات لكائنات لا ترى.. كان عدد من نجوا كبيرا رغم عدد من فُقدوا.. ومن بينهم ابن الشيخ شنهاص وبنو عمومته بعد أن خذلتهم أطرافهم أثناء عبور المجرى.

لم تكن فكرة انقاذ المحابيس إلا من بنات أفكار "ناصية". تلك المرأة التي تمتلك بصيرة وصبر اكتسبته من والدتها التي كانت لها فراس في منازل النجوم وطوالعها.. لذلك كان يعود إليها الرعية لمعرفة معالم الزراعة.. ومواسم الأمطار.

يوم فكرت باللجوء وابنها إلى الغابة.. ظن البعض بمس محق عقلها.. وحين لحق من لحاق من رعية هرباً من بطش الحصن أدركوا عمق حكمتها.. إلا أنها أدركت أن الغلبة في النهاية للحصن في ظل العدد المحدود من الرجال.. ولذلك ظلت تفكر بالمزيد من الرجال.. لكن ما كان ينضم إليهم لم يكن بالكم الذي يمكنه تغيير الموازين. ولذلك ظلت مهمومة بالبحث عمَّ يرفدهم.. وكان أن فكرت بمحابيس الحصن.. وظلت تبحث عن وسيلة لإخراجهم.. ومع بداية موسم أمطار الخريف أخذت تفكر باستغلالها.. ولذلك همست في أذن ابنها ذات مساء:

- سأكلفك بعمل مهم وأرجو أن يمنحك الله حمايته!

- أنا مستعد.. لكن ما طبيعة العمل؟

- أولا فكر بانتقاء مجموعة من الرجال الأشداء.

- وما علينا فعله؟

- إخراج محابيس الحصن.

- المحابيس.. كيف؟

- أن تغتنموا قدوم أيام نجم سهيل.

- سهيل؟

- تعملوا في جدار الحبس ثغرة.. تخرجوا منها المحابيس وتأتوا بهما إلينا!

- والحراس.. والرعية؟

- ما أشير عليه صعب.. لكن إن ظللنا دون رافد من الرجال لن نفلح في قهر الحصن.

- لكن هل الحراس بتلك البلادة حتى نهُد جدار دون قتال.

- في ليالِ "ذو مذران" تهطل أمطار متواصلة. وتزداد ليلة (النثرة).

- ليلة النثرة!

- تلك الليلة لا تأتي إلا مرة في السنة.. فلا يخرج الناس من منازلهم لوابل الأمطار.. ليلتها تتعالى هزيم الرعود.

- ومتى هذه الليلة لنستعد؟.

.....

لم تتعود فاطم الوحدة.. وهي التي عاشت سنوات صباها في زخم متواصل حتى بعد وصولها الحصن جعلت من نفسها محور الجميع.

كانت سنين طفولتها وسط زوجات والدها الثلاث.. واخوتها الاحدى عشر ذكراً. وهي البنت الوحيدة.. شبت والكل يدللها.. حتى زُفت إلى مرداس الذي يكبرها بثلاثين سنة.. لم تكتفِ بما حولها من خدم.. بل سارعت إلى جمع نساء الحصن والمنحدر في مناسبات متتالية.. ليضج دارها بتلاوة القرآن والأناشيد النبوية.. لكن إجهاضها المتكرر جعلها أمام من يزرنها طلبا للشفاء والخلفة تبدو مخزية.. وما زاد من انزوائها شائعات أصابتها بسحر.. لتعتزل الجميع علها تحظى بما يفرح قلبها.. لتعيش حزن متواصل. ليتكرر اجهاضها. أيقنت بعده وجود أرواح شريرة تسكن الحصن.. وتتحكم بمصائر أجنتها.. يراقب والدها تدهورها من زيارة إلى أخرى.. شارك أمها وأخوتها خوفه من أن تصاب بالجنون.. جمع مجموعة ممن يجيدون ترتيل القرآن من أمناء القرى.. وأحضرهم .. بعد أن أمر بإشعال المواقد ورش بخور الجاوي في زوايا وقاعات دار فاطم.. وكان يوماً مشهوداً.. حين توزع أكثر من خمسين مرتلاً.. على أدوار الدار مرتلين بصوت جماعي رخيم.. وشوهدت خيوط البخور تتصاعد من نوافذ أدوار الدار.. ليتحدث من شاهدها بأنه رأى أشباح شياطين تتراقص خارجة من الحصن تحملها الرياح متفرقة في جهات الأرض الأربع.. وخلال أيام الترتيل التي امتدت إلى سبعة أيام بلياليها.. أمر الشيخ بذبح أربعة عشر ثوراً.. وجعل توزيعها بنظر زوجته فاطم وعلى نيتها يكتب الأجر والثواب.

تلك كانت أيام مشهودة تحدث بها الوادي.. يلهج الجميع لفاطم بالدعاء. بعد أداء الفقهاء ماعليهم أنصرف كل إلى حال سبيله.. ودعاها والدها أن تستبشر خيراً: أدينا ما علينا والباقي على الله .. وإياك أن تدعي أحداً ينجس دارك بعد تطهيره.. فلا تفتحي أبوابك لهن قط.. وأكثري من الصلوات والتقرب إلى الله بالصدقات.

مرت الليالي وفاطم تتوسد رأس مرداس وقد أضحت مضاجعته كرهاً.. تتأمل هرمه.. وتلك المضغة التي تستحلبها وتستبشر خيراً كما أوصاها والدها. تناجي الكريم أن يمن عليها بكرمه.. أن يهبها ولداً.

.....

بعد عودة عرام بجموع المحابيس.. دعت "ناصية" الجميع للتشاور في أول لقاء. بدأت حديثها بالترحيب.. حامدة الله على سلامتهم.. طالبة من الجميع الصبر على شظف العيش. والتآخي

والتراحم بين الجميع. صمتت ليبادر الشيخ شنهاص ويقف شاكرا لها.. مثنيا على شجاعة عرَّام وبسالة رفاقه.. داعياً الجميع إلى تكوين أسرة واحدة.. نهجها التعاون وهدفها العمل في سبيل هزيمة الحصن.. وإنقاذ الوادي من بطشه وطغيانه. وقال وهو يلوِّح بكفه اليسرى : لقد جمعنا ظلم مرداس ومستشاره الفاطمي.. وعلينا أن نكون يداً واحدة لنزيل ظلمهم.. ذلك الظلم الذي عم الوادي قاطبة.

صمت قليلاً.. وقد التفتت ناصية إليه كان يبدو كشبح ناحل.. زادته تلك الأسمال بؤساً.. وشعره الأشيب مهابة وغموض.. وقد تدلت سوالفه ليبدو كدرويش على باب الله.. يحاول أن يغطي ملامحه بابتسامة عريضة.. وقد مال كتفه جهة كفه المبتورة.

صامتة ناصية تقلب ما طرحه.. ترمق وجوه من حولها . بينما يواصل شنهاص حديثه: ونحن اليوم نترحم على من قضوا نحبهم غرقا ومن افترستهم الوحوش ونهشتهم الحمى.. ومن عُذبوا وقُتلوا على يدي زبانية الحصن. ونتضرع إلى الله العلي القدير أن يمن عليهم برحمته ومغفرته.. كما ندعوه أن يمنحنا الصبر والثبات.. وينصرنا على طغيانهم.. فهو نعم المولى ونعم النصير.. وهو ألعالم بما نعانيه ونكابده من ظلم وتجبر.. وما لجوأنا إلى هذه الغابة الموحشة إلا فرارا من بطش أشد توحشاً.. بالتلاحم والتآخي سينصرنا الله عليهم.

صمت قليلا يتأمل أثر كلماته في وجوه من حوله.. ثم عاد صوته متهدجا: تعلمون بأني فقدت أولادي وجميع أبناء عمومتي.. وتعلمون بأن زوجتي وأبنتي لا زلن رهائن الحصن إلى هذه اللحظة.. وقد أمسيت في هذه الدنيا وحيداً.. وأنتم اليوم أسرتي.. لي مالكم وعلي ما عليكم. وأسمحوا أن أقترح أن يكون عرَّام شيخاً لنا.. والخالة ناصية مرجع الجميع لحكمتها وسلامة بصيرتها...

فجأة نهض عرَّام مقاطعاً بارتباك:

- أسمح لي.. عفواً... أولاً مرحباً بكم بيننا.. فقط أعترض أن أكون شيخاً على أحد.. فهذا مالا أقبله على نفسي.. ولا على غيري.. واعتراضي هو لمبدأ ولمسمى شيخ. صمت عرَّام يمسح دمعة خاتلت عينيه.. ثم أردف: تعلمون بأن من قتل أبي هو شيخ.. ومن أنتم فارون منه وسط هذه الغابة الموحشة هو نفسه. فكيف ترضون أن ننصب علينا شيخاً.. فهذه الصفة تعني لي الظلم والتسلط والاستغلال. صمت بعد أن لاحظ أن بعض العيون تذرف دموعها. لتعقب ناصية:

- أوافق على ما طرحه عرَّام.. وأقترح أن يكون شنهاص أخانا الكبير. وأشارت اليه وقد لاحظت على وجهه علامات الاستياء ليواصل حديثه:

- لن يكون إلا الخير كل الخير في تضامننا وتكاتفنا.. وهذه الخالة ناصية مرجعنا كما كانت.. وأتشرف أن أكون الأخ لكم جميعاً.. وما يشغل بالي منذ وصولنا هنا.. كيف نوفر سلاحاً يماثل سلاحهم.. وما أود طرحه انني أفكر في مراسلة من أعرفهم ولي بهم صلات قديمة من مشايخ الوديان الأخرى.. واتمنى ألَّا يخذلونا.

هلل الجميع.. وأخذ البعض بالرقص منتشياً.. بينما عرام يرمقه بنظرات مبهمة.. وقد أردف مزهوا: وقبل توفير السلاح يجب أن ننظم أنفسنا.. بداية بعدم خروج أي أحد منا إلى الوادي.. لمهاجمة المزارع أو استهداف أحد.. وأن نلزم الهدوء حتى نكون جاهزين لمقارعة الحصن وهزيمته. ومن أجل ذلك يجب أن نوزع أنفسنا إلى مجموعات.. منها مجموعة تتسلل بين فينة وأخرى لمراقبة تحركات رجال الحصن ومعرفة ما يعدون ضدنا.. وكذلك كسب من يتعاطف معنا ويناصرنا.. إضافة إلى جلب ما يمكن جلبه من تبرعات أولئك المناصرين من سكاكين وفؤوس ومناجل للدافع بها عن أنفسنا حتى تصل البنادق. ومجموعة تحمل الرسائل إلى من نطالبهم بتزويدنا بالسلاح.. وأخرى تترصد أي تسلل أو عدوان.. وبقية الأخوة يتعاونون على تسوية مكان مناسب لإنشاء أكواخ نسكنها بدلاً من الكهوف.. والتعاون بعد ذلك على بناء أكواخ متجاورة يسيجونها بسياج حامي من الحيوانات. وعلى النساء جمع ما يمكن جمعه من ثمار الغابة وأحيائها واعداده كطعام للجميع.

عاد صخب الأصوات مستحسنا. بينما صمت شنهاص ناظراً باتجاه ناصية..هازاً رأسه يدعوها للحديث حول ما قاله.. لتعقب:

- أرى فيما طرحه الأخ الكبير عين العقل.. وذلك ما كنا نحتاجه.. وبذلك بدأنا نسير في الطريق الصحيح.

ثم ختم شنهاص كلامه بالثناء على ناصية وحكمتها.. ولم يذكر عرام بشيءٍ.. كما كان في بداية حديثه.. وأردف: والأهم الالتزام بما ذكرنا. خاصة عدم مهاجمة الوادي أو الخروج دون إذن.. ويعلم الجميع أن أي ارتجال.. أو تصرف فردي سيضر الجميع. أمامنا طغيان لا يرحم.. ولن ننتصر عليه بالأماني والأحلام.. بل بالصبر والتعاون والتمسك بحبل الله.. والسير على سنن رسوله الكريم.

خلال الأيام التالية أنشغلت كل مجموعة بما كُلِفت به. وسريعا ما سويت مساحة واسعة بعد أن أزيلت الصخور والأشجار.. ليبدأ من كلفوا بإنشاء الأكواخ بقطع ونقل ما يحتاجونه للإنشاء. كما تسلل عرَّام ومجموعة ليلاً للالتقاء بمن يأنسوا إليهم من الرعية.. لمعرفة ما يدور في الوادي.. وكذلك جمع ما يتبرعوا به.. وكُلف قارون وثلاثة معه بعبور الجبال برسائل إلى مشايخ الوديان المجاورة.. يخبرهم فيها شنهاص بفراره.. ويطالبهم المدد لمواجهة طغيان حصن مرداس. أثناء رحلته شاهد قارون وديان وبلدان لم يكن قد تصورها

يوما.. وتأكد له بأن خلف كل جبل وديان وجبال لا تنتهي.. وأن المشايخ موجودون في كل وادٍ.. وأن لكل شيخ فاطمي يشير عليه بأحكام الشريعة ويعلم الصغار القرآن ويصلي بالناس.

.....

عاد قارون ومن كَلفهم شنهاص بإيصال رسائله.. وقد تعلم الكثير من عبوره مسالك تلك الجبال الوعرة.. وتعززت ثقته بنفسه بعد مقابلته لعدة مشايخ. أستقبله شنهاص مردداً: أرى فيك أحد أولادي الذين فقدتهم.. وأريدك دوماً رجلا شجاعا. فالأيام القادمة بحاجة إلى أمثالك من الأوفياء.. يدعوه لمجالسته.. يبث فيه روح البسالة مطلقا عليه صفات تشعره بأهميته.. ثم يحدثه عن ماضي أيامه وعن تجاربه.. باثا أماله في قهر مرداس واسترداد مخلاف أبوه وجده "غرب الوادي".. ويعده أن يكون يده اليمين. ثم يتحدث باستفاضة عن والده ذلك الرجل الشجاع.. الذي كان من أوائل من رفضوا وقاوموا طغيان وتسلط مرداس. وأنه كان قويا في مواجهة الظلم مؤمنا بالله متَّبعا لهدى المصطفى.

مع مرور الوقت أمسى عرَّام صديقاً لقارون.. معبراً عن أعجابة من ظهوره في تلك الليلة الماطرة.. وقد انعكست لوامع البروق على وجهه المخضل بالمطر.. وهو يَعبُر من ثغرة الجدار.. يوجههم برباطة جأش ليخرج الجميع بهدوء ونظام. وحين نهوضه راداً على ما طرحه شنهاص رافضاً إحلال صفة شيخ على أيٍ من سكان الغابة. يسأله: من أين أكتسب كل تلك الجرأة والشجاعة؟. التي يتمنى أن يماثله فيها.. يغادر الوادي ليعود متلهفا لمسامرته.. واستماع كل منهم لما عاشه في رحلته.. يتحدثا عن أمالهم وقد عادوا للوادي.. تتطابق تطلعاتهم ورؤاهم إلا حول شنهاص.. فقارون يصفه بالشيخ.. وعرام يعبر عن شكوكه فيه.. وعدم ثقته في نواياه.. وأنه يخفي خلف تلك الوداعة والطيبة شيخاً متسلطاً. يستشهد قارون بحديث شنهاص للجميع وما يظهره من تقى ونوايا طيبة.. لكن عرام يرد أسباب ثقة قارون به لإيمانه بلجوء والده اليه ما تسبب له تلك الهزيمة.. معللاً بأن شنهاص لم يقبل بلجوئه إلا لتنفيذ شيء في نفسه وليس لنصرته.. ولولا أن مرداس قد سبقه بخديعته لكانت أفعاله أفظع وأشنع.. يضحك قارون واصفاً ما يقوله صاحبه بالكلام الكبير وأنه لا يفهمه.. متمنياً عليه أن يأخذ الأمور ببساطة.. ناصحاً له بالطاعة وعدم تحميل نفسه أكثر مما تحتمل.

يفضل قارون سماع حكايات صاحبه القديمة.. قبل مقتل والده.. هروبه تلك الليلة من الحصن وقد ساعده أحد الحراس بفك رباطه.. وسرقة الدواب والهروب بهن.. ثم تصميم أمه على الهروب قبل أن يصل حراس الحصن.. حاملاً جثة أبيه إلى المجهول.. يحكي له خوفه ورهبة الغابة وهم يتوغلون فيها حاملين مشاعل الضوء.. وأمه تردد: تشجع فالوحوش تشم رائحة الخوف. ترعبه أصوات تأتي من كائنات لا تُرى.. حتى بعد سكنهما الكهف يتوقع لحاق جبار ورجاله بهم.. فلا يخرجون من الكهف إلا للضرورة القصوى.. حتى تبدلت الأحول حين لحقت بهم مجموعة من الرعية. كان قارون يستمع لتلك الحكايات وكأنه من عاشها.

ليحكي بدوره عن ذكرياته قبل صعوده بـ"شِرك" الشيخ.. عن رفقته لأمه الحريصة على حمايته.. وإبعاده الناس خوفاً.. ليشب لا يعي ما يدور حوله.. حتى ادخاله الحبس.. لتتبدل الدنيا في عقله وهو يعيش حكايات المحابيس التي لا تنتهي.. حكايات بطش وكأنه القدر. يحكي حرائق سياط جبار وقد أدمت بدنه.. لحظتها أدرك أن حكايات المحابيس ليست تهاويش.. وقد أمر جبار بإحضار البلطات. ليصعد طعم الموت اللاذع تجاويف رأسه.. كل ذلك جعله كائناً مغايراً لما كان قبله.

حكاياتهم المتبادلة جعلتهما أكثر قرباً من بعض.. الا أن ما كان ينغص عليه عودة عرَّام ببث شكوكه حول ما يبطنه شنهاص. ليجد صوت عرَّام يلاحقه في مجلس شنهاص.. ويراه غير ما كان يراه في السابق.. ويدهش لأسئلته: ماذا يقول عني صاحبك؟ حينها يتذكر أن ما كان يدور بينه وبين عرام لم يكن يشاركهم فيه أحد.. فيستشعر أن كل منهما يحمل للأخر ظنون سيئة.. مدركا أن صراع غير معلن يعتمل في الباطن.. ما أوقعه في حيره .. فهو الذي يحب صاحبه ويقدر شنهاص ويشعر بأنه يحمل له دين كبير. يوازن بين الاثنين فيجد أن الكفتين تتساوى.. يضطر حينها للتخفيف من مجالستهما. ليسأله شنهاص بتهكم: هل منعك صاحبك من المجيء إلي؟!. وبدوره عرَّام حين يلتقيه يلوِّح له بأن تأثير الأخ الكبير قد بدت ظاهرة حين يتجنب ملاقاته.. ليذكره بأن نوايا شنهاص بث الفرقة بين سكان الغابة.. ليكون هو محور الجميع.. واصفا إياه بالأُلعُبان الماكر.

تطورت حربهما الخفية ليتحدث شنهاص متهماً عرَّام بشق الصف والتفوه بكلام السفهاء. محملاً إياه لصاحبه إن لم يكف وإلا... ولم ينطقها.. عندها أصبح جل ما يتمناه قارون الهروب بعيداً. ولذلك فكر أن يغادر الغابة متسللاً إلى الوادي لزيارة والدته.. وحين أستأذن.. حذره شنهاص متهماً بأن عرَّم وراء تلك الفكرة.. ولا يعرف بأنه يهرب منهما الاثنين:

- لا تنقاد وراء ضوضاء صاحبك.

- وما علاقة صاحبي؟

- هو يثرثر للجميع بسمومه. أنت الطيب الذي تخفي علي ما تسمعه منه.. لا يهم ما يهمني هو خداعه لك.. فهاهوا ينصحك بالهرب.

- أقسم بالله هو الشوق لأمي.

- ونعم بالله. لكني خائف عليك.. أنت تعلم بأن بيوت من فروا مراقبة.. وجبار ينتظر ظهورك. أخاف أن تقع بين يديه.

- لكن الشوق يكاد يفطرني.. ثم أني سأكون حذر.. ولا أظهر على أحد.

أطرق شنهاص لحيظات.. ثم رفع وجهه المتغضن يهش ذباب حط على شعره الكثيف.. وقال مبتسماً:

- لا بأس من ذهابك.. على ألا يعلم بذلك أحد.. حتى صاحبك.. وأنبهك إلا أن رسائل أخرى تنتظرك لتحملها.. ننتظر عودتك.

قبل رأسه ممتنا:

- أعدك لن أتأخر.

- لا أريد فقدانك.

وقف وقد بدا على ملامحه التأثر.. كان يبدو لقارون كرجل كسير بهلاهيل ملابسه وشعره المبعثر وكفه التي لوح بقُطعها.. وهو نادراً ما يرفعها. يبتعد قارون متأثرا.. مضمراً أن لا يخذله. فكر باللجوء لعرَّام.. فهو خير من يعرف مسالك الوصول إلى الوادي.. الذي أشار عليه بخيارين.. الأول موازياً لمجرى الشلال الذي يشق الغابة حتى مصبه في الوادي.. والثاني عبر سفوح الجبال الشرقية.. وان كانت الاطول لكنها أكثر المسالك أماناً من الحيوانات وأقلها تشعباً.. ودعه في أول الليل وقد اختار محاذة مجرى الشلال.. ليسير متحفزاً يرهف السمع لهسيس وأصوات خفية.. تلاحق عيناه ما يلمع خلف الأغصان والجذوع.. ملوحا بفأسه باستمرار. ظن أنه لن يصل أطراف الوادي لشدة خوفه.. لكن سنا فضي أبهج ناظريه بعد حين.. عرف بأن ذلك الفضاء هو فضاء الوادي.. خاض عدة مزارع مشبعة بمياه أمطار الأيام الماضية.. حاذا برج حراسة ليسمع حديث بين حراس مزرعة.. أصواتهم ترتفع ثم تخفت.. فضل السلامة محاذياً لجدار المزرعة شرقا حتى وصل المصدات الصخرية لمجرى السيل.. حتى وصل المجرى الضحل ووازى الطولقة الكبيرة.. يراوده شعور بأن أحدهم في أثره.. تخفى خلف جذعها الكبير يرصد الأنحاء.. رأى أشباحاً تقترب.. تسلق الطولقة بخفة يراقبهم.. رويدا رويدا حجبت السحب وجه قمرٍ خجول وعم ظلام دامس.. فضل البقاء متخفيا لبعض الوقت.. تذكر بأنه اقترب من قرية المنحدر.. داهمته رعشة باردة وهو يستعيد رائحة أمه.. ترك لجسمه أن ينتفض لبعض الوقت.. اغرورقت عيناه وكاد صوته يخرج نائحا لاحتقان عذاباته.. يتذكر بأن الحبس علمه كبت المشاعر.. كاتماً صخباً بداخله.. فقط ترك دفقة دموع شوق حتى ينفس عن قلبه.. شعر بعدها بتماسكه.. وكأنه كائن آخر يهبط.

.....

مع دخول فصل الشتاء بدأ الجفاف بين مزارع البن والقاتً.. وكان الذعر من أن يستغل العصاة ذلك بإشعال النار بين أشجارها يؤرق حصن مرداس.. وبعد مشاورات رأى الشيخ

سرعة تطبيق مقترح المستشار باستخدام المزارعين.. وأمر جبار بدعوة عقال القرى وتوجيههم بتسخير رعية القرى للعناية بالمزارع لثلاثة أيام من كل أسبوع.. وتترك بقية الأيام للمزارع المؤجرة لهم.. في بداية الأمر هب الجميع لري الأشجار وتقليم ما تلف منها.. ليبتسم الشيخ بسعادة وهو يرى الرعية وقد توزعوا بين المزارع ومقاشر البن يعملون بهمه دون كسل. لكن تلك الابتسامة لم تدم.. وقد أخذ بعضهم يتخلف يوما بعد يوم.. ليتكاثر الرافضون.. ثم عم الجميع بمبرر أنهم لا يجدوا الأيام الكافية للعناية بما بين أيديهم من مزارع. هدد جبار من يرفض بطرده من الوادي بعد تأجير ما تحت يديه لغيره.. إلا أن الجميع ظلوا على موقهم. وظل الحصن في حيرة مما يدور.

لكن ما أشعل القلق.. وكاد يدفع جبار للجنون أن جاءه من يهمس بأن للعصاة من يلتقيهم ليلا في بيوتهم.. وأن هناك أنصار لهم يمدونهم بالعون. ليرسل رجاله يلاحقون من تدور حوله الشبهات.. وقد وقف الشيخ مما يقوم أبنه عبد الجبار موقف المنتظر للنتائج.. بينما مستشاره كان في قرارة نفسه يؤيد جبار.. إلا أنه لا يريد اظهار نفسه أمام الشيخ بمظهر من ينفخ النار.

ذلك النشاط الذي يقوم به جبار ورجاله.. ملأ الحبس من جديد بمن يراهم عيونا أو متعاونين مع العصاة. نشر التذمر بين رعية الوادي.

.....

هبط يمسح دموع عينيه.. تتلمس قدماه فجوات ساق الطولقة.. وما أن مس الأرض حتى خطا وسط ظلمة تحمل نطف مطر قادم.. كان يميز اتجاه منحدرات قريته. وكلما اقترب هاج الشوق في صدره وقلت مقاومته.. محاولاً كبت دموعه ورائحة أمه تقترب.. صعد بمحاذاة مزرعة يعرفها.. تخللته رهبة حين سمع نباح جرو بعيد.. وقف لبعض الوقت يخشى من أنه أبتعد.. ثم واصل خطوه صعودا نحو اتجاه بيتهم.. صعد على مهل حتى كان وسط أشجار قدر بأنها مزرعتهم.. يخطو بحذر شديد وضربات قلبه تتزايد ونباح جرو يقترب.. يصيخ السمع قلِقاً من رقيب أو مترصد بين الظلمة.. يعاود تقدمه مجاوراً لضجيج قلبه.. عبر مزرعتهم مقترباً من بيتهم.. اقترب نباح الجرو وزاد ذعره.. وقف متسائلاً: لم يكن لدينا جرو يوماً. لبعض الوقت يتابع ذلك الذعر حتى هدأ.. التف باتجاه ركن البيت مبتعداً عن مكان الجرو.. ما أن تحرك حتى عاود ذعر الجرو. سكن محتاراً.. بعد برهة كرر تقدمه بخطوات بطيئة حتى قارب إحدى النوافذ.. لكنه النباح بالمرصاد.. وقف وجلاً بعد أن سمع صوتاً هادئاً: "هيييييه.. هييه" قدر أن يكون ذلك الصوت صوت أمه.. خفق قلبه فرحاً وهي تكرر:"هيييه..هييه" ليخفت النباح.. أحس أن قلبها يستشعر وجوده.. هم برفع صوته منادياً.. تذكر كلمات شنهاص "أنت تعرف بأن بيوت من فروا مراقبة.. وبيتكم خاصة..." شعر برجفة الخوف تخلخل مفاصله.. قذف بحصوة صغيرة باتجاه النافذة.. ثم زحف بأطرافه الأربع فوق وحل الأرض.. وحين اقترب أكثر من النافذة رفع ساق فاسه: دقق.. دق.. دقق.

دق. ثم كررها.. عاود صوتها واضحا وهي تحرك درفة النافذة: يا ألطاف الله.. سبحانك ربي ما اعظم شانك. غامر هامساً: أماه.. أنا قارون!. هدأ صوت دعائها وتحول إلى تمتمات غير واضحة.. بينما ظل يكرر همسه خائفاً: أماه.. أنا هنا. صمت كل شيء إلا من "هرممة" الجرو. مرت لحظات طويلة وهو ينتظر النافذة.. لكن خيل له بأنه يرَى شبحهاً قادماً بمحاذاة البيت.. هبط أرضاً بخوف حتى لا يراه.. اقترب ذلك الشبح منه.. وأرتفع صوت دعاء.. ميز نبرة صوتها.. عاود الجرو نباحه من خلفها.. لاحظ شبحها يقترب أكثر.. لتتهاوى تحتضنه.. طوقته باكية بصوت مكتوم.. غمره دفء كثيف.. وهي تهنهن بأدعيتها الممزوجة بالنحيب.. تقبل وجهه ورقبته.. لم يتماسك تاركاً لصوته الباكي مده.. خافت أن يُسْمع بكاؤه نهضت مرتبكه تساعده على الوقوف.. تردد: أخفض صوتك.. أخفضه!. وهي تسير به حتى دفئ البيت.. لا يعرف كم مضى من الوقت وهو بين أحضانها وسط ظلمة الحجرة.. حاول تمييز رائحتها لكن أنفه خذله.. خاف فقدان حواسه. رفعت رأسها عنه وقد استعادت تماسكها لتهمس:

- لا أصدق أن قارون عاد لأمه...

- قتلني الشوق يا أماه فجئت لأطمئن عليك.

وشوشته :

- دعني اتلمس وجهك.

تركته لبرهة ثم عادت تحمل ذبالة مسرجة ينعكس ضوئها على كل شيءٍ.. قربت الذبالة من وجهه.. تتفرسه مبتسمة وقد غرقت عينيها بدموعٍ غزيرة رأت شلوخ على أطراف وجهه.. عيناه لا تزال ضيقتين.. شعر يطوق أطراف وجهه.. تنهدت وهي تقبله: لم يكن وجودك وهم إذاً.. هذا وجهك بين يدي.. لكن ما هذه الشلوخ؟ قالتها وهي تمرر أصابعها في وجهه.. وقالت: هذا أنت وقد أمسيت رجالاً.

تضم كفه بين يديها.. شعرت ببرودتها.. صرخت ناهضة وهي تحدث نفسها بهمس باكي: نسيت أنه آت من سفر طويل.. وأنه جائع. صمتت للحيظات.. ثم رفعت صوتها تحدثه: هيا اخلع ملابسك المبللة.. وسأعد لك ماءً دافئاً لتغتسل.. تبدو بحالة يرثى لها. ثم عاودت لخفض صوتها كمن تحدث شخصاً آخر: وأظنه لم يأكل منذ أيام.. كيف لم أنتبه لذلك؟

أدخلته يغتسل.. وعادت تنشغل بإحكام سد شروخ النافذة حتى لا يتلصص على وجوده أحد.. تدور وهي تتحدث بصوت خفيض: لن أتركه يضيع مني بعد اليوم.. عليَّ أن أفكر كيف أخفيه.. يكفي ضياع والده. يسمع صوتها متعجباً كمن تحدث أناس بجوارها. يتساءل: لم تكن

هكذا قبل أن أغادرها!. واصلت همسها وقد أكمل اغتساله.. تفرد له ثوباً وطاقية وجبة جديدة: ظننت بأني سأعيش وحيدة.. لكنه اليوم يعود.. سأخفيه عن الأنظار.

تقوده إلى فراشه. سألها عمن تتحدث إليه.. فردت مبتسمة: إلى نفسي.. الا تحدث نفسك أنت حين تتكالب عليك الوحدة؟ لا أجد من أتحدث إليه. صمتت وهي تنظر في عينيه مبتسمة وأردفت: أتظن أمك مجنونة.. لا تخف لا أزال بعقلي!

ابتسم محتاراً.. وقد ابتعدت ليعاود صوتها خفوته: يظنني جننت.. سأكون مجنونة إن تركته يذهب.

عادت تحمل وعاء طعام ساخن.. سألها عن تلك الملابس الجديدة.. قالت بمرح: أوه.. نسيت أن أخبرك.. لقد عاد خالك من السودان.. جاء من قريته البعيدة لزيارتنا.. يسلم عليك وترك لك هذه الملابس.. كما أعطاني القليل من القروش.. وأيضا ثوباً جديداً.. سألبسه وأريك.

تحدثه وقد جلست على حافة فراشه.. ثم أحاطته بذراعها.. وتلقمه بالكف الأخرى لقيمات دافئة كما لو كان صغيراً.. ثم تعاود تأمل وجهه بين لحظة وأخرى.. تقبله دامعة: بقروش خالك اشتريت بقرة.. بدل البقرة التي أخذوها!

- لماذا يأخذوها؟

- فداك ياولدي...!

- كيف فداي؟

- نصحتني صاحبتي بعد أن لاحظت سوء حالتي لغيابك.. أن أصعد الحصن وأسلمهم البقرة مقابل ما يدعون من شرك علينا لأستعيدك.. وما أن أصل بها حتى ينهروني.. فأعود بها إلى بيتي خائبة.. ترددت على الحصن بها عسى قلوبهم تلين.. وفي النهاية خرج ولد الشيخ غاضباً بعد أن شكو إليه ترددي.. وصرخ في وجهي: البقرة حقنا هاتيها.. وأذهبي وإلا..! عدت ذلك اليوم أبكي وحيدة. لتواسَيّني جارتي بلبن وسمن بقرتها.. حتى جاء خالك ورأى حالتي.

- هذا ظلم.

- لا ظلم ولا حاجة.. قالوا أنها حقهم.

- لكنها بقرتنا.

- لا يا ولدي.. إحنا من جيز الناس.. فبقر الناس إن ولدت بقرة في أي قرية يرفع العاقل للشيخ يبشره بولادتها.. وإن ولدت شاة كذلك.. حتى الدجاج يحصونهن ويحصوا بيضهن وشقرانهن.. فلهم الشرك من كل شيءٍ .

- وما يبقينا في هذا الوادي؟

- ياولدي احنا من جيز الناس. لا عليك مما حصل.. ودعني أحدثك حين جاء هو نفسه بعد فراركم.. أبن الشيخ يا ولدي وصل إلى باب بيتنا وسط مطر عاصف.. في البداية فزعت لرزع الباب.. كادوا يكسروه.. وحين فتحته دخل يهددني بأن أخلي البيت وأسلم المزرعة لرعوي ثاني.. ثم قال سأمنح فرصة تسلمي ولدك.. تلك اللحظة لم أفهم معنى كلامه.. تعجبت كيف يطالبني بك وأنت في حبسهم.. فقلت لهم: قارون عندكم! دهفوني حراسه ودخلوا عنوة.. فتشوا كل زوايا البيت.. ثم انصرفوا. كنت متعجبة مما يدور.. حتى علمت فيما بعد أنك فررت مع من فروا من الحبس.

- وتريديني أن أبقى هنا!

- ياولدي أخاف أن أموت لهفة عليك.. لازلت صغيراً.. لا يغرك شعر وجهك.. أنا أمك وأدرى بك.

- من يدخل حبس الحصن يشب يا أماه.. أتمنى أن تهربي معي.. ورزقنا على الله.

- أين أهرب؟

- إلى حيث لا شيخ ولا فاطمي.

- لم أفكر أن قلوبهم حجارة يوم أرسلتك بنفسي إليهم.. بعد أن غبت عن عيوني جلست انتظر عودتك على سطح البيت.. لم أنم ليلتها.. ولم أقرب الزاد لأيام.. هكذا انسدت نفسي ولم يعد لي رغبة في الحياة.

- يا أمي حين أرسلتني عرفت الحياة على حقيقتها.. لا كما كنتِ تصورينها لي بطيبة قلبك.

- وماذا عرفت؟

- عرفت بأن والدي قاتل!. وأنه من أبناء عمومة مرداس. لكن ما ظل يحيرني عدم

معرفتي سبب قتله لابن الشيخ؟

- والدك لم يقتل باغٍ.

- دوما كنتِي تقولين لي والدك سيعود قريب.

- وماذا كنت تريد أن أقول لك؟ وأنا كنت في كل لحظة أتوقع تسلله. فمنذ فر لا أعرف عنه شيئاً.. فقط تصلني بعض تقولات الناس عنه.. فأحد الحجاج قال لي بأنه رآه في مكة.. وآخر يقسم أنه جالسه في إحدى مقاهي عدن.. والبعض يؤكدوا بأنه عبر البحر إلى الحبشة.. وهكذا تأتي الأيام وتذهب ولا أعرف هل ما زال حياً.. أم أنه بين اللحود!. لكنه الأمل ظل يراودني ولا يزال بعودته. وما كنت أخفيه عنك خوفاً عليك.. فماذا يستفيد طفل حين يعلم بأن والده قاتل.. وأنهم أخذوا كل ما يرثه والده وطردوا زوجته ورضيعها.. ولولا توسط عاقل قرية المنحدر ما كنا سكنا في هذا البيت.. حتى المزرعة الصغيرة ملكهم.. ولا تملك من الدنيا شيئاً.

صمتت لتمسح دمعة يتيمة واصلت حتى طرف فمها.. بينما قارون يحاول التماسك وتخيل ملامح ذلك القاتل الذي هو أبوه.. دون أن يستطيع .. ليسألها:

- هل أنا أشبه أبي؟

- لن تصدقني أن قلت لك أنه يشبهني!

أنفجر قارون ضاحكاً رغم حزن صوت أمه ودموعها.. ضحك حتى دمعت عيناه:

- لماذا تضحك.. كثر الضحك يميت القلب ياولدي.. ويجلب فال الشؤم.

- لأني حاولت أن أتصور وجه أبي ولم أفكر أنه يشبهك.

- هكذا ياولدي كان.. لكنك تشبه خالك!

- خالي!

- نعم.

- لكن لم تجيبي عليَّ.. لماذا قتل عنصيف؟

- بسبب مسألة عرضية لا ناقة له فيها ولا جمل.

- كيف؟

- ذات وقت وقفت امرأة باكية امام بوابة الحصن.. تنتظر خروج الشيخ لتشكو ابنه عنصيف الذي لعب على ابنتها.

- كيف لعب عليها؟

- ان الناس كثيراً ما تحدثوا عن شجاعته.. لكنهم أيضاً كانوا يذمون خسة أبتليَّ بها.. وقد تعود منذ صباه التلصص على النساء ليلاً في مخادعهن.. شب بتلك النقيصة وقد تحولت في

شبابه إلى ملاحقه بعضهن واغواء من ينجح في إغوائهن.. وأمسى يتحدث متفاخرا عن فلانة وكيف طارحا الغرام.. وفلانة كيف خدعها؟. ومع الأيام تحولت تلك الملاحقات إلى إرغام من تمانع على ما يريد.. تحدث الرعية عن تلك المعابة. وكن السبب في قتل بعضهن على أيدي ابائهن واخوانهن مسحاً للعار. إلى أن جاءت إحداهن ذات صباح.. وكانت يتيمة الأبوين ووقفت شاكية باكية أمام الحصن.. صادف خروج والدك.. ولم يتمالك حين سمعها فعاد خجلاً يبحث عن عنصيف.. ولصلات القربى التي تربطهما بادره بالنصيحة.. إلا أن عنصيف أعتبر ذلك تطاولاً أمام الحراس.. ليقذفه بكلمات جارحة.. اشتبكا بعدها في شجار.. تدخل الحراس ليحدوا من حركة والدك.. وسحبوا جنبيته من "عسيبها". ليتنمر عنصيف ويصفعه على وجهه مهتاج: سأنتظر حتى تكون لك صبيّة وعندها سأرى من يمنعني عنها.

تلك كلماته النابية وجهها لوالدك.. الذي حاول التخلص من قبضة الحراس.. بواصل عنصيف تهكمه: وإن لم ترزق ببنت سأستضيف زوجتك ذات مساء لأرى بعدها نخوتك.

لحظتها أستطاع الإفلات من قبضة الحراس.. ليقفز ممتشقاً جنبية عنصيف وغرسها في نحره.. سقط بعدها مضرجا بدمائه. شلت المفاجأة الجميع.. فر نحو الوديان مستغلاً انشغال الحراس بعنصيف.. أو أنهم تناسوا عنوة لبنادقهم.. ولم يمر وقت حتى لفظ أنفاسه بين يديهم. سريعا ما انتشر الخبر في الأنحاء. وتبرع البعض بمطاردة والدك.. إلا أنه أختفى.. لتأتي أخبار تفيد بأنه وصل إلى شيخ غرب الوادي محتمياً.

- لماذا لم تحدثيني بذلك من قبل.

- أظنني كنت أحتفظ بها حتى تشب.

- لن تعرفي مقدار حرجي وأنا أسمع الشيخ شنهاص يرحب بي كمن يعرفني قبل دخولي الحبس.

- يرحب بك؟

- نعم رحب بي.. ولليالي حكى لجوء أبي إليه. كنت أسمعه وأنا أداري خجلي لجهلي.. تمنيت لحظتها لو أن الأرض ابتلعتنِي. وما زاد من حرجي أن عرفت أن نكبته كان سببها لجوء أبي إليه.

- يا ولدي أبوك لم يكن إلا عذراً ليحقق مرداس أطماعه.. فهو منذ سنوات يخطط للقضاء على شنهاص.. يتربص به دوماً.. ولم يكن شنهاص آخر أو أول ضحايا تسلطه.. فمن تراهم في بيوت قرية منحدر الحصن جميعهم أبناء عمومته.. وقد أحتال عليهم مرداس على مدى سنوات طويلة.. مستغلاً أبسط الأسباب ليجرِّدهم واحداً بعد آخر من أرثهم.. ومن كان يقاوم

يختفي ولا يعرف مصيره.. ويقال بأنه يضعهم في حبسٍ سري بداخل الحصن.. واليوم تراهم هم أجراء.

- كنت أعمى.. فحين كنت أسمع حكاياتهم.. كنت أشعر بأني غريب عن الحياة.. وأتذكر ما كنت تحدثيني به.. وأجدك تتعمدين النقص.. كنت أتساءل لماذا أمي كانت تخفي عليَّ ما يعشيه الناس.. وإن حكت فحكاياتها مشوهة ؟. لقد جعلتني في موقف المغفل؟.

- ها قد عرفت.. وماذا جنيت.. غير الهم والخوف؟ المعرفة مسؤولية يا بُني.. من اليوم سينخر الوجع قلبي عليك. ألا ترى جبار وحقده يلاحقك.. ألا يجعلني كل ذلك أخاف وأخشى عليك منهم.. فأنت وحيدي وأنا بدونك بلا سند.

حلق صمت بارد.. لتداهمه ذكريات صباح ماض.. يرى رجال جبار يسومونه بسياطهم.. ذكريات نُقشت في قلبه.. لتتوارد الرؤى والآلام بطعم الدم.. ويرى صَبية تندفع باتجاهه.. يعقبها ظهور امرأة.. تأمرهم الكف عن تعذيبه.. لاحظت أمه شروده:

- ما يشغلك يا ولدي؟

بعد صمت يجيبها:

- تأخذني ذاكرتي إلى يوم بعيد كلما تذكرت جبار!

- أي يوم؟

- يوم جلدوني.. لكن ما يحيرني وقوف امرأة في وجيههم.

- غريب أمرك.. مكثت ما يقارب السنتين في الحصن ولا تعلم من تلك المرأة شيئاً.

- لولاها لكنت في عداد الموتى.

- تلك المرأة هي زوجة الشيخ "عيشة". وقد طلقها مرداس مساء ذلك اليوم.

- طلقها!

- لأنها وقفت في وجه جبار.

- ولماذا خاطرت؟

- هي فتاة طيبة.. وبيتهم في الطرف الآخر من القرية.. ووالدها من أبناء عمومة والدك.. وهو أحد ضحايا حيل الشيخ الذي سلبه ميراثه.. ليعيش مثل البقية أجيراً.

غشتها نوبة بكاء.. تندب حظها وحظ النساء في هذه الدنيا.. تبكي نفسها وحظ تلك الفتاة "عيشة". احتواها قارون بين ذراعيه.. يقبل رأسها يهدهدها كطفلة.

.....

انتشر جفاف أشجار مزارع البن والقات.. حتى بدت بعض الأشجار حطباً.. لتلوح في الأفق كارثة تهدد حصن مرداس.. وقد تراكم خراج الوادي لسنوات.. وإمام صنعاء يرسل في طالبها.. ما يجعله يعتبر تأخر الخراج نوعاً من التمرد عليه.. بينما موت أشجار المزارع يحتاج إلى سنوات لغرس شتلات بديلة.. والعناية بها يحتاج إلى سنوات أخرى حتى تؤتى ثمارها.

أدرك المستشار زيد أن نسيبه يمر في ظروف سيئة.. وأن الواجب يحتم عليه أن يكون في موقع الناصح الأمين.. لدفع جبار لملاحقة الفارين واستعادتهم للعمل في المزارع.. مدركاً لرعونة جبار.. وتخبط مرداس الذي لا يميز بين الصح والخطأ. ولذلك زاره مبدياً حرصه على مصالحه.. مشيراً عليه بشراء بنادق جديدة.. رد عليه الشيخ حانقا:

- الأشجار تموت وأنت تتحدث عن شراء بنادق!

- نعم بنادق الـ "شميزر" يقال بأنها تطلق عدة طلقات متتالية.

- وماذا نصنع بها؟

سنجهز بها الرعية لملاحقة العصاة والفارين.. وإعادتهم إلى ما كانوا عليه.. أو القضاء عليهم.. لن يقفوا أمام مطر البندق الجديدة.. ولن يجدوا غير الاستسلام والعودة صاغرين.

- شراء البنادق الجديدة مقدور عليه. لكن ألا توجد طريقة أخرى لاستعادتهم.

- تلك الغابة أصبحت ملاذاً لكل عاصٍ.. وأنت ترى جبار وقد ملأ الحبس.. وتذمر بقية الرعية يتصاعد.. فنحن بمقاتلة من في الغابة سنحقق هدفين.. نستعيد الفارين والعصاة من جهة. ونزرع الخوف بين من يفكروا اللحاق بهم جهة أخرى.

أعجب الشيخ بالفكرة.. ولذلك ظل يهز رأسه يقلبها.. ثم رفع وجهه المعشوشب وقال بحزم:

- فكرة صائبة.. على بركة الله نشتري البنادق.

سافر زيد يرافقه جبار لشراء البنادق الجديدة.. وما هي إلا أيام حتى عادا بأربعين صندوق محملة على ظهور قافلة من الجمال.. ليطلق الشيخ من في الحبس.. ويعلن النفير العام لكافة الرعية بمحاربة العصاة والفارين.. تقاطر العشرات من مختلف القرى استجابة للنفير.. وتم

توزيعهم إلى مجموعات لتدريبهم على استخدام البندق الجديد.. ولم تنقضِ أيام حتى كان الجميع على أهبة الاستعداد لمهاجمة الغابة.

.....

انشغلت أم قارون تلك الليلة باضطراب مفاجئ.. ما أن تخرج من غرفة قارون حتى تعود تتأمل وجهه النائم.. تحتدم بصوت خفيض: ها هو في بيتي.. لن أدعه يغادر.. وأعيش بعدها وحيدة.

تصمت قليلاً يقودها هم قلبها.. ثم تهامس كائن لا يُرى: لماذا كل هذا العذاب؟ ما صنعت في دنيتي حتى تشقيني. أستمرت تجادل نفسها.. حتى أستفاق قارون على صوتها.. يتابع همسها الشبيه بالبكاء.. احتدام كلماتها.. وهي تحاول اقناع شخص ما. كان بحاجة إلى سماع جدلها ليتواطأ معها.. في الوقت الذي يفكر في وعده لشنهاص. ظل يتابع صوتها حتى فاجأه تسلل ضوء صامت من شجوج النافذة.. نهض فرحاً.. حرك أحد درفتيها بحذر يسترق النظر إلى الخارج.. تدفقت الشمس.. استنشق الضوء مغمضاً عينيه الضيقتين.. ثم فتحهما على اتساعهما.. يتنفس رائحة الضوء.. بعدها غمرته روائح الأشياء من حوله.. سَعُد لاستعادته حاسته. قدمت فزعة حين رأت النافذة مشرعة:

- أتريدهم يرونك؟

- أريد رؤية الضوء.

احتوت وجهه بين كفيها.. تتأمله تحت ضوء الشمس.. بدا لها شخص آخر.. تزم عينها لتستعيد ملامحه القديمة.. تضحك لعينيه اللتين لم تتسعا.. شفته السفلى المدلوقة دوماً.. شعر وجهه الناعم.. تلك الشلوخ التي طرأت عليه.. تتلمسهن بأصابعها:

- مما هذه ؟

- لا شيء!

- لم يكن وجهك به شلوخ.

يبتسم:

- لمَ تنظرين إلي هكذا؟

- اريد أن أملئ ناظري تحت الضوء.

- هذه أنتِ وقد مللتي مني.. فهل أغادرك الليلة.؟

- تغادرني أجننت حتى أتركك ترحل عني؟

صمت هياجها بعد برهة.. وقد على وجهه حزن غائم.. شعرت بأنه يتألم.. فكرت بتغيير مسار حديثها:

- لم تحدثني عن حبسك بعد.

أدرك ما تفكر به ففضل أن يطاوعها إشفاقاً.. وقد وجد لديه رغبة استعادة الحبس:

- الحبس يا أماه أسوى من زرايب البهائم.. معتم.. لا يميز ملامحه من يدخله إلا بعد حين.. كل شيء تسكنه القمل والبق.. نتراهن على من يقتل أكثر عدد.. فكانت الحكايات وقتل القمل سلوتنا. لا نعرف الوقت إلا حين يفتح الباب ليخرجوننا مقيدين.. حينها نعرف أنه الفجر.. بعدها نرى الشمس وقد هبطوا بنا إلى المزارع.. تحطنا فوهات بنادقهم.. نصادف وجوه الرعية من يذهبون إلى الوادي.. نراهم غير ما ترونهم أنتم.. وحين يعودوا بنا مع مغيب الشمس نكون بأجساد هدَّها الشقاء.. يعودون بنا إلى الحبس منهكين.. نمضغ حكايات مكررة.. تدور الكلمات من ليلة إلى أخرى.. لنشعر بأننا لازلنا أحياء.

يا أماه الحبس ليس جدران وباب يغلق.. الحبس أنين حكايات.. كل حبيس حكاية تسير على قدمين. كما هي حكاية أبي.. وحكاية شنهاص وحكايتي.. هناك لكل سجين حكاية دامعة. ليلة بعد أخرى وجراح أرواحنا تتسع.. لنكتشف بأن الحبس لا يقصر على ماكنا فيه.. بل أن الجميع في حبس حدوده جبال الوادي.

أتذكر أنني يوماً وقبل أن أُحبس لمحت صف الأخدام يقادون إلى المزارع.. وقد رُبطوا إلى بعض في صفوف طويلة.. وكنت أظنهم ليسوا بشراً.. وبعد أن حُبست أصبحت أقرأ ما في عيون من يشاهدونا مقادين.. وأرى نظرات الإشفاق والخوف. وقد سيرتنا السياط في ذلة وخنوع.

- ياخوفي أن تقاد من جديد.

- أموت ولا أعود.

- سأخبِئك.

- كلنا في حبس كبير.

- لن أتركك تعود للعذاب والموت.

- بل أنا من أريدك أن تأتي معي.

- وأترك بيتي.. ومزرعتي؟

- مزرعة من.. وبيت من ؟. ألم تقولي بأن كل شيء حق الشيخ.. ويطردك متى شاء.

- كل الناس يعيشون هكذا.. ويموتون هنا.. وأنا من جيز الناس.

- كتب علينا الشقاء يا أماه.

- لم أذق الشقاء مثلما ذقته لحظة سماعي خبر انتشار جثث من فروا بعد أن جرفهم السيل.. أنخلع قلبي وخانتني مفاصلي لأجثو أرضاً فاقدة للنطق. ولولا عناية صاحبتي التي كانت إلى جواري لفارقت الحياة.

لم يأت فجر اليوم التالي حتى كنت بين من خرجوا للبحث عن أقارب لهم.. ولأيام الكل ينتحب وهم يقلبون ما يصادفون من جثث.. تعرف البعض على قلة منها لتدفن.. وأكثرها لم تعد لها ملامح بعد أن تفسخت.. أو نهشتها الكلاب والنسور. كنت أخشى أن تكون أنت بين من تفسخوا.

ولم أعد أصدق من يؤكدوا أن جثث أخرى قد جُرفت خارج الوادي. هبط حزن على قلبي ومات الأمل.. واحتسبت فقدي لك عند الله. لكن الأمل أبتسم من جديد.. وقد عادت صاحبتي تحمل لي أخباراً أن عدداً كبيراً ممن فروا قد تسللوا داخل الغابة.. وأن الجثث التي شوهدت ما هي إلا لقلة منهم.. في ذلك اليوم صليت لله كثيراً وأنا أبكي متضرعة أن تكون أنت في الغابة.. ظللت أتتبع الأخبار. وقلبي يحدثني بأنك حي.. وأنك ستأتي لزيارتي.. جلبت جروً لينبهني إذا عدت.. أسمعه "يهقر" بين ليلة وأخرى.. وأظنها خطوك أخافه. لأكتشف تارة أن أحد الثعالب قد اقترب من قن الدجاج.. وأخرى مجموعة كلاب تلاحق "عِساق". وكل ليل أدعو الله أن يبشرني.. إلى لحظة أن بشرني الجرو بنباحه.. في البدء ظننته شيئاً ما أخافه.. لكن ضراوته كانت مختلفة.. فكثيرا ما ينبح.. وعادة ما يكون نباحه متقطعاً.. لكنهُ في الليلة الفائتة كان متواصلاً وصارخاً. أسمعته صوتي لأطمئنه أنه ليس وحيداً.. لكنه واصل نباحه.. فجأة خفق قلبي متسائلة: قد يكون القادم ابني!. كررت صوتي وأنا أصيخ السمع لنبض قلبي.. ليواصل الجرو نباحه الحاد.. وحين سمعت صوتك كدت أطير.. شعرت بطعم السعادة وقد أيقنت أنه صوتك.. بدت لي المسافة إليك بعيييدة.. تمنيت لو أن حديد النافذة يلين لأخرج منها.. لم أشعل السراج...

بتر حديثها طرق على الباب. تبادلت وقارون نظرات ذعر وترقب.. قفز من فراشة وقد اتسعت عيناه الضيقتان خوفاً.. ليتردد صدى صوت شنهاص " أخاف أن أفقدك". همست أمه تهدئ من روعة: لا تخف!. واضعة سبابتها على شفتيها.. خرجت زائغة الحس وأغلقت عليه

الباب.. ظل متحفزا وقد حمل فأسه.. عبرت الحجرة بقلب راجف وهي تهمس "ربي لطفك بنا". سألت بصوت خافت:

- من الطارق؟

.....

تماهت "عيشة" مع من حولها.. وظلت تلك الشابة بقوامها الناحل.. ووجهها الطفولي الذي لا يشي بسنها.. يظن من لا يعرف بأن جمال أخاً صغيراً لها. تعامل الجميع حتى خادماتها بعفوية. وبعد طلاقها منع مرداس خروجها من الحصن لأي سبب كان.. أو دخول أقاربها لزيارتها.. وقد أسكنها دار تخصها عرفت بدار "عيشة". فلم تتذمر يوما أو تشكوا. وبدا وكأن الأمر لا يعنيها.. جاعلة من ابنها جمال محور حياتها.. منذ أيامه الأولى.. حيث أحاطه الشيخ باهتمامه.. وكثيرا ما حمله بين يديه مزهواً باختياره لاسمه : جمال عبد الناصر ابن شيخ ومزارع.. قاد مصر ويقود العرب.. وابني هذا سيكون مثله.

وسنة بعد أخرى كانت تلحظ عيشة أن أبنها لا يحب مرافقة والده.. وحين شب كثيراً ما تأفف من أسلوب حياته.. شب ميالاً للسكينة.. لا يُرى إلا نادراً خارج بوابة الحصن.. ولا تتذكر والدته أنه يوما تحمس لمرافقة والده في تحركاتها أو يحض مواقفه.. وإن حصل مداراة لرغبة والده أو أخيه جبار فسريعاً ما يعود شاكياً.

بعد طلاقها أنقطع الشيخ عن زيارتها.. ولم يعد يسأل حتى عن ابنه.. ليتناسى أن له ابن.. أو أنه كان يعاقبه هو الآخر لأنه ابنها. ما زاد اهتمامها به.. وزاد التصاق جمال بأمه.. تتابع نموه.. ومع مرور الوقت لاحظته يتجنب في تحركاته داخل الحصن دار والده.. بل وحين تحدثه عنه لا يبدي أي حماس نحوه.. فتحاول أن تحبب إليه ما يقوم به كشيخ بين رعيته.. مستعرضه نشاط أخيه جبار.. فيبدي لها عدم حماسه.. بل وأدنى اهتمام. في بداية الأمر كانت تظن ذلك سلوكاً طبيعياً لصغر سنه.. لكنها لاحظت مع مرور الوقت أنه حتى لا يميل إلى مشاركة من في سنة اهتماماتهم. وذلك ما زاد من قلقها. وظنت أنه مصاب بتبلد في عقله. لكنه أدهشها لسرعة تعلمه القراءة والكتابة.. فمع بلوغه السابعة رأت أن تكلف من تدرسه.. وقد عرفت أن إحدى خادماتها تجيد تلاوة القرآن وتحفظ منه الكثير.. كما تحفظ عشرات الأحاديث النبوية.. فلم يكمل على يديها سنته الاولى حتى كان يقرأ ويكتب بعض الكلمات .. حافظاً لقصار السور.. وما شدها أكثر اتقانه في رسم الحروف.. ما شجعها على أن تواصل تلك الخادمة تدريسه.. ولم يبلغ العاشرة حتى كان يقرأ ويكتب ما يطلب منه.. كما حفظ عشرة أجزاء من القرآن وعشرات الأحاديث عن ظهر قلب. كانت عيشة سعيدة به.. ولم يعد يهمها أن يهتم والده أو لم يهتم فيكفي أن تراه يعيش إلى جوارها.

ليتذكره مرداس يوم وصل إليه خطاب إمام صنعاء.. يطلبه فيه إرسال أحد أبنائه إليه رهينة طاعة .. ليقرر ارسل جمال ابن الثانية عشر سنة إلا بضعة أشهر.. ليلتها كادت عيشة أن تفقد صوابها.. وأمست تفكر في وسيلة تحتفظ بها بابنها.. فكرت بالفرار به ليلاً.. لكن عبورها بوابة الحصن من سابع المستحيلات.. فكرت أن تتسلل إلى دار مرداس وتغرس سكيناً في صدره. ظلت تفكر وتفكر حتى انبلاج الفجر.. لا تتخيله يعيش بعيدا عنها.. تتصور الحياة في بلاد صنعاء البعيدة وكيف سيعيش وسط أناس لا يعرفهم.. رفضت حين قدم جبار لاصطحابه إلى أبيه.. ليحضر مرداس مهددا إيها.. مردداً: كفاية تربية نسوان.. أفسدَّته.. الرجال ما تربيها إلا الرجال.

لم ترفع ناظريها إلى وجهه.. ولم ترد عليه بأي كلمه.. غير أنها نظرت في عيني ابنها تسألها: هل ترغب بالسفر؟ وما أثر حنقها حين أبتسم هازاً رأسه بعلامة الإيجاب. لتتراخى قبضة أصابعها عن معصميه. ويغادرها راسماً ابتسامة وهو يرمقها بنظرة أحست بأنه سعيد بمغادرة الحصن.

عانت عيشة فراق ابنها وهو الذي لم يفارقها ليلة منذ مولدها.. تتسأل أن حل الليل هل نام تحت أغطيه؟. وإن ارتفعت شمس الصباح هل "اصطبح"؟. تنتظر عودته بفارغ الصبر وقد تصورته هلك من الجوع والبرد. وتدهش يوم عاد يحدثها عن قصور الإمام.. عن نسائه.. عن مدينة لا لها أول ولا آخر.. عن أسواقها.. وعن حياته وسط أناس لا يشبهون في حياتهم حياة الوادي.. تسعد وقد رأته مبهور بتلك الحياة.. يستعجل العودة إليها. وفترة بعد أخرى تلاحظ تغيره. ترى التحول الذي طرأ عليه وهو يحدثها عن رفقته لنساء بيوت سيوف الإسلام كـ "دويدار" عن الحياة المترفة في قصورهم.

وفي زياراته الأخيرة يحدثها حول انقطاعه عن مرافقة النساء.. واختيار أحد السيوف له لمرافقته.. ثم أُلحقه بمدرسة بيت الإمام.. يشرح لها ما يتعلمه فيها من كتب الدين غير القرآن.. وفي علوم اللغة.. يحدثها أن المدرسين يطلبون منه التواطؤ ليكون أدنى معرفة من أبناء السيوف حتى يظل في المدرسة.

تستمتع لحديثه: لست الرهينة الوحيد.. لقد عرفت الكثير منهم.. من مختلف نواحي اليمن.. منهم من في العاشرة.. ومنهم رجال كبار.. لكني أتجنب الكثيرين.. وقلة من انتقيهم لصحبتي.. بل أن المقربين مني لا يتجاوزون أصابع اليد.

تلاحظ أنه أستمر في عدم اهتمامه بما يدور في الوادي.. بل ولا يهتم بالحصن.. فمع عودته لا يجالس والده.. أو يناقش ما يدور في الوادي.. وحين تحاول أن تحدثه بما يدور.. يبتسم ويردد: دعينا من حياة الضنك. تحاول أن تحبب إليه الذهاب إلى مجلس والده.. لا يمانع لكنه سريعا ما يعود.. مختلقاً لأعذار شتَّى. وحين تحاصره بأسئلتها حول ما يضايقه.. يرد عليها

بصوت هادي: أنا أذهب إكراماً لك.. لكني لا أجد ما يهمني لديهم. ولذلك أحب خلوتي في دارك.

وزيارة بعد أخرى يتضايق والده لتصرفاته.. مردداً: لماذا إذاً يعذبه نفسه ويعود من صنعاء؟ ناعتاً إياه بـ"ولد مدينة".

.....

تعودت فاطم على حياتها الجديدة بعيداً عن الضجيج.. فلم يعد رحمها صالحاً لقبول إي تخلُّقٍ جديدٍ.. وإن راودتها أحلامها بين فينة وأخرى بحدوث معجزة.

في الوقت الذي كانت فيه شبرقة قد تشرنقت على نفسها.. ولم يعد في ذهنها أي مشاعر لمرداس بعد أن سحقت بقايا مشاعرها.. ليتغير الشوق القديم إلى كراهية ثم أنتهى إلى حقد.. ولم يبقَ لها غير ظلال بنتيها وحضور جبار الذي يمثل لها الرئة التي تتنفس منها. الذي يزورها بين فترة وأخرى.. شارحا ما أنجز من عمل.. طالباً رضاها.. وما ينوي القيام به.. يرجوها الدعاء.. كما يبث بشكوكه حول دسائس مستشار والده. تستمع إليك بقلب عطوف ومتفهم.. وما أن يأتي بذكر والده في سياق حديثه.. تصمت ولا تفصحه بأن يثير غثيانها.. تحرص على تجنب المواضيع التي يكون فيها مرداس لاعباً أساسياً.. لتواصل نقاشها معه وكأنه لم يذكره. ودوما تنتظر زيارتها لها بشوق.. لكن ما كان يقلقها تهوره الدائم.. وقد أضحى ذلك جزء من شخصيته.. محاولة نصيحته.. داعية أن يسلك في تعامله بالتروي.. وأن يجرب رؤية الأشياء من زوايا عدة. لكنه يشعر وقد تلبس شخصية أبوه.. مرددا جملا هي على يقين بأنها من تعاليم وإرشادات والده.. طالبا منها عدم ارهاق قلبها خوفا عليه.. مرددا: ما أطمع به منك هو الدعاء.

.....

كان صوت من يطرق الباب مرأة.. حين سمعتها أم قارون.. هدأ قلبها وقد ميزته.. لتفتح بتمهل.. تستقبل وجه صاحبتها الضحوك حاملة بين كفيها قصعة تفوح برائحة السمن.. سألتها:

- لماذا تقفين وكأن على رأسك الطير.. ألا تدخليني؟

- أبدا.. فقط شدني وجهك الذي أستبشر برؤيته خيراً؟

- وجهي.. ولا عيناك الفرحتان.. لكن قولي لي ما سر فرحهما اليوم؟

أربكتها جملتها.. لتعقب:

- صباحك من يفرحني.

قالتها في مرح وهي تقف حتى لا تدخل.. لترد عليها صاحبتها بمرح موازي:

- أتيتك بفتة.. بعد أن انتظرت خروجك.. وحين تأخرت خشيت أن تكوني متعبة.. أو قد يكون لديك ضيف.

ثم غمزت بعينها مستدركة: وفي كل الأحوال أنت بحاجة إلى ما يقوي بدنك.

أصابتها جملة " أو قد يكون لديك ضيف" بالخوف.. محاولة التماسك والهدوء لترد باسمة:

- من أين يأتي الضيف؟

- حدثتني أحداهن أن جروك ليلة البارحة أمسى "يهقر" طيلة الليل.

- قد تكون البروق أخافتة.. فلا يزال صغيراً.

- بروق!. هنيئا لك البروق يا أم البروق.. أنا ذاهبة لبعض أعمالي.. وسأعاودك لاحقاً.

سلمتها القصعة وعادت من حيث أتت.. لتترك في نفسها قلقاً وخشية على قارون. تلك الجارة هي الوحيدة التي تكثر من زيارتها لها.. تسليها بثرثرتها.. متحدثة دوماً عن شوقها لزوج جديد بعد وفاة زوجها. تضحكها حين تفرط في أمانيها وهي تردد بمرح: أتمنى زائرٍ ليلٍ يأتيني بغته.. لا أريد مواعيد من أحد.. فقط يتسلل ليدفئ فراشي ويروي ظمأ ليالي... تصمت ترقب رد أم قارون.. وحين لا تجد تجاوب تواصل: كم تمنيت لو كان بيتي "طارف" مثل بيتك.. لأغويت من أرى في عينيه الرغبة.

فترد عليها في ممانعة:

- أتقي الله.

- عديني لو وجدتُ أحدهم أن تستضيفيني وياه شطر من ليل؟. إن وافقتِ سأطلب منه أن يأتِ برفيقٍ من أجلك.

ودوما تنهي أمانيها وقد ضمت أم قارون إلى صدرها بمودة.. لتحذرها:

- السنة قرية المنحدر من جمر.. كوني حذرة.

تتذكر ذلك وقد عادت إلى قارون راسمة على محياها ابتسامة عطوفة.. حتى لا يغشاه قلق. واضعة القصعة بين يديه : هذه هي صاحبتي جاءت تطمئن عليَّ بعد أن تأخرت في الخروج.

- لقد سمعت هذرها!

ترقب حيرة عينيه.. ثم عاد صوتها منكسراً:

- قلبي لا يطاوعني رحيلك. لكني لن أعترض ما تراه صائباً.

- مثلما حيرتك هي حيرتي.. أريد أن أبقى.. لكن بقائي يضاعف قلقك. وأرى أن أرحل الليلة.

صمتت محتارة ثم استدارت قائلة:

- سأخرج حتى لا يُلفت غيابي انتباه احد. وعليك أن تمكث بهدوء ولا تستجيب لأي طارق.

أستقبلها الجرو يمرح حولها.. مرت على قن دجاجاتها.. ثم اتجهت هابطة مزرعتها.. بعد وقت عادت تحمل على رأسها حزمة علف.. أخرجت البقرة تدور بها حول البيت تمسح ظهرها تتحدث إليها كما لو كانت تفهم.. عادت بها لتضع حزمة العلف أمامها.. تشعر بأحزان تثقل قلبها.. تسحب لحظات يومها لتعود مع حلول المساء بوجه ضامر تجالسه صامته.. لا تجد ما تتحدث به وقد شغلها هاجس رحيله.. تهامس نفسها بكلام متداخل.. يتابعها بقلب مضطرب ولا يدري ما يصنع ليسعدها.. يخبرها بأنه أرجأ رحيلة إلى ليلة قادمة.. فترد عليه بأسى لكنك في النهاية سترحل وتتركني وحيدة. يتمنى لو أنه لم يتسلل إليها.

أنقضى ذلك المساء باردا صامتا.. لتعاود صاحبتها طرق بابها.. تحدثها بصوت مضطرب: يقولون أن الشيخ جمع الرعية.. وقد احتشدوا لمهاجمة من في الغابة. وقالوا أن لديه بنادق جديدة تقتل عدة أشخاص في وقت واحد. وقفت أم قارون تسمعها وقد طغت على ملامحها حيرة. أردفت صاحبتها: وأنه عازم على إعادتهم لحبسه والعمل في مزارعه كما كانوا. صمتت وهي تتفرس وجه أم قارون ثم أردفت: أراك واجمة.. أين بريق عين الأمس.. أم أنني أخبرتك بما زاد همك.. وأرى في عينيك كلام كثير.. أتودين أن تخبريني بشيء.. هيا اخبريني.. بالأمس كان وجهك باسماً واليوم تنظري لي بنظرات حزينة. حدثيني بما يشغلك.. الست صاحبنك؟.

صمتت للحظات ثم زاد: لن أزيد من همك. سأذهب إلى عملي ما دمت لا تودين الحديث.

سارت مبتعدة في خطى ثقيلة.. ثم التفتت: سأعود إليك.. فقلبي يحدثني بأنك تخفين علي شيئاً.

أقفلت بابها وعادت إلى قارون تلهث:

- لن تغادر.. أسمعت ما قالته جارتي؟

- سمعت.. لكن...

- الشيخ يستعد للهجوم على الغابة.

- وإن كان.. سأتسلل ليلاً!

- لن تخرج أبداً.

- أخاف من جارتك هذه وتطفلها أكثر من الشيخ.

- لا تخف.. فهي لا تعرف شيئاً.

.....

نُصبت خيمة للشيخ ومستشاره على ربوة عالية أمام غابة الجبال.. ووقف الشيخ يجاوره مستشاره زيد الفاطمي بجلابيبه الفضفاضة وعمامته البيضاء وأمامهم وقف الرعية في صفوف متجاورة.. حاملين البنادق الجديدة.. بينما أستعد جبار ورجاله للهجوم حسب الخطة.. وجه زيد كلامه إلى الجميع: " بسم الله الرحمن الرحيم القائل: وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا وأغشيناهم فهم لا يبصرون". اليوم حصحص الحق.. وبكم يتطهر واديكم ممن ينشرون الخوف ويقلقون السكينة.. ليعود الأمان ويعم الخير بفضلكم.. أنتم جنود الله.. وأنتم المنصورين.

وما هي إلا لحظات حتى توغل جبار برجاله وسط الأشجار حسب الخطة.. شاهرين شميزراتهم. أعقبها حالة من الترقب والهدوء.. اشرأبت الأعناق ليسمع قعقعة الرصاص من أعماق الغابة.. وتوارد الأخبار إلى تكية الشيخ بأن الرصاص تحصد أرواح الفارين.. وأن أعداد كبيرة منهم قد استسلموا.. بعد وقت ظهر عدد من رجال جبار يحملون جرحاهم. بهت الشيخ لمرآهم.. وخشي أن يكون جبار قد أصابه مكروه.. وقرر اعطاء الاشارة لصفوف الرعية بالاستعداد للدخول.. لكن مستشاره نصحه بالتريث.. فحسب الخطة يجب أن تصل إليهم من جبار إشارة.. ليمر الوقت ثقيلا وتظهر مفاجأة أخرى وقد عاد بقية رجال جبار يهرولون في حالة يرثى لها.. ليخبروا الشيخ أن جبار أمرهم بالانسحاب.. وأنه سيلحق في أثرهم!. مر الوقت بطيئاً حتى عاد منكس الرأس. يجر أذيال الخيبة.. وما أن وصل أمام والده حتى ركع صارخاً: لم نُهزم من أشباه الرجال.. لكنَّا هُزمنا ممن هم بيننا.. هناك من سرب خطتنا.. لقد كانوا على معرفة بتفاصيل خطواتنا.. ولذلك اقتربوا ينتظرون مرورنا وقد كمنوا متخفين بالأشجار.. في الوقت الذي كنا نظنهم في عمق الغابة.. لقد قتلوا رجالي بفؤوسهم وحرابهم.. لم يعطونا الفرصة لاستخدام بنادقنا. وقد تقافزوا كالقردة من بين الأغصان وجذوع الأشجار.

تأثر مرداس من حالة ولده ومن تبقى من رجاله.. حامد الله على سلامته.. مدركاً بأن خيانة قد أُحيكت.. وأن بين العقال والرعية من لهم صلات وتواصل بالفارين. حاول مرداس أن يمتص هلع أبنه.. ويحد من تذمره.

.....

- وحوش الغابة هاجمت ابن الشيخ ومن معه.

هذا ما وصل إلى أسماع قارون.. من منادمة أمه وصاحبتها.. وتلك المرأة تؤكد لها: أن جميع من تجمعوا لدخول الغابة قد تفرقوا خوف خروج الوحوش.

تركت أم قارون ما تسمعته دون تعليق.. وقد أصابها ذهول غريب.. تودعها لتعود.. محاولة فهم حياة من في الغابة بين تلك الوحوش. يقول لها قارون ضاحكا:

- "طواهش" الغابة أكثر رحمة يا أماه من حصن مرداس.

- لكنهم يقولون بأنها افترست من حاولوا دخول الغابة.. فكيف بكم وأنتم عُزل؟

لم يستوعب قارون ما يقال حول تلك الوحوش.. وقد أقلقة حالة أمه وتصوراتها.. أخبرها بأنه قرر البقاء. لتلتفت حاضنة وجهه وهي تردد غير مصدقة: ستبقى من أجلي. وقد خالط صوتها نواح. ثم صمتت تمسح دمعها. وقالت بصوت قوي: بل ستمضي في حال سبيلك الليلة.. وسأعرف كيف أتدبر حياتي وحيدة.. لا تخف علي سأعيش أرقب عودتك.

غادر قارون مع منتصف ذات مساء.. موصياً أمه: دعي الباب مشرعاً حتى إذا عدت ليلا لا أزعج منامك. صعدت سطح بيتها كعادتها حين يضيق صدرها وتفيض عيناها.. علها ترى مسيرة وسط ليلة مبهمة المعالم.. تابعته حتى أختفى شبحه.. وتبقى لها أن ترهف السمع واصبعها تمسد جروها الرابض جوارها بحنان.. رافعة وجهها لترى بثور نجوم على سقف الظلام.. وبين وقت وآخر ترى شهاب مسافر. فتعرف بأنه يرافق قارون وتبتسم من بين دموعها وتناجي الشهب أن تحرسه. تسمع أصواتاً متداخلة من هنا وهناك.. ظلت تتابع رحلة الليل حتى وهج الفجر.. اختلطت صلواتها بشقشقة العصافير.. وظلت في مكانها تتأمل ضوء شفيف يطل من شفاه الجبال الشرقية.. ينثال رويدا رويدا ليهبط السفوح والسهول.. يتنفس النهار لتحرك رياحه أعالي الأشجار.. تتمنى أن تتغلب على حالة الحزن تلك التي تكتنفها.. مر الوقت والخوف يحاصرها يصم آذانها.. لكنه صوت صاحبتها يشعرها بالأمان: أتمنى أن أعرف ما يجعلك على السطح وقت شروق الشمس؟

ترقبها تهتز بمرح بنت العشرين. وكأنها قادمة إلى موعد غرامي. ما أن اقتربت من بابها حتى هرعت مرتبكة لاستقبالها.. تحاول إخفاء ما يعتمل بقلبها.. لكن صاحبتها لاحظت انتفاخ عينيها ووجهها لكثرة الدموع.. أمسكت بكفها وقد قطبت بين حاجبية بقلق: هل بتِ على السطح تبكين؟. هربت بعينها بعيدا.. بينما أردفت صاحبتها: لا تهربي مني.. أنظري في عيني لأرى ما يدور في روحك؟. احتضنت وجهها تتأمل عينيها هامسة: أخمن ما تخفين.. انتفاخ عينيك يدل أن في الأمر الماً وحزناً.. لكني لا أميز على ما.. لماذا تخفين عني.. لقد

تعاهدنا يوما على الصدق.. لماذا لا تصدقيني القول؟. اخبريني وإلا سأدخل بيتك علَّي أجد ما يحزنك.

امسكتها من يدها كطفلة ودخلت بها مرددة: سأعرف ما تخفيه عني. تتحدث وهي تطوف بها من غرفة إلى أخرى.. هامسة: أميز رائحة رجل يملأ البيت. قالتها وقد أطلت على بيت الراحة.. لترى تلك الثياب المشبعة بالوحل والتراب. صرخت: أخيراً هاهي أثاره!. لم يكن لأم قارون أن تقاوم.. التقطت ملابس ابنها تضمها إلى سطرها.. تمرغ وجهها.. وقد أنهار تماسكها فجأة لتنفجر باكية.. التقفتها صاحبتها بخوف.. لتنظر إلى عينيها في باستجداء:

- عاهديني ألَّا تفشي سري لأحد.

- ومتى أفشيت يوماً سرك؟

- لا أعرف.. أقسمي فحسب.

- أقسم بالله ألا أفشي لك سراً.

للحظات نظرت في عينيها وقد ارتجفت شفتيها ثم نطقت حروف مفككة:

- كـ ان ولـ دي هنا.

- قارون ؟!

- لكنه رحل خوفاً مِنك.

- مني أنا؟!

- حرمتِني ولدي!

لم تكمل كلماتها حين هوت أرضاً مواصلة نحيبها.. لتلحقها صاحبتها تطوقها بخوف.. تشاركها عويلها.

.....

بعد تلك الهزيمة أحس مرداس باهتزاز مكانته.. لم يتوقع ذلك الانكسار لابنه.. ولا أن تنهزم البنادق أمام مناجل وفؤوس وحراب.. وما كان يشغله معرفة وراء من أوصل لهم تلك الخطة حتى يخرجوا في استقبال ابنه ورجاله! وكان يخشى أن ينتشر التمرد بين بقية الرعية.. أو يخرج من في الغابة لمهاجمة الحصن. دعا مستشاره لتدارس الأمر.. بداية باستعادة هيبة الحصن.. وكان رأي زيد الإعداد لهجوم شامل واستئصال شأفة سكان الغابة. مرداس وافقه الرأي إلا أنه فضل تأجيل الهجوم حتى يُرتب له بشكل دقيق.. وقبل ذلك يُعد لوداع أبنه جمال

موكب يدعا إليه أمناء القرى وعقالها وبعض الرعية للمشاركة فيه. بتحويل ذلك الوداع إلى تظاهرة كبيرة يسمع بها القاصي والداني.. أستحسن زيد الفكرة.

بُعثت الرسائل.. ولم يأت صباح يوم السفر حتى تجمع خلق كُثر أمام بوابة الحصن.. لتهبط الجموع رددت الجبال صدى "زواملهم".. تتقدمهم صفوف راقصة.. وتتبعهم مجاميع لا تنتهي من الرعية.. تعالت ضجيج الطبول.. لتستقبلهم زغاريد نساء قرية المنحدر بالمباخر.. يتقدمن بخفر حتى سوق الجمعة المحاذي "للطولقة". استقبلتهم صفوف الباعة بالكباش وأكياس المكسرات والفواكه تحية للشيخ. لغادرهم جمال على حصان أبيض يرافقه حراس باتجاه المشرق. تفرق بعدها الجمع.. ليتحدث الوادي عن ذلك الوداع الكبير لمن غادر إلى صنعاء.

تتابع "عيشة" الوداع الكبير لولدها وقد احتشدت نساء الحصن حولها. تعلم أن جمال لا يهمه ذلك الموكب الكبير.. وقد رجته أن يجاري والده.. بعد أن أخبرها أنه سيرفض استخدام والده سفره ليستعيد بعض هيبته. رجته قائلة: سر بينهم صامتاً.. لا ضير في إسعاد والدك.. فهو يمر في محنة. تحدثه دامعة العينين.. وهي تدرك أنه يسافر هذه المرة بعيداً عنها.

.....

أثرت تلك الهزيمة على مرداس.. مدركاً تنامي خطر من في الغابة.. وقد أمست ملاذاً لكل عاصي.. في الوقت الذي جفت معظم أشجار البن لعدم وجود من يرعاها. ناقش ومستشاره تلك المواضيع في أكثر من لقاء.. وفي آخرها بدى جبار نزقا أكثر مما مضى:

- أولا وقبل مناقشة ترتيب أي هجوم.. يجب معاقبة الخونة!

رفع الشيخ صوته ليسكته:

- تعقل ودعنا نتدبر الأمر بهدوء.

بدا مرداس وهو يرد على ولده هرماً.. وقد تكاثرت تغضنات وجهه أكثر من أي وقت مضى. رد جبار بصوت خفيض:

- كيف نتدبر الأمر وهناك خونة بيننا دون عقاب؟ لقد تأكد لي أن التواصل مستمر إلى اللحظة بين من في الغابة ورعيتنا.. وما انتصار فؤوسهم على رصاصنا إلى نتائج ذلك التواصل.. أنا على يقين أن ما نخطط له يصل إليهم.. حتى أنهم يعرفون نوعية بنادقنا وأعدادها.

حاول زيد أن يبدو ذلك المستشار الذي يعتصر ذهنه.. وقد أطرق يفرك بصمت.. وأصابعه تتلاعب بين شعر لحيته.. ناظراً باهتمام إلى وجه مرداس الكئيبة.. بينما جبار واصل تذمره: لم يتركوا لنا فرصة لاستخدام بنادقنا.. ولم ينتظروا في مكامنهم.. بل خرجوا يكمنون لنا..

وما أن وصلنا منطقة محددة حتى هبطوا علينا من العدم.. رصاصنا كانت طلقات عشوائية لم تصب غير فروع الأشجار.. بينما مناجلهم وفؤوسهم كانت أسرع. أدرك الشيخ مقدار الرعب الذي أستقر في أعماق أبنه.. رفع صوته يائساً:

- هل أكملت ما لديك.. من يسمعك وأنت تهول سيظنهم لا يقهرون.. هيا قَعْ رجال وتماسك.. أين شجاعته التي يهابها الجميع؟

هدأت نبرة صوته أكثر:

- سأقهرهم.. فقط كيف نحافظ على سرية خطة هجومنا القادم.. وما أردت قوله.. أن علينا معاقبة الخونة قبل أي خطوة.

وضع المستشار عمته على ركبته.. لتظهر صلعة لا تتناسب مع حجم وجهه.. وقد أدرك أن دوره حان لطرح ما لديه.. وبصوت رخيم بدا في أدنى درجات الخفوت:

- حقيقة الأمر نحن في محنة .. كل شيءٍ ينهار.. ولذلك أنا مع رأي الشيخ عبد الجبار.. أولاً يجب معاقبة الخونة.. لكن كيف؟ هذا ما يجب تدارسه.. حتى لا نستعدي بقية الرعية. فإن القينا القبض على بعضهم سيكون للأمر تداعياته.. ونحن في أمس الحاجة إلى كل رعوي.. وأن تركناهم دون عقاب فستستفحل خياناتهم.. ولذلك يجب أن نفكر سويا دون تسرع.

كانت تدور في ذهن الشيخ بعض الشكوك حول مستشاره.. مفضلا التريث.. ليسأله متلهفاً:

- كيف ؟

- أرى أن على عبد الجبار أن يحدد الموثوق بهم من بين العقال.. ومن ثم نشكل منهم فرقة نعتمد عليها في هجومنا القادم.. ومن تدور حولهم الشكوك نشكل منهم فرقة أخرى.

- وماذا نصنع فيمن نشك في إخلاصهم ؟.

- فرقة المشكوك بهم نزج بهم مع بداية الهجوم.. ليكونوا في مواجهة سكان الغابة.. ثم نتبعهم بمن نثق فيهم.. وبهذا يكونوا في موقع خطير.. فأن استمرأوا الخيانة لن يجدوا إلا العصاة أمامهم.. ورصاص الموثوق بهم من الرعية خلفهم.. ويدخل الشيخ عبده ورجاله آخر من يدخل الغابة .

ابتسم الشيخ.. موجها كلامه لجبار:

- هي خطة وتدبير محكم.

اعقبه زيد منتشياً:

- شريطة أن نرتب للأمر بسرية تامة.. ونحرص على الا تتسرب خطتنا. ولا تخرج عن ثلاثتنا.

نظر الشيخ باتجاه زيد وفكر أن يختبره:

- وأرى أن على مستشارنا تجهيز مجموعة من رجال الهجرة أسوة ببقية القرى للمشاركة في الهجوم...

وكمن لدغة حنش.. رفع المستشار صوته مقاطعا:

- عفوا.. الجميع يعلم بأنا هجرة لآل رسول الله ولا نقاتل أحداً.. وواجبنا تعريف الناس بشرع الله وسنة نبيه الأمين.. ولسنا حملة سلاح.. ولا طلاب سلطة.. وأنا معك مستشاراً.

رد عليه الشيخ ساخراً:

- أتنتظرهم حتى يصلوا باب بيتك؟!.

فرد محتد:

- عند ذلك لكل حادث حديث.

- اليس بيتي هو بيتك.. وعرضي هو عرضك.

- نعم.. لكن لكل منا عمله.. فلا نريق دماء.. ولا نميل للقتال.. نحن أهل علم.. وهجرة الجميع لك ولغيرك.

- هجرة الجميع ؟! هل تعني بأنكم في صف من غلب.

- مع من يطبق شرع الله وسنة المصطفى ...

نهض الشيخ غاضبا وترك جبار ومستشاره.. خيم الصمت.. وظل زيد في حيرة لموقف مرداس المفاجئ.. يفكر في أن الفرصة قد سنحت ليُعلم الشيخ من يكون.. وقرر استغلال الموقف.. نهض كاسراً للصمت موجهاً كلماته لجبار: قل للشيخ يا عبدالجبار.. البادئ أظلم!.

.....

يُدهش جمال لمرأى أرتال عربات عسكرية "عربية" تملأ الشارع القادم من الحديدة.. ميدان "شرارة" الذي أصبح ميدان التحرير هو الآخر تملأه الجموع العسكرية.. باب اليمن يتجمع أمامه قبائل معلنة انضمامها لصفوف الثورة.. يفضل أن يهرب إلى سكينة صنعاء العتيقة.. تلك الشبيهة بأمه.. يسير في أزقتها يحيطه جلال دور سامقة.. يدخل أسواقها المتشعبة بروائح

وألوان المعروض في حوانيتها.. يحدث نفسه: عمَّ أبحث؟!. هل أبحث عن نفسي؟. لكنه يسير كثيرا ولا يجدها.

مع شروق الشمس خرج باتجاه الشارع القادم من تعز يرى عربات تجوب الشوارع مثقلة بهتافات مؤيدة للثورة.. كل الشوارع عربات وهتافات وبنادق.. لا يميل للعسكرية ولا يحب فهمها.. رغم ذلك الحقه عسكر الجمهورية بهم.. ومنذ أُلحق قبل عدة أشهر وهو مكلف ضمن فرق اسعاف المصابين ودفن القتلى.. ورغم محاولته فهم عقول العسكر إلا أنه عجز.. ولذلك يظن بأن رؤوسهم دون عقل.. فدوما يضعوا الأشياء في غير أماكنها.. وهاهم يقررون إرساله إلى مصر ليدرس العسكرية.. قال لهم: لا أحب رؤية السلاح فكيف أحمله وتريدوني أن أتدرب للقتال به. فقالوا له حين يتزوج المرء عادة يأتي الحب لاحقاً.

يحن إلى صنعاء تلك التي قضاها "رهينة" قبل ثورة العسكر.. متنقلاً بين قصور سيوف الاسلام.. مرافقاً "للشرايف" في خروجهن ودخولهن.. يعطفن عليه لصغر سنة.. وقلة يتحلين له. وحين بدأ شاربه بالاخضرار.. نُقل من مرافقة الشرايف إلى خدمة سيوف الإسلام.. يتذكر كم كانت الحياة ممتعة.. وفجأة أنقلبت حياته رأسا على عقب.. ففي اليوم الذي كان بداخل المدرسة سمع دوي.. وصخب هائل.. قيل أن العسكر حاصروا قصر الإمام.. والقصور الأخرى للسيوف.. وإن قتال يدور في الشوارع. ليسيطر العسكر خلال أيام على قصور الإمام وأبنائه السيوف وتشردت الشرايف والخصيان.. وتم ضم الطلبة وبينهم جمال إلى صفوف العسكر الثائرة.. وأختلط الحابل بالنابل.. وبدخول المشايخ وقبائلهم تحولت صنعاء إلى قرية كبيرة.. يتكاثر المتسلطون.

واليوم يعود إلى صنعاء ليودعها بعد أيام.. وقد نمى أحساس تجاهها.. كما يحس تجاه أمه تجاهه وهي تودعه.. متنقلا في ضيافة أصدقاء عرفهم منذ كان رهينة.. يودع مُتع صنعاء بقضاء ساعات الليل في مضغ القات.. وكان عزاؤه لمفارقة صنعاء ما يسمعه عن تمدن مصر وما بها من حرية ورقي.

وأتى يوم الرحيل وقد حلقت به طائرة عسكرية مصرية وقلة من طلاب في عمره.. ليروا أسطح صنعاء وقد سورتها جبال سوداء.. لساعات طويلة فوق البحر حتى هبطوا بهم في مطار يعج بالعسكر.. ثم على عربة عسكرية إلى القاهرة التي بدت له أكبر مما كان يصفوا له.. بهرته شوارعها الفسيحة وميادينها الواسعة وحدائق مترامية الخضرة ومبانيها الضخمة. عربات بألوان وأشكال مختلفة.. نساء حور عين.. وغلمان مخلدون يسيرون على الأرض. وما أدهشه ذلك التعامل اللطيف ممن يصادفهم.

لم يكن جمال يعلم ما ستكون دراسته.. ولم يأخذوا رأيه فيما يُريده.. فقط أخبروه بأنهم اختاروا له الدراسة العسكرية. وكان الأمل لا يزال يراوده أن يتركوه يدرس ما يريد.

.....

وصل أول رسول برد على إحدى رسائل شنهاص.. يقود مجموعة دواب تحمل عشر بنادق"شيكي" وصفيحة رصاص وخمسة أكياس ذرة.. وقد بارك المرسل في جوابه نجاة الشيخ شنهاص.. وعزيا له وفاة أولاده وبني عمومته.. واعداً له بالمزيد. تلا ذلك بأيام رسول ثانٍ ومجموعة بنادق "قرنوف" وشوال رصاص.. وعدداً من أكياس الذرة.. وهكذا توالت الردود بين داعم بالبنادق والرصاص ومخيب للآمال. لكن من بين تلك الصناديق.. كان صندوق وحيد صندوق يحتوي على خمسين أصبع "ديناميت". وكانت تلك الأصابع أفضل ما وصل سكان الغابة. أستبشر شنهاص خيرا.. متجاوزا بعض العبارات الواردة في بعض الرسائل يخاطبونه فيها كتابعٍ لهم.

ليتحول من في الغابة إلى معسكر ضخم ضاج بأنشطة التدريب على استخدام تلك الأسلحة. وأنهمك مجموعات بما فيهم النساء للتدريب. وأزداد نشاط عرام ومجموعته في جمع المعلومات حول ما يدور في الوادي وما يعده الحصن لهم. كما عبر قارون ومجموعته تلك الجبال الوعرة حاملاً رسائل لمشايخ آخرين لمزيد من العون.

لم تمض أيام حتى جمع عرَّام ومجموعته أخباراً مؤكدة عن استعدادات جديدة لهجوم كبير يرتب له الحصن. ما دفع شنهاص إلى شحذ همم الجميع لمزيد التدريب واليقظة.

في الوقت الذي وضعت خطة جديدة للبدء بخروج مجموعات لمهاجمة الحصن والمتعاونين معه.. تطبيقا لقاعدة "خير وسيلة للدفاع الهجوم".

.....

قالت شادن تنادم زهرة:

- ما أحلم به منذ عرفت بأن والدي حي يرزق أن أفر لألتقي به.

تأملتها زهرة وقد أتسعت عينيها وتوردت وجنتيها:

- هذا ما كنت أخشاه.

- أتخشين عليَّ من الانعتاق يا زهرة؟

- أخشى أن تتركيني.

- ألا تودين أن تفري معي؟

- إلى أين؟

- حيث الدنيا واسعة.

- بل قولي إلى الضياع!

- أنت لا تعرفين إلا حياة الحصن.. ولو عشتِ حياة أخرى.. لأدركت أنه الجحيم.. هناك حيوات أجمل وأكثر سعادة.. لو ذُقتِ إحداها لحلمت بالفرار.

- كلامك محير.

- جربي أن تحلمي.. وقد تلتقي بذلك الفتى إن كان على قيد الحياة.

- قلتِ بأن حكايته يعرفها الجميع.. فهل تعرفينه.

- لا أعرفه.. لكني اعرف أسمه. وما سمعته من حكاياته.

- هيا اخبريني.

- أسمه قارون...

- قارون.. أسم جميل. وباقي الحكاية.

- هي حكاية مؤلمة.

- أحكها لي.

- ليس الآن!

- لكن التفكير فيه يشغلني.

- الا تعلمين بأنك ايقظتِ المرأة بداخلي.

- كيف؟

- بتخيلي أحاسيسك البكر تجاه فتى لا تعرفينه!.

- يعجبني التفكير به.

- إذاً ستفرين معي متى وجدنا الوسيلة. وهناك ستلتقيه.

.....

لم يدم هدوء الوادي بعد هزيمة جبار.. فقد سُمع دوياً هائلاً قبيل فجر أحد الأيام.. لم يعرف الناس مثيلة من قبل.. وشوهدت السنة اللهب من قرى بعيدة.. ليتساءل الناس عن ماهيته؟

ويتحدثون أن ذلك الانفجار قد حول ضريح جد الشيخ إلى ركام.. ذلك الضريح الذي كان يشمخ ببياضه مجاورا لمسجد الحصن.

عم الخوف وانتشرت الشائعات أن ساكن الضريح قد غضب لكثر المعاصي.. وشائعات أخرى تفيد بأن زيد الفاطمي من دعا على مرداس وجده بعد خلاف نشب بينهما.. فاستجاب الله لدعائه.

تلا نسف الضريح اشعال النار في مساحات واسعة من أشجار البن التي أصابها الجفاف.. وليلة بعد أخرى تتزايد الهجمات. وتتنوع بين حرق للمحاصيل والأشجار.. وبين ملاحقة المتعاونين من الرعية مع الحصن.. إلى نبش مدافن الحبوب المنحوتة في باطن الصخر.. وذلك ما هدد الحصن أن يصل الأمر إلى إحراق مخزونه من الحبوب.

لكن ما قضى على ما تبقى من هيبة الحصن.. أن نجحت مجموعة من الفارين بالوصول ليلاً إلى ساحة الحصن الداخلية وإشعال النار في مخازن البن بداخل الحصن.. وعلى مدى ساعات الليل انتشرت رائحه البن الزكية لتفرقها الريح في كل اتجاه. في تلك الليلة دارت مواجهات بين الحراس والمتسللين.. لينجحوا بالفرار بعد أن خلفوا قتيلين.

في البداية أحتار من في الحصن حول كيفية وصول العصاة إلى ساحة الحصن.. ومع شروق الشمس كان جبار قد وقف بنفسه على جلد عددٍ من الحراس.. ليعترف أحدهم أن بينهم من تواطأ مع المهاجمين.. وفتح لهم باب الحصن.. جن جنون جبار.. وتناول "الشميزر" وقام لتوه بإطلاق الرصاص على من بين يديه من الحراس مكبلين.

.....

لم يعد من حديث بين شادن وزهرة غير حديث الفرار.. ودوما تدعوا زهرة أن تتعلم كيف تحلم بالحرية.. فتغمض عينيه متخيلة وقد خرجت من بوابة الحصن.. أن تجد قارون وقد خذلها لسانها.. تحاول النظر في عينيها.. تخجل ناظريها إلى وجهه. يمسك بيدها يوشوشها بكلمات.. يشعرها أنها لم تعد هيَّ. تفتح عينيها جذلانة سائلة شادن:

- متى سنفر؟

- أراك متحمسة.

- الم تطلبي مني أن أحلم.

.....

أمسى ليل الوادي يسيطر عليه الفارون.. وانحسرت سلطة الحصن إلى حدود بوابته.. فلا ينازعهم في ليله منازع.. يجولون في ظلامه.. يلتقون بمناصريهم.. يسهرون ويمضغون القات سويا.. يزورون مزارعهم المقفرة ومنازلهم المهجورة. وقبل بزوغ الشمس يعودون ليختفوا بين أشجار الغابة.. لتعود سلطة الحصن نهاراً.. وهكذا تتعاقب على الوادي سلطتين بين الليل والنهار. نشط رجال جبار في ملاحقة من يدور حوله الهمس بتعاونه مع الفارين.. ليمتلئ حبس الحصن من جديد بالرعية.. وأضحت مواقيت صلاة الجمعة مناسبة لتنفيذ طقوس التعذيب بهم. يحكم وثاق المغضوب بهم إلى أعمدة الساحة ليَجلدوا ويعذبوا. كانت قسوة جبار تزداد يوماً بعد يوم.. وقد لقُب بالـ "سِمع" تشبيهاً بذكر الضبع. ما كان يثير غضب مرداس الذي يرى فيه خليفته.. وهو من يشجعه على الحزم.. لكنه هذه المرة يطلب منه التخفيف.. فيرد عليه:

- ألست من علمتنا أن "الرعوي مثل الجُبا اذا لم يُداس بالنعال وطل فوق روسنا". الا تريد أن أعيد للحصن مهابته؟.

- أريد ذلك.. لكن عليك قبل أن تخطو خطوة أن تفكر أين تضع قدمك.

- هذا كلام جديد يشابه نصائح أمي!.

- ثم الا تهدأ بعض الوقت.. لنختار لك زوجة؟

- لن أهدأ حتى أستعيد الفارين أو القضاء عليهم.

- كيف سنستعيدهم بدون زيد الذي لم يعد كما كان؟

- مستشارك لم يعد أميناً!

- لم أتأكد بعد.

يجالس نافذته المطلة على الوادي.. متأملاً في حسرة ما أصاب المزارع من جفاف. وعبث النار بأشجارها.. يتمدد الوادي شبيه بسفينة خرافية.. وقد نهضت جداران الجبال السامقة كجنبات عملاقة.. وشرختها روافد عميقةٍ مكونة شعاب وغويبات كثيفة. وانحدرت سفوحها حتى تماهت مع سهول الوادي.. يرى حدود سلطانه يمتد غرباً إلى أطراف الجبال المغيمة.. وتلك القُرى المتلألئة تحت الشمس على السهول والسفوح والقمم.. باحثا في تلابيب عقله عن مخرج لإعادة اخضرارها. يفكر في مصالحة زيد.. وإن راودته شكوك حول نواياه .. لكنه من يحرك أمناء مساجد القرى من الفواطم.. من يعظون الرعية.. ولذلك قرر إظهار بعض الليونة حتى ينجلي الأمر وبعدها يرى ما يصنع به.

فضل أن يدعو زيداً دون جبار.. بدأ بلومه على انقطاعه عنه.. لكنه أستمر متجهما وصامتاً.. أردف مخففاً من لومه إلى عتابه: نحن يارجل أهل.. وما يجري بيننا لا يؤدي إلى القطيعة.. ثم أيرضيك حال الوادي؟.

رد عليه بجفاء لم يألفه وكأنهم أقران:

- الأنانية والابتعاد عن الـ "آل" أوصل الوادي إلى ماهو عليه!

رد عليه بسؤال محاولاً أظاهر نوع من المودة:

- أرى لهجتك جافة.. أيعقل أن تكون قد أخذت على نفسك مني؟

لتتحول نبرته إلى الهدوء:

- وأنَّ نجد في تطويع الرعية.. فلا تقدر جهودنا.. ولا يهمك إلا مزيد سلطانك.. بينما نحن لا نجني سوى الفتات.. ومع ذلك ظللنا نعمل بصمت.. لتأتي في آخر الأمر وتريد أن تقاتل بنا.

صمت الفاطمي يرمق مرداس.. بينما مرداس يتفرس وجهه على مضض.. ليراه.. وقد أعتمر عمامة أكبر من أن تناسب حجم وجهه الصغير. رد:

- منحتكم الخُمس من حر مالي.. علاوة على أطيان الأوقاف وما تجنيه أنت وباقي أمناء المساجد من نذر وعطايا الرعية!

اتسعت عينا زيد.. مطمئناً إلى انكسار صوت مرداس.. ليضيق بنفس الهدوء:

- تعلمون أن ليس لأحد فضل فيما هو لنا.. فالأمر لله ورسوله في الخمس.. وما هو أوقاف يذهب لبيوت الله.. فنحن خدام دينه والقيمين على شعائره.. نبصركم ورعيتكم دينه وما يجب اتباعه.. وما نطالبكم به ما هو واجب لنا عليكم.. واليوم ترون ظروف الوادي.. وما يعيشه من اضطراب.. وتعلمون أننا نبذل جهداً لإقناع الأب بقتال ابنه والأخ أخاه. لما يخضع الجميع لسلطانكم.

صمت قليلاً كمن يقلب أمراً قبل أن يتفوه به.. ثم استطرد: وأطرح عليكم رأي.. أن تنذروا مساحات من مزارعكم الواسعة.. يكون ريعها للأل.. وأيضا مساحات أخرى تخصص لمن يتلوا القرآن الكريم على أرواح أجدادكم.

كان زيد يتحدث وقد رفع عينيه إلى وجه مرداس ليسبر ردة فعله.. وحين تأكد من خنوعه.. أردف: تعلمون أن من يتسللون من الشعاب هم أبناء واخوة الرعية.. وأن مهمة إقناعهم بقتال أقاربهم صعبة.. وأننا نبذل جهوداً كبيرة لتعريفهم بأوامر الله ونواهي رسوله فيمن يعيثون في الأرض فسادا.. وما يجب عليهم القيام به لمواجهة العصاة مرضاةً لله.

تبسم الشيخ بغيظ.. ثم التفت إليه هازاً رأسه.. مدركا أن زيد يملي اليوم عليه لمعرفته بأنه محتاج له.. ولذلك قال مستسلماً:

- للآل ما أشرت به علينا.

انفرجت أسارير زيد وتغيرت نبرة صوته:

- لا بأس.. ولكم الطاعة دوماً.

صمتا يحسب كل منهم ما جناة.. ليظهر كل منهم للآخر غبطةً وبشاشةً. وأستعاد زيد المستشار الحريص على إبداء النصح والحكمة:

- سأُبشر أمناء المساجد بما تفضلتم به.. وأحثهم على تكريس ما بين الصلوات لهداية ما يصلح الناس.

- إذا يتم سرعة تهيئة الرعية للهجوم الكبير حسب المتفق عليه سابقاً.

- سنعمل على دفع الرعية.. فقط أقترح عليكم قبل ذلك.. أن تأمر جبار الكف عن ملاحقة الرعية.. وأن تطلقوا سراح جميع من في الحبس.. وأن تتحدث إليهم وقبل التوجه إلى قراهم حديث الأب لأبنائه .. لتشد من أزرهم.. وتحثهم الاستعداد لمواجهة العصاة. وتعلمون بأن الهجوم بحاجة إلى توحيد الصفوف.. وندعو الله السداد لنقتلع شأفة المارقين.

- هذا ما سيكون. وسنتدارس في لقاء قادم تحديد يوم الهجوم.

.....

يحاول قارون منذ عودته الانشغال بما يكلف به وقد تتالت الردود على رسائل شنهاص بمزيد من البنادق والرصاص. لترتفع مكانة قارون لدى الأخ الكبير.. الذي يسمعه كلمات مشجعه وأهمية ما يقوم به.. ويحثه عن التحلي بالخُلق الكريم.. والاقتداء بالرسول الأعظم في حياته.. إلا أن ما كان يضايقه أن يتحدث عن عرَّام بألم: صاحبك ليس في خلقك ياقارون فتجنبه!. صاحبك ماجن يغوي الخوادم بمشاركتهن الاغتسال في الشلال سوياً.. ويمارس معهن الفسوق.

يحاول تهدئة غضبه.. تلك تصرفات شائنة إن بدرت منه.. وإن كانت تصرفات تخصه.... يحتد شنهاص: نحن يا قارون أحوج إلى التقرب إلى الله بصالح أعمالنا.. نحن في محنة ونرجوه العون.. كيف تقول شخصية؟. فكر قارون أن يسأله عمَّ يكلف به.. لكنه أختار الصمت.. ليواصل شنهاص: صاحبك يبث سموم كلامه.. ودوما يتهمني بكلام غير لائق.

غادره في حيرة من أمره.. يشتاق لعرَّام لا يريد إغضاب شنهاص. وقد تأكد له أن ما يدور بينهما أمر خطير.. وإنها ليست سحابة صيف كما كان يتمناها. وهو يلاحظ الشرخ يتسع. وما زاد من ذلك أن دعا شنهاص الجميع إلى مساعدته على تشييد مسجد أسماه مسجد "الصلاح". كان يعرف قارون أن دعوته لبناء مسجد تأتي ضمن حربه لعرام ومحاولة استقطاب سكان الغابة إلى صفه. سريعا ما تجاوب الجميع لدعوته. وسارعت مجموعة بتسوية الأرض.. وأخرى تكفلت بتوفير ما يكفي من سيقان الأشجار القوية. وثالثة بحفر الأساسات.. ليظهر بعد أيام مسجد جدرانه من الأحجار وجذوع الشجر وفروعها.. وفي أول جمعة وقف شنهاص خطيباً بعد أن أزدحم المكان بالنساء والرجال.. داعيا الجميع إلى أداء الصلوات الخمس جماعة . شارحاً فضائلها.. كما دعى الجميع إلى دروس حفظ القرآن الكريم التي سيعقدها بين الصلوات.

ظن قارون بأن صاحبه سيستسلم. لكنه فاجأه بتشييد كوخٍ على الحافة الأخرى لمجرى الشلال.. معلناً للجميع بأن ذلك الكوخ مفتوح أبوابه لمن يرغب بمضغ القات والسهر معاً. ليروج مؤيدو شنهاص بأن مرتدي ذلك الكوخ قاطعي صلاة.. ويمارسون الرذائل. وكانوا يهدفوا من ذلك الحد من أعداد من يذهبون إلى ذلك الكوخ.. لتأتي أقولهم بعكس ما توقعوا.. إذ ظهر كوخ يجاور كوخ عرام.. ثم ثان وثالث.. لتتجاوز العشرين كوخاً بعد أيام عدة. وأمسى سكان الغابة منقسمين.. وقد أنشغل كل فريق بترصد الآخر. كانت الخالة ناصية تتابع ما يدور منذ البداية. ورأت أن توجه الدعوة للجميع. وقد اختارت مكان آخر للقاء. وقفت تتكئ على عصاتها وقد غابت ابتسامتها التي لم تفارقها قط.. خرج صوتها نائحاً: تصلكم أخبار ما يدور في الوادي.. فتسمعون ما يفتون به أمناء مساجد القرى بشأنكم.. وتسمعون ما ينصبه عقال القرى من أعمدة أمام مساجد قراهم. وكأن أعمدة ساحة الحصن لا تفي بالغرض.. وتسمعون تحريض الرعية على ملاحقتكم.. فما تستنتجون من ذلك؟ الفواطم والعقال لا يفعلون ذلك إلا بأمر الحصن.. الذي يسعى للقضاء عليكم. وهذا ليس الخطر الذي أعنيه.. وما جمعتكم اليوم بشائنه.. هو خطر يسكن في قلوبكم.. فقبل أيام أسقطتم هيبة الحصن بأعمالكم.. وكسبتم الرعية إلى صفكم.. واليوم أراكم تنفذوا ما لم يستطع الحصن تنفيذه.. وهذا هو الخطر الذي جمعتكم من أجله. فمن المعيب أن يحتدم الصراع بينكم.. وتساعدوا الحصن في تحقيق أهدافه.. وأنا أقول لكم أن الاختلاف رحمة.. فإذا أحترم كل فرد خيارات من حوله سيرتاح ويريح.. ويعرف أن الأهم الَّا نُخَوِن أو نسفه بعضنا البعض لمجرد اختلافنا معه. أنا أمكم جميعاً ولا أنتصر لأحد دون آخر.. بل أدعوكم لمحبة بعضكم.. وإلى التسامي والأخوة.. فهل تعون خطر ما تصنعون.

أدرك شنهاص أن حديث ناصية موجهاً له.. وأن تشدده سيجعله منبوذاً من الجميع بعد صوت ناصية.. مفضلاً المهادنة وإبداء اللين.. وهو الاحوج إلى كل ساعد من سواعد الرجال والنساء.. حتى لو كان بينهم فاسق وكافر.. نهض متحدثاً: دعوة كريمة من خالة كريمة

وحكيمة.. وأؤيد كل كلمة نطقتها.. وبدوري أدعو لمن يقصر في شعائر الله بالهداية.. والله هو من يثيب ويمنع وله جنة ونار.. فكلنا أخوة وعلينا بالتعاون وشحذ الهمم في مواجهة رجال الحصن. أنهى كلمته القصيرة وتقدم محاضننا عرَّام. ليرتفع التصفيق من البعض والتهليل من آخرين. وبمرونته تلك أستطاع أن يحافظ على وحدة الجميع.. وأن يظل الأخ الكبير للجميع.

كان عرَّام قد أخذ على خاطره من صاحبه قارون الذي يتجنب الجلوس إليه منذ حين.. وفي أول لقاء أخبره بما لا يعرفه: شيخك يا قارون كان قد كلف غيري ليقود الهجمات على الحصن.. رغم معرفتك بنجاح الهجمات التي زعزعت مكانة الحصن وأسقطت هيبته كانت بقيادتي. فمن تراه مخطئ؟ شيخك يريدنا قطيع في زريبته.. لا نخطو خطوة إلا بعد الاستئذان منه.. يعلمنا كيف نأكل وكيف ندخل بيت الراحة.. وماذا علينا فعله.. وماذا علينا تركه.

وكما رأيته حين أدرك بأنه سيصبح وحيدا كيف غير من توجهه.. ومحاولته الظهور بمظهر الرجل الحريص على الجميع.. بينما غايته هي استخدامنا لاسترجاع غرب الوادي.. ليعود شيخاً على الرعية. شيخك يا قارون لا يختلف عن أي شيخ من أولئك المشايخ الذين تصادفهم وأنت تحمل الرسائل إليهم.. يخفي تسلطه وطغيانه لأنه اليوم بحاجتنا.. وإن ما يتلبس من مسوح الورع والتقى إلا لإيهام الجميع بالحرص على الفضائل.

فوجئ قارون بما يحمله عرَّام.. وهو الذي ظن محاضنتهم بعد دعوة الخالة ناصية قد أنهت الخصام.. تلعثم قارون ولم يستطع الرد على عرام.. ليضيف: إن أردت اليقين دع كلامي وراقب أقواله وأفعاله. وستكتشفه بنفسك.. لا يغرك تمظهره. يا صاحبي أقوم بما علي القيام به وقد حدثتك بتفاصيل تلك العمليات.. وحين أعود أظل أستعد لما أكلف به.. أراه حر فيما يخصه.. لكنه ليس حر حين يراني فاسد الأخلاق ناشر للمجون.

.....

تحدث الشيخ بكلام لم يألفه الرعية في السابق: حضرت اليوم لأودعكم وأعتذر لكم من تصرفات ابني عبد الجبار.. فأنتم أبنائي.. وهذا الوادي واديكم.. وعلينا أن نحميه من العصاة المفسدين. كلكم تعلمون أن من يحركهم ويدعمهم من خارج الوادي.. وتعرفون بأطماعهم جادين في زعزعة استقراره.. ولذلك يمدونهم بالسلاح وبالرجال. وتعلمون بأنَّا لا نريد قتال أحد. واثباتاً لنوايانا الأخوية ندعو أبناء وادينا جميعا بالعودة.. وأشهد الله ورسوله أمامكم بأني أعفوا عنهم جميعاً أن عادوا.. وأنذر كل من يرفض.. فسنعلنها حرب عليهم وعلى من يسيرونهم سنحمي وادينا.. وأكرر دعوتي لكم بالتلاحم والتأخي لقتال المرتهنين لإرادة الخارج.. قال عز من قائل: "أن الله لا يحب المفسدين"...

هلل الجميع.. لينحدروا عائدين إلى قراهم.. تردد جبال الوادي صدى زوملتهم:

"لبيك ياشيخ البلاد.. سلطان قاهر كل باغي.. لك الوفاء بين العباد.. ياصقر جارح للأعادي... ".

تنفس الشيخ الصُعداء وقد عاد الأمل يداعبه بعودة الأمور إلى نصابها.. فهاهي أخبار نشاط العقال يعدون العدة لتجييش الرعية.. وقد خطب أمناء المساجد فيهم.. مستشهدين: أن من يحارب الله ورسوله وأولى الأمر ليس منا حتى لو كانوا من أولادنا أو إخواننا. وقد أمرنا عز وجل القائل في محكم كتابه "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا في الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم". والعديد من أوامر الله في كتابه العزيز وما تحدث به الرسول تحثنا على محاربة المارقين والعصاة.. ومن يعيثون في الأرض فسادا. مرددين: أن الخارج عن طاعة الله ورسوله وولي الأمر عدو لله وجب قتله. واصفين من يتواصلون بهم بالمنافقين أشباه يهود خيبر.

ولم يطل الوقت حين حدد مرداس يوم الهجوم الكبير على من في الغابة.. فتم دعوة الرعية ليتجمع خلق جديد أمام الغابة يستعدون لاقتحامها.

.....

سمعت شادن ذات مساء هسيس حركة.. كان الليل قد أنتصف وعمت السكينة.. ظنته فأراً.. أو قط يبحث عن وليفته.. لكن ذلك الهسيس تكرر في ليال أخرى.. ترصدت لمعرفة مصدر تلك الأصوات.. لتعرف أن تلك لأقدام حارسان يصعدان خلسة الدور العلوي ويهبطان خلسة مع قرب الفجر. وما عقد لسانها أن تكتشف سر صعودهما الدور العلوي. بل وتعرفت إلى ملامح أحدهم.. ودون أن تخبر زهرة باكتشافها.. فكرت أن تقنع زهرة بمحاولتها إغواء ذلك الحارس.. دربتها على حركات واشارات الغزل والإثارة.. لتترصده من إحدى النوافذ المطلة على الساحة. فاجأها بتجاوبه لإشارتها.. اضطربت وفرت لترتمي في أحضان شادن مرتجفة.. تخبرها بأنه رد عليها بحركات تماثل حركاتها.. وأنها لا تدري ما عليها فعله. قالت لها ضاحكة:

- بادليه..

صرخت :

- أبادله ماذا؟!

- الم أعلمك.. كيف تستدرجينه.. أن يأتي في المساء.. ليلتقيك في الزريبة؟

ثم احتضنتها تهدئ من روعها.. مشجعة: لا تخافيه وواعديه الليلة.

نهضت زهرة صامتة. بينما كانت تتأمل قوامها المخروطي فلم تجد فيه ما يغري.. وكأنه جسد صبي يافع.. إلا من بروز ضئيل في صدرها.. قهقهت متسائلة:

- ما كنت أتوقعه يتحقق على يديك.

.....

في صباحٍ شتوي امتلأت السهول المواجه للغابة بجموع الرعية.. خلفهم ربوة وقف مرداس يراقب الجميع وإلى جواره مستشاره زيد. وحسب الخطة أشار مرداس ببدء الهجوم.. ليتوغل القسم الأول من الرعية بين الأشجار.. يمر وقت طويل ولم يُسمع أصوات الرصاص.. أعطى الشيخ الإشارة لبقية الرعية.. مر وقت آخر ولم يُسمع أي صوت.. كان الأمر محيراً.. فلم يعد منهم أحد لينقل ما يدور.. اقتربت الظهيرة ليلحق جبار ورجاله حسب الخطة.. مضمرا حصد أرواح من يرتدوا أو يخونوا من الخلف ببندقة الـ "الكلاشنكوف" التي أشترى مرداس عدد منها خصيصا لهذه المعركة الحاسمة.

صعدت نساء القرى المحيطة على أسطح المنازل يتابعن ما يدور.. كما ترى حركة متواصلة على أسطح الحصن رغم بعده. شبرقة لم تبرح حجرتها راكعة على سجادتها.. وفاطم من نافذتها.. وعيشة وبقية النساء من خدم الدور على الأسطح.

وقد ضمت شادن أمها إلى صدرها تنتحبان بينما زهرة تبكي وقد جثت جوارهما.. لم يكن ذلك اللقاء إلى نتاج لحظة مغامرة من عيشة وقد رأت أن تكافئ أم عيشة لقيامها على مدى سنوات بتعليم ابنها جمال الذي سافر قبل أسابيع قليلة. بعد أن ظلت تفكر في مكافأتها.. وقد أحتارت في نوعيتها وإن تمنت لو أنها تستطيع منحها حريتها. تقف دامعة ترقب بحزن ذلك الموقف المحزن.. وقد وقفت بقية الخادمات دامعات.

لم يكن لأحد معرفة ما يدور بين شعاب الغابة من الصباح.. حتى الظهيرة من يبشر بأن الرعية تقدم حتى وصلوا أعماق الغابة دون أي مقاومة.. ظل الأمر غريباً. وفجأة يرتفع دوي الرصاص وتتصاعد أعمدة دخان لأشجار تحترق .. كان الوقت يمر والجميع خارج ينتظرن تفسير لما يدور. لتطل الفاجعة دفعة واحدة.. أن تفاصيل الخطة قد تسربت رغم سريتها.. وبدأت تفاصيل مروعة تصل مسامع مرداس مع سيل من المصابين.. ليعرف أن القسم الأول من الرعية ما أن وصل تعمقوا في الغابة حتى انشطروا يميناً وشمالاً عن مجرى الشلال.. وكأنهم افسحوا لمن يليهم.. ومع دخول القسم الثاني والأخير من الرعية لم يجدوا أي عائق في تقدمهم فضلوا حتى وصلوا أعامق الغابة.. ليجدوا أنفسهم مكشوفين تحصدهم رصاص لا يعرفون مصدرها. وصلت جبار أخبار ما يدور.. في البداية يظن أن القسم الأول قضي عليه.. لكنه سريعا ما أكتشف اللعبة ليأمر رجاله بعدم التقدم وملاحقة الخونة من فروا يميناً وشمالاً. ليتوزع القتال في محورين.. جبار ورجاله يلاحقون الخونة.. ورعية الدفعة الثانية

يقاتلون منفردين العصاة المتخفين بفروع وجذوع الأشجار. وكانت الطامة أن أصيب جبار برصاصة أسفل بطنه.. انتشر الخبر بين الرعية لتنهار صفوفهم ويتشتت كثير منه وسط الغابة مخلفين قتلى كُثر. حُمل جبار على أكتاف رجاله خارج الغابة.. مُدد أمام والده.. الذي ركع متفحصاً موطن الرصاص.. أدرك بأن أبنه نجا من الموت بأعجوبة.. لكنه سيعيش بقية حياته طريح الفراش لا يقوى على تحريك نصفه السفلي.. ولن يعيش حياته بكرامة.. قرأ جبار نظرات والده.. كان لحظتها جبار يقرأ نظرات والده.. ممسكاً بفوهة بندق.. يستجديه بنظراته الخلاص.. أومأ له ليقرر الاستجابة لنظراته.. أغمض عينيه لحظتها وترك أصبعه تسحب زناد بندقه.. دوت رصاصات مزقت صدره. وسريعا ما انتشر خبر مقتل عبدالجبار على يد والده.

لحظتها سكن مرداس خوف تلك السهول وقد تجمع من تبقى من الرعية حوله.. ليشير عليهم ما يجب عليهم فعله. ثم وقف يتابع أبنه محمولاً على أكتاف رجاله الماضون به نحو الحصن. لحظتها أقسم مرداس أنه لن يبرح المكان حتى يأخذ بثأره.

.....

تصعد أم قارون سطح بيتها بُعيْد مغيب كل نهار.. تصيخ السمع كأنها على موعد معه.. وقبل أن تغفوا تأتيها كلماته "دعي الباب مفتوحاً حتى لا أزعجك إذا ما عدت متسللاً". تنهض وتترك الباب موارب. تطربها صدى رنة صوته.. ضحكته التي تعاودها منذ غادرها.

تستيقظ لصوت صاحبتها مع شروق الشمس:

- صباح المحبة يا أم قارون.

ترد عليها الصباح هابطة تستقبلها.. تخبرها في عجالة: جبار ابن الشيخ قُتل!

- لاحول ولا قوة إلا بالله.

- الناس تتحدث منذ أمس البارحة أن الشيخ قتله.

لم تصدق.. تردد:

- الشيخ يقتل ولده؟!.

- أقتص رب العباد لك ولغيرك!

- أستغفر الله.. قلبي على أمه... لم تكمل وقد صعدت غصة غيرت صوتها.. ما لبثت أن تحولت إلى بكاء متصل وقد غطت وجهها بغطاء رأسه تهتز وهي تردد كلمات متداخلة.. لا تدري أتبكي شبرقة أم تبكي نفسي.

.....

عرى الشتاء ما تبقى من أشجار البن والقات وأمست تلك المساحات جافه.. كما هي أشجار الجبال.. ذلك ما ظل يلاحظه زيد وهو مقيم إلى جوار الشيخ أمام الغابة. الذي ظل عناده بالبقاء حتى يأخذ بثأر ابنه رغم تناقص أعداد الرعية من حولهم بعد الهزيمة. يحاول زيد إقناعه بالعودة إلى الحصن. يشعر مع تكرار محاولته بأنه يحرث في صحراء.. ينبهه: أتنتظر حتى يخرجون ببنادقهم علينا؟. فلا يلقى إلا الصمت.. ما جعل زيد يبحث عن وسيلة للانتقام. ومع خروجه من المخيم كل صباح يلاحظ أن من يفلح الأرض جلهن من النساء.. وقليلاً من الرجال. في تلك اللحظة سأل نفسة: لماذا لا نستعين بهن في حربنا ضد العصاة وهن كثر؟ كانت الفكرة تعتمل في ذهنه حين طرحها على الشيخ:

- لماذا لا تقاتل النساء من في الغابة؟

رد عليه مستغرباً:

- النساء يحاربن؟! هن لا يُجِدن سوى الاحتطاب.

- ألا ترى أن المعركة الأخيرة قد أهلكت نصف رجالنا.. ولم يعد لنا من حيلة.

- أجننت! ماذا ستقول عنا القبائل؟

- وماذا قالت القبائل ونساء العصاة يحربن معهم؟

- لم أسمع بذلك.

- أتريد الانتقام أم كلام القبائل؟

- الانتقام!

صمت زيد .. ثم سار خطوات إلى جوار الشيخ خارج المخيم يجيل النظر في أنحائه.. ثم عادت صدى كلمات الشيخ "النساء.. لا يُجِدن إلا الاحتطاب" لحظتها لمعت في رأسه فكرة ليسأله:

- ألا ترى الأشجار وقد جفت؟!

- وما هو الجديد.

- الم تقل بأنهن لا يُجِدن غير الاحتطاب.

- نعم.

- ماذا لو جمعنا نساء الوادي وهن كثر.. ومن تبقى من الرجال.. والزمنا كل منهم بإحضار خمس حزم حطب كبيرة .

- ثم ماذا؟

- يراكموا حزم الحطب حول جذوع أشجار مداخل الغابة.

- اتقصد لمنع العصاة من الخروج!

- هكذا سيبدو الأمر للجميع.

- وما الهدف إذاً؟

- نرسل الرجال لجلب براميل القاز.

- تكلم ولا تقطع.

- يصب الكاز على ركام الحطب المرصوف.. ثم نشعله دفعة واحدة.

- أتريد احراق الغابة.

- وإلا كيف تريد أن تأخذ بثأرك.. الا تعرف أن معظم الرعية قضوا وسط الغابة.. وأن من تبقى لم يعد لديهم أي حماس لحمل البنادق.

- أيعقل أن ننجح؟!

- شريطة أن نشيع بأنا نريد سد المنافذ حتى لا يتسللون إلينا.

- الله أكبر عليك...

- أو ننتظرهم حتى يخرجوا لقتلنا.

ضحك مرداس.. ضحكته الأولى منذ قُتل جبار وقال:

- ولا الشيطان الرجيم يذهب إلى ما ذهبت إليه.

- الم تقُل لي قبل فترة "أتنتظر حتى يصلوا بيتك؟"

- نعم.

- وطلبتني رجال يحاربوا.

- نعم.

- ها نحن نحارب معك.

- الآن أدركت حكمتك.

- وأنا على يقين بأنهم يعدون العدة ليلاحقونا إلى بيوتنا.

- صدقت.

- إذا هي الحرب خدعة.

.....

من في الغابة كانوا مثخنين بما فقدوه من الرجال.. إضافة إلى من أصيبوا ومن بينهم شنهاص الذي اخترقت ساقه عدة رصاصات.. ما دعاه للمكوث في زاوية مسجده وقد تحول إلى منامة للجرحى.. أهتمت ناصية بتطبيبهم تساعدها عدد من النساء.. وقد أنشغل البقية بدفن من قُتلوا من صحابهم. لتشير عليهم الخالة ناصية بدفن القتلى من الرعية قبل أن تتحول جثثهم إلى طاعون يأتي على الجميع.

كانت أخبار مرداس ومن معه تصلهم.. ما حفز من في الغابة المطالبة بالخروج للقضاء عليهم.. إلا أن شنهاص طلب من الجميع إعداد العدة وعدم التحرك حتى يشفى بقية المصابين. وحينها يتم ابلاغ مناصريهم من الرعية بموعد الخروج.

تتالت أخبار مريبة أن جميع نساء الوادي كُلفن بجمع حطب ويراكمنه على مداخل الغابة.. وأنتشر الخبر أن مرداس ينوي سد منافذ الغابة حتى لا يمنع العصاة من الخروج.. لكان جميع من في الغابة تناولون الأمر كطرفة.

.....

أستمر نشاط النساء يغطي تلك السفوح والسهول وقد تحولت إلى مسرح واسع تعج كيوم الحشر بالنساء اللواتي يعملن فؤوسهن في الأشجار الجافة.. وجموع يقدن دوابهن المحملة.. تسمع أغانيهن من كل الجهات.. وتكفل الرجال برص تلك الحزم. خلال أيام أرتفع جدار مشوه يستند على جذوع أشجار الغابة.. كان منظره غريب ومضحك.

بعد أيام من بدئ جمع الحطب.. وصل عاقل قرية المنحدر يخبر الشيخ أن مجموعة من النساء رفضن المشاركة.. هامسات بأنه ينوي حرق من في الغابة.. جن جنونه مرسلاً مجموعة من الحراس لقطع لسان من يثبت أنها تتفوه بتلك الأكاذيب. وما أن وصلوا قرية المنحدر حتى كانت البنان تشير إلى اتجاه بيت أم قارون.. التي أحتمت على سطح بيتها رافضة الامتثال.. وقد وقفن إلى جوارها مجموعة يؤازرنها. علم الحراس بأنها زوجة قاتل

عنصيف.. ليتبرع أحدهم موجهاً رصاص بندقه إليها.. وخرت صريعة مؤجلاً قطع لسانها إلى وقت آخر. خشي الشيخ من أمر تلك الشائعة ليأمر رجاله برش الكاز ليلاً.. شوهدت السنة النيران من أنحاء بعيدة تتصاعد.. ومع شروق الشمس هبت رياحاً سريعة أججت النيران ودفعتها باتجاه الغابة.. وأخذ يُسمع لها دوياً مخيف شبيه بأنينٍ راقص.. ومع أنتصاف النهار كانت الرياح قد فرقت السنة اللهب إلى عمق متفرقة. حلقت اسراب الطيور عاليا متفادية سحب السُخام العملاقة.. مع قرب نهاية النهار انتشرت رائحة الموت في الأرجاء. وشوهد قطعان الأرانب والرباح وحيوانات أخرى تفرُ في كل اتجاه. غربت شمس ذلك النهار وبدت أجزاء واسعة من الوادي تضيئها اللهب.. وأنعكس ضوؤها على حوائط الجبال البعيدة.. صعدت شمس اليوم الثاني ليشهد التحام أعمدة الدخان بسحب السماء.. من أنحاء الغابة كانت روائح شواء تنبعث.. قيل أنها روائح جذوع أشجار معمرة.. وقيل أنها أرواح لكائنات التهمتها النار.. ولثلاث أيام ظل الدخان يدور في دوامات كعرائس الجن. لم يستوعب من تابع الحريق ما يدور.. لتمتزج في النفوس هول وفجيعة تلك المناظر المرعبة.. الجميع يتساءل كيف يغفر الله لمثل تلك الأفعال؟ ولا يملكون إلا الدموع للمجهول.

.....

ما أدهش زهرة وأبكاها أن شبرقة وبناتها قَدُمن إلى حيث شادن ليعزنها في والدها.. ثم تفاجأن بحضور عيشة وقد اصطحبت والدة شادن.. لم تكن الدموع لتكفي ولا النحيب.. تكثف لحظتها الحزن والأسى.. وتصاعدت مشاعر بزخم لم يسبق لها مثيل.. الكل مكلوم يواسي بعضه البعض.. ولم تتغيب غير فاطم.. تداري أحاسيس لا أحد يعلمها. طيلة تلك اللحظات ظلت زهرة تنتظر من شبرقة التفاتة.. أن توجه إليها كلاماً انتظرته منذ فقدانها أمها.. لكن الوقت مضى دون أن ترفع ناظريها في عينيها.. وقبل أن تنصرف طلبت من شادن أن تصعد وبقية الخدم ليبقين إلى جوارها لمساعدتها في أمر أرادت أن تقضيه.

وسريعا ما أزدحام دار شبرقة بالخادمات.. وقد وقفت توجههن: يجب ترتيب الدار قبل عودة الشيخ.. يجب أن يبدو في أجمل حلله.. وأن تجهزن مائدة عشاء متنوعة.. لقد آن الأوان أن يعود إليَّ.. هيا قمن بما يجب عليكن صنعه. الليلة سيحل المنتصر بيننا.

تحول الدار إلى خلية نحل بعد أن توزعن أعمال الطبخ.. وترتيب حجرة الطعام.. وتنظيم سلم الدار من بابه الأسفل وحتى الدور العلوي.. جميعهن انشغلن. عدى شادن التي لم تستوعب الأمر.. لتدعوها شبرقة واختفين بها في حجرة جانبية.. كانت زهرة تتذكر تلك الحجرة منذ صغرها التي لا يدخل إليها أحد عدى شبرقة.. وقفت زهرة تنتظر عودة شادن.. وعند خروجهن التفتت إليها شبرقة فجأة وكأنها شعرت بما يجول في عقل زهرة.. وقالت لها:

- وأنت يازهرة تحركي ولا تشغلي بالك بغير العمل!

دهشت لجملتها التي بدت وكأنها تكمل جملة بترت. أردفت حين لاحظت حيرتها: والأن عليك اللحاق بشادن.. وبعدها سأجلس إليك ونتحدث معاً.

لم تصدق ما تسمعه.. تحدث نفسها لست في حلم.. فهاهي أمامي.. تحركت مذهولة تتبع شادن.. لا تعرف ما عليها فعله.. وظل صوتها" وبعدها سأجلس إليك ونتحدث معاً" يتردد وقد غمرت عيناها الدموع. وما أن لحقت بها حتى أمسكت بكفها تهامسها:

- اسمعيني.. علينا انجاز ما كلفتنا به!

تحدثها مرتجفة.. بينا زهرة انشغلت بكلمات شادن.

- لقد سمعتها تعدني بأنها ستجلس إليَّ!

- إتبعيني بصمت واتركي الثرثرة.

قبيل مغيب الشمس سار موكب الشيخ.. تراه شبرقة على حصانٍ أكحل.. يتقدمه قارعي الطبول.. ويظهر إلى جواره مستشاره زيد الفاطمي.. يتوقف بين فينة وأخرى ملتفتاً فيتوقف من حوله ليتأملوا بقايا أعمدة الدخان تلهو بها الريح.. وأخرى تعلو في دورانها حتى عنان السماء. يبتسم لمرآها مغتبطاً.. ثم يشير بالمضي قدماً.. يلحظ سهول الوادي وقد أجدبت.. تصطدم نظراته بالمساحات المحروقة.. يصطنع ابتسامة.. موجها حديثه إليها: غداً ستروين وتعود اغصانك تحمل الخير.. فلم يعد من مخرب أو عاصي بعد اليوم!

حاذى الركب طولقة السوق.. عندها شكل الجمع دائرة راقصة.. هبط الشيخ ممتشقاً جنبيته ليشارك دائرة رقصهم.. رافعاً ناظريه إلى الحصن.. ليرَ جدرانه السامقة. يشير متشوقاً إلى من حوله بمواصلة السير صعوداً.. تخرج نساء قرية المنحدر يرقصن أمام موكبه.. لتتسلل خيوط البخور بين الجموع.. وتعلوا زغاريدهن.. تعود إليه مشاعر النشوة وقد ظن بأنه أفتقدها منذ سنين.. تولد لديه إحساس بأن كل ما حوله يشاطره فرحته.. وأن جبار ينام قرير العين. ما أن وصلوا أطراف ساحة الحصن حتى أشار مخاطبا أنقاض ضريح جده الأكبر: غدا يعود لك مهابتك وستعلو جدرانك من جديد.

دخل من بوابه الحصن ليرى شبرقة وقد وقفت لاستقباله وسط جمع من خادماتها.. لم يتردد حين هبط ووجهه ينضح بالسعادة.. دنت شبرقة تقبل ركبتيه كما كانت.. أمسك برأسها ورفعه ليرَ وجها باسماً مستبشراً.. هامسته: أنتظرك لأهنئك بنصرٍ طال انتظاره. طغت الزغاريد من حولها وقد أمسكت كفه بدلال.. واقتربت من أذنه: وأدعوكَ لزيارتي ولو للحظات.. وسأتركك بعدها لتمضي إلى حال سبيلك بعد ذلك.

ابتسم مشيرا إلى من حوله يستأذنهم في حبور. دخلا باب دارها متشبثاً بمعصمها.. صاعداً بتثاقل إلى جوارها درجاته الحجرية.. ليكتشف أنه نسي بعض تعاريجها. وصلت به حجرة واسعة يعرفها جيداً.. فقد كانت لسنوات خلت مسرحا لسعادتهما.. أستدار يتأمل عمره في أركانها.. ثم أجلسته بين أبنتيه:

- يالسعادتي. كانت تلك الكلمة هي أولى كلماته وهو ينقل عينيه بين وجهيهما.

بعد وقت من الكلمات دعته شبرقة إلى مائدة حرصت أن تحتوي ما كان يفضله من أصناف الطعام. رفع كفه: أكاد أموت ظمئاً.. هل لي بشربة قبل الأكل؟. أشارت على شادن. في حبور بإحضار ما يشربه.. وما هي إلا لحيظات حتى عادت تحمل ابريقا وكأساً مترعاً بالشراب.

كان ضوء النهار قد أفل.. ودُخان المباخر يزيدها إعتاما. لم يتوقع كل تلك الحفاوة من شبرقة وهي التي جافته في آخر زيارة له قبل سنوات ولم تبالِ بدموعه.. عاهد نفسه يومها ألا يطأ لها داراً قط.. لكنه اليوم يحنث بعهده بعد أن هبطت في استقباله.

وقفت جواره ببشاشة.. تمد له بِرقَّة متناهية كأسها.. التقطه بفرح طفولي هاما بارتشافه.. فجأة على صوت صارخ: لا تشرب.. إنها مسمومة.

كادت الكأس أن تسقط من بين أصابعه وقد التفت مرتبكاً لتستقر نظراته على وجه صبية تقف مرتبكة.. تشاءم مما هو فيه. ثم التفت إلى شبرقة.. لتصافح عيناه عينيها وبدت نظراتها حادة.. التفت إلى بناته بذهول.. ينقل نظره في وجوه من حوله.. ثم عاد مخاطباً شبرقة:

- هل ما تقوله تلك المجنونة صحيح.؟ ظلت صامتة وقد تصلب طولها.. أردف بتهكم: أبعد كل هذه السنين أموت مسموماً على يديك؟.

ثم رفع الكأس ليرَ سائلاً أحمراً شفافاً.. قربه من أنفه.. تمتم: لا تختلف رائحته عن أي شراب. فكر أن يتذوقه. ثم عزف عن ذلك.. ورفع صوته منفعلاً: لماذا يا شبرقة.. قولي لي لماذا؟. أمسك بذراعها مواصلا تساؤلاته: لا أصدق ما يدور.. وعليك أن تشربي ما أردتِ سقيه لي.

قال لها وقد قرب الكأس من فمها.. ظل شاكا من أن يكون ذلك السائل مسموماً. أمسك برقبتها صارخاً: هيا أشربي. ارتشفت الرشفة الأولى لترسم ملامح وجهها الطويل اشمئزازاً.. ثم فجأة أطبقت على كفه ممسكة بالكأس تعبه بشراهة ورغبة جامحة.. كانت ردة فعل مرداس منعها.. لم يستطع رغم محاولته انتزاع الكأس.. مضت حتى أفرغته في جوفها.

زاد جمع النساء اضطراباً.. وارتفعت أصوات الترقب.. وللحظات لم يظهر عليها ما تجرعته.. وظلت تقف متماسكة.. ثم رفعت عينيها إلى عينيه.. وقد بدت شكوكه حول ذلك

الشراب تتزايد.. ناظراً في وجوه من حوله بتوجس.. بينما أخذت تدور حوله وعيناها تقدح غضباً. بدأت بالحديث إليه بصوت هامس: وتسألني لماذا؟. كان على أحدنا أن يرحل منذ سنوات.. وهذا أنت تفضلني بعد أن كنت أفضلك أن ترحل.. على الرحب يامرداس سأرحل وأرتاح من عذابك. مثلك لا يسأل.. أم أنك نسيت هجرانك لي كل هذه السنين.. وجعلتني في هامش الحياة.. هل تذكر أنك بدأت بقتلي يوم قُتل أبني عنصيف.. ولم تشعر بذلك. قد تقول بأنك لم تقتله.. وأجزم بأنك قاتله.. نعم قتلته بتواطؤك وتشجيعك له لانتهاك أعراض الناس.. سلمته للموت. ويوم تحركت لتقتص من قاتله.. لم تكن صادقاً بل راوغت تقايض بدمه.. ولم تكتفِ تزوجت بعدها بأيام .. ولم تكتفِ وتزوجت الثالثة إمعاناً في إهانتي واذلالي.. واليوم تقتل جبار.. هل تتذكر يوم ركعت بين يديك أن لا تشجعه على تهوره.. نهرتني ساخرا "الشيخ إن لم يتعلم في رعيته فيمن يتعلم؟!".

أي قلب تحمل وأي مشاعر تسكنك؟ وهذا أنت منذ صعدت إليَّ لم تتفوه بكلمة تجبر خاطري في أبني.. بخلت عليَّ حتى بكلمة حانية. وبنتيك هاتين التين تجلس بينهن.. أنظر إليهن أتعلم بأنهن تجاوز الأربعين وخالط الشيب رأسيهما.. لم تواسيهن هن الأخريات في موت من تبقى لهن. بعد أن ظللت طول عمرك ترفض تزويجهن.. خوفا على من يأتي يرث أرضك وحصنك؟!. وبنو عمك جردتهم من أملاكهم الواحد تلو الثاني.. وحشرت من رفضوا في دار لا يصل إليهم أحد. واليوم تعود منتشياً وقد أحرقت الشجر والحجر.. ألا تخشى الله الذي سيسألك يوم لقائه عن كل نفس ظلمت.. وكل روح قتلت.. وكل دم سفكت.. كم ستكون قدرتك؟. النار تشبع وأنت لا تشبع يا.... فجأة تلعثمت كما لو كانت اختنقت بلسانها. ولم تكمل جملتها بعد أن تهاوت أرضاً.. ركع مرداس مرتبكاً ينظر إلى وجهها وهي تحاول النطق.. وقد جحظت عينيها ناظرة إليه.. وقد ارتعشت أطرافها.. تركها ووقف ينظر بذهول إلى من حوله.. ثم سار باتجاه الباب دون أن يلحق به أحد.. هبط وسط ظلمة السلالم الحجرية يرافقه صوته المنتحب. في الوقت الذي كانت بناتها يحاولن افراغ ما بجوفها.. لكن السم كان قد أستشرى في عروقها.. وأخذ فمها يسيل بزبدٍ أبيض مائل لحمرة فاتحة. سريعا ما انتشرت بقع داكنة على أطرافها ووجهها.. ولم تصمد كثيرا حين أسلمت الروح.. مفسحة المجال لأصوات النائحات في ما تبقى من الليل.

حصن الزيدي

مس حياة الحصن جمود مبهم بعد رحيل شبرقة.. وأمسى شبيهاً بتابوت حجري.. فالحبس خاوٍ.. ومجارش البن مهجورة.. والمخازن مهدمة بعد الحريق.. والساحات صامتة إلا من أصوات قلة من الحراس. ومرداس يجالس نافذته المطلة على امتداد الوادي غربا.. ينادم الجفاف الطاغي.. والقرى المهجورة إلا من النساء وقلة من الرجال يتحركون في هوامش الوادي. تتمرغ ذاكرته في الأمس القريب.. يسمع صدى صوت جبار يتردد.. يراه يصول ويجول وقد ذكره بشبابه وذلك الأمل الذي كان يتقد من عينيه. واليوم يجد نفسه يجالس وحدته.. يجتر ذكرياته. لا يعرف من أين بدأ الخلل.. ومن قادة إلى ذلك المصير؟

سمع طرقات على الباب.. التفت ليرى إطلالة وجه فاطم الصبوح:

- مستشارك يستأذن للسلام عليكم.

يهز رأسه بالموافقة دون أن يتفوه. يرى زيداً محاولاً اخفاء قامته القصيرة.. بعمامته الطويلة.. التي يبدو وجهه مضحكا تحت وطأتها.. تسابقه أكمامه الفضفاضة.. وابتسامته المراوغة:

- السلام عليكم.

نهض مرداس بتثاقل.. فارداً ذراعيه مغمغماً بكلمات غير واضحة.. أردف: تبدو في حال أفضل.

- مادمت إلى جواري فأنا في أحسن حال!

محاولاً شد عزيمته:

- لماذا لا تنفض غبار الكسل؟. أبعد أن أزلت ما كان يهدد الوادي تهجره!. رعيتك بحاجة إليك.. هيا للخروج والطواف في أنحاء واديك.

قال ما قال وفي سريرته وهو الذي يتمنى ألا يخرج أبداً.

- ما أطوف؟. أراه من هنا طوال الوقت.. ثم أي رعية تتحدث عنهم؟

لوى بعنقه مشيراً إلى الوادي وأردف: أنظر لم يعد غير قلة من النساء!

رد زيد لأول مرة بصيغة الجمع:

- أنترك الوادي هكذا؟!.

- على يديك.. شور عليَّ.

- أن نجلب أجراء جدد.

- عليك بذلك.

حاول اخفاء سعادته بما يسمعه:

- هو عمل شاق.. لكن ما تراه سأقوم به.

- فليكن.. هذا أنا أكلفك.

محاولا مداراة ارتباكه.. وأن يظهر بمظهر المخلص الذي تعود أن يوحي بها له.. بينما ظل لسنوات يحلم تجاوز صفته كمستشار.. لا يتجاوز عملي على تدوين ما على الرعية من عوائد الأرض. واللحظة يرى نفسه سيداً للوادي.. وكلمته على الرعية ماضية.

نهض مودعا.. يرى ما حوله مختلف عن كل يوم.. ظل تلك الليلة يرتب أفكاره.. يضع تصوراً ليصبح الأجراء تابعين له. جمع أولاده يبشرهم بفتحه الجديد: ربيتكم على معرفة قدركم بين الناس.. نحن من سلالة أطهر خلق الله.. ومن نعيش بينهم من الرعية وغيرهم سخرهم الله في محبتنا. بهم يمنحنا الله سعادتنا. واليوم أبشركم بأن الله مَنْ علينا بعطايا جديدة.. فخير هذا الوادي إن شكرنا سيكون لنا.. لقد من علينا به بعد أن كان مرداس من ينهل من خيراته.. ولا يبقي لنا إلا فتات الفتات.. من الغد ستذهبون جميعا لجلب رعية جدد.. سيكونون مسخرين لكم. وبعد ذلك ستتوزعون أعمال مخازن الحصن ومجارش البن.. والإشراف على الرعية.. وعلى مزار البن والقات.. وعلى بيع ما تنتجه تلك المزارع.

وزَّع زيد أبناءه في كل اتجاه.. وأوصاهم بانتداب من يروا فيهم العافية والحاجة للعيش والقدرة على العمل. ولم تمر أيام حتى تقاطر خلق جدد.. ليواجه زيد مشكلة الأرامل.. أستطاع حلها بتزويج القادرات على العمل ببعض الأجراء الجدد.. فمن كانت لديه زوجة أصبحت اثنتين.. وطرد العاجزات.. ليلجأن إلى ادرام الأخدام متسولات.

أبتسم مرداس وهو يتابع تزايد حركة الرعية.. تكحل عينيه خضرة يتسع حيزها يوماً بعد يوم. ليبدأ فصل ربيع تلك السنة وقد وجدت الريح في طريقها ما تداعبه. ليفاتح زيداً بأنها أعادت إليه بعض السعادة.. لكنه لم يفطن إلا أن مستشاره يطمح لما هو أكثر.

.....

بعد أشهر من الحريق الكبير وصل مجموعة من عسكر صنعاء.. للتحقيق حول بلاغات تفيد بحريق أتى على عشرات الرعية.. كان الحصن يعرف بأن البلاغات من مشايخ الوديان المجاورة. لكن حكمة زيد استطاعت تطويق الأمر بعد ان استضافهم الحصن لعدة أيام.. عادوا إلى صنعاء محملين بالهدايا.. وقد تأكد لهم أن الحريق نتيجة لعبث بعض الرعاة.. والذي أتى على أشجار جافة كما النيران على حيوانات الغابة من قرود ومفترسات ترددت أخبار تؤكد نجاة عدد من الفارين.. وقد رآهم البعض يتنقلون بين الوديان المجاورة.

تلك الأخبار جعلت زيد في ذعر شديد.. ليرسل من يتتبع تلك الأخبار متمنيا أن تكون أكاذيب مغرضة. عاد من أرسلهم بصحة ما يتناقله الناس.. مؤكدين أن بينهم الشيخ شنهاص الذي يطلب العون من مشايخ تلك الوديان.. ليرى زيد أحلامه تنهار. ولأيام يفكر في ما طرأ. ثم رأى أن يُقنع الشيخ مرداس بضرورة الخروج للطواف في الوادي وتفقد أحوال الرعية. كان مرداس قد وجد سلوته في السكينة التي أتبعها منذ موت شبرقة.

في صباح مشمس خرج الشيخ محاطاً بصفوف رعيته الجدد.. بعد الحاح زيد وتهويله لتحركات شنهاص بين المشايخ.. تستقبله مباخر نساء القرى وزغاريدهن الخجلى.

وبإيعاز من زيد يتسابق الرعية لاستضافته.. فما أن يقترب ركبه من إحدى القرى حتى تدوي الرصاص.. وتُذبح الذبائح تحية لمقدمه. وهكذا ظل تنقله من قرية إلى أخرى لأكثر من ثلاثين يوماً. يتحدث إليهم حول مؤامرة تحاك عليهم.. وأن شرذمة من المارقين يتسولون موائد مشايخ تقودهم أطماع على الوادي. حرص زيد على أن تصل أخبار جولة مرداس إلى الوديان المجاورة.. وكان على يقين من تأثيرها.

وفي طريق عودته مر به زيد على هجرة الفواطم هامس في تذلل متصنعا الانكسار وهو يشير إلى مقبرة واسعة: هناك يرقد المهاجر جدنا.. وكما ترى المكان تطاله البهائم.. وأتمنى مواقتكم الكريمة بنقل رفاته إلى مكان لا تصله الهوام.

ابتسم الشيخ وقال:

- في مثل هذه الأمور لا تستأذنوا!

لم يكن من هناك قبر بعينه أشار إليه زيد وقت الحديث للشيخ.. ولا يعرف أحد أن هناك قبر لمهاجر كما وصفه زيد. ولم يفطن الشيخ إلى أن زيداً انتزع موافقته لبناء مزار.

عاد مرداس إلى حصنه.. يشغله التفكير في حال الوادي وقد أصبحت تلك البقاع والقرى غير ما كانت بالأمس.. يفكر في جدوى ملاحقة ما تبقى من الناجيّن.. وإن ظل حقده على شنهاص مقيماً في أعماقه.. يتمنى أن يراه يوماً ذليلاً موثوقاً على أحد أعمدة الساحة.

.....

لأيام لم تتحدث إلى زهرة.. فبسبب حماقتها ماتت شبرقة.. تلوم نفسها حين سراتها بما كلفتها شبرقة. لكنها تغفر لزهرة بعد أن وصلتها أخبار نجاة والدها.. شملها شعور بالغبطة.. يعاودها حلم الفرار لتلتقيه.. تساعده على مقاتلة الحصن.. ليعود منتصر لبناء دارهم في الجفنة.

لم تُظهر شادن فرحتها بتلك الأخبار.. متصنعة انهماكها في أعمالها.. وقد أرسلت زهرة تحذر والدتها بكبت سرورها وأن تظهر عدم اكتراثها بنجاة والدها.

ما أن يسكن الليل لتغلق شادن باب حجرتها وتتحول إلى كائن آخر.. تتبرج وتتزين وكأنها عروس ستزف إلى عريسها.. لم تعد زهرة تفهم تلك التغيرات.. تقولها ضاحكة: أريد يوم أفر أن أكون في ثياب العرس.. لا أريد أن أخرج في ثياب خادمة. أزور قبر زوجي وقبري ابني.

تكمل حديثها لتشملها نوبة بكاء حتى يسرقها النوم. وليلة بعد أخرى يزداد حديثها حول أحلام الفرار.. تبوح بما يعتمل في رأسها تتمنى عليها مساعدتها لتحقيق حلمها.. تطلب منها أن تعاود مواعدة ذلك الحارس.. توحي إليه بمحبتها.

وسط ظلام الزريبة وقفت زهرة ترتجف.. لم تكن تسمع إلا همسه.. يستحثها الحديث.. مفضلة الصمت وقد زاد من ارتعاشها حين أمسك بكفها.. أقترب زفير محموم يلفح وجهها. تمنت لو أنه أستمر في همسه. أنساها ما أوصتها به شادن.. ولم تعد تعي ما عليها قوله. انتفضت حين حاول احتضانها. وهو يواصل همسٍ غير مفهوم. تذكرت ما قالته لها شادن.. تركته يحتضنها في البداية.. يقبل وجنتيها. دفعته برفق.. كان يهذي وأصابعه تتمادى.. نهضت غاضبة.. نهرته بخوف.. متلمسة طريقها وسط ظلمة الدرج تخافه أن يلحق بها.. حدثت شادن بمخاوفها: لا تخافيه.. لاعبيه حتى تصليه إلى ما تريده أنت لا ما يريد هو. أن تجعليه يتلهف لإرضائك. فكل الرجال تغلبهم الحيوانية.. ولا يتوقفوا عند عذوبة الكلام ولا جميل الأحاسيس.. ومتى ما نال غرضه يترك ضحيته ليبحث عن غيرها.

في لقائها الثاني تكرر فحيحه.. وتكرر رجفانها.. تتمناه مواصلة همسه.. لكنه أمسك بكفيها ثم أحتضنها.. وسريعاً ما طرحها أرضا.. صرخت: لاااا.... أبعد عني!

وبدأت أصوات تدافع:

- لن أتركك هذه المرة.

- أبعد يديك عن رقبتي.. سأصرخ.

- من يسمعك في هذا المكان؟!

حينها سمعا صوتاً حاداً من وسط الظلمة:

- دعها وإلا!

.....

حلقت طيور الغابة اسراباً متلاحقة.. ظن من رآها جراد معمدة. فزعت الخالة ناصية تصرخ فيمن حولها: أهربوا.. اهربوا.. ثم تهادى إلى مسامعا دوي لا يشبه أي دوي.. لتعاود صراخها: الكارثة قادمة. لكن لم يستجب إليها أحد.. حلقت سحب سوداء كثيفة رويدا رويدا غطت السماء.. حينها ارتفع صريخ من أنحاء المكان خرج بعض المصابين يزحفون والبعض يعرج. كان عرَّام وقارون في أعالي الشلال وقد فاجأهم رؤية سحب دخان تتكاثف متجهة من الأطراف البعيدة نحو العمق.. أسرعا بالهبوط لإنقاذ ما يمكن انقاذه.. لكنه سخام خانق وقد أنتشر بين الأشجار.. وتلك السحب حجبت بسوادها كل شيء.. حاولا التقدم لتصدهم حرارة لا تطاق.. أخذ السعال والصراخ يتعالى.. أمسك قارون بذراع عرام يسحبه بعد أن داهمه شعور بالاختناق والغثيان.. صرخ عرام: لن أترك أمي ..دعني... لكنه لم يكمل حين سقط مغشياً عليه.. يحمله بعيدا. بصعوبة حمله قارون متسلقا السفوح يتبع قلة ممن نجوا وهم يزحفون نحو مرتفعات الجبال.. كان بينهم شنهاص الذي يجاهد الصعود بمساعدة نفر حوله. بعد وقت طويل وصلوا القمة ليروا الغابة أتون عملاق مكلل بالسواد.. بكى عرَّام على أمه.. وشاركه من حوله من هول الفاجعة.

واحد وعشرون من أمسوا في قمة الجبل.. لم تكن بينهم امرأة واحدة.. يلهثون في العراء يتنفسون سخام أسود. يبحثون عن كهف يحميهم من الضواري وقد انتشرت في كل مكان . لأيام يتخفون من كهف إلى آخر خوف تعقبهم.. استعادوا توازنهم بعد أيام من مراقبتهم للوادي.. ليكتشفوا أن الحصن قد نال منهم.. ولم يعد بمقدورهم مواجهته. أدرك شنهاص مقدار انكسارهم.. وأن عليه مضاعفة جهدة ليستعيدوا ثقتهم بأنفسهم.. يذكرهم بأن الحصن هو الأخر منهار بعد هزيمته.. وما صنعة انعكاس لعجزه.. وإن عليهم أن ينظروا إلى ما حصل وما يمرون فيه اختبار من الله لهم.. مذكرا لهم بسيرة الرسول المصطفى وقد هاجر من مكة إلى المدينة ليس هروبا أو انكسارا.. بل ليستعد لمعركة جديدة.. وقد عرفتم الجميع بأن الرسول الأعظم كيف عاد فاتحا لمكة.. ثم لينشر دين الله في أركان المعمورة.. ولذلك علينا الاقتداء برسول الله.. والبدء بهجرتنا إلى الله. إن من ماتوا حرقا. أسمعهم يصرخون فينا "الطغيان يمثله مرداس وشيطانه زيد. هم الطغاة الروافض. الا تسمعون الخالة ناصية تقول لكم" تمسكوا بحبل الله واعتصموا به. ولذلك علينا الاستعداد لمنازلة الطغيان.. وأن نجاهد لنشر العدل.. وغايتنا نشر شريعة الله.. وأبشركم بالنصر ما أن تمسكتم بكتابه وسنة نبيه الكريم وبنهج السلف الصالح.. وأعاهدكم أن نجعل من الوادي الأرض التي تطبق فيها شريعة الله وسنة رسوله. راجيا من الجميع الصبر والثبات.

ما أن أنتهى من كلمته حتى صفق له الجميع.. ليقاطعهم بصوت ناهٍ عن التصفيق.. موضحا بأن ذلك من سنن النصارى.. ثم رفع صوته مرددا: الله أكبر ولله الحمد.. ليرددوا بعده الجميع: الله أكبر ولله الحمد. ثلاث مرات.. ثم أختتم كلمته بدعوته للخروج إلى الوديان المجاورة.. موضحا بأنه سيطوف بهم على أصدقاء له سراً يشرح لهم ما تعرضوا له ويطالبهم العون.. داعيا الجميع إلى التحلي بالأخلاق الحميدة.. والالتزام بأداء الفروض الخمسة.. كما دعاهم إلى الظهور بمظهر السلف الصالح في الملبس والتعامل. طالبا من الجميع ألا ينطقوا اسمه إلا مسبوقا بصفة الشيخ أمام من سيفدون إليهم. ثم أستدرك بعد أن لاحظ امتعاض عرَّام الذي ظل يرمقه منذ أول كلمة نطق بها.. موضحاً بأنه لا يقصد بذلك أن يعود شيخ قبيلة بل شيخ دين!. مبيحا لهم بسر لم يتحدث به لأحد بأن له أموال مخبأة ستكون عونه يوم يعودوا لمقاتلة الحصن.

عبروا تلك الجبال بحذر دليلهم قارون الذي كان إلى تلك اللحظة لا يعلم عن مقتل أمه.. وظل مزهواً بقيادته لهم في تلك المسالك الوعرة. بعد أيام التقوا بشيخ أحد الوديان.. الذي استضافهم لعدة أيام.. مستمعاً لحديث الشيخ شنهاص.. متفهما لما سمعه مستنكرا ذلك الحريق.. واصفا ذلك بالفعل الذي لا يغتفر.. مشترطا عليه إن أراد مساعدته أن يقاسمه الوادي. لم يرُق لشنهاص مسألة التقاسم تلك. وإن لم يفصح.. طالباً منه السماح لهم بالمغادرة وقد زودهم بمجموعة من الدواب.. يتنقلون بها من شيخ إلى آخر كبائعي بهارات. وكما أشترط عليهم الأول.. كان الشيخ الثاني أكثر حماساً وقد أستعد بدعمه بالرجال والسلاح.. شريطه أن يكون تابعاً له. ولشهورٍ ظل يطرق بهم أبواب المشايخ ليجد جميع وعودهم مشروطة بتقاسم الوادي.

أمسى معظم مرافقيه يقلدونه بحف الشوارب واطلاق اللحى. وارتداء القصير.. مواظبين على الصلوات الخمس.. عدى عرَّام الذي ظل متشرنقا بصمته.. ونادراً ما يتفوه بكلمات تجد الرفض من شنهاص. ودوما ما يبوح لقارون عما يعتمل في مرجل أفكاره.. مستهجنا أن يظل تابعاً له.. محاولا إقناع صديقه بأن وجهه القبيح بدا يظهر وقد حولهم إلى أتباع. يلح على قارون بالرحيل بعيدا.. مؤكدا بأن شنهاص طاغية كبير لا يختلف عن أي شيخ في تسلطه.

.....

هبط صمتٌ حاد للحيظات.. ثم وقع أقدام مرتبكة.. وارتطام اعقبها هرولة خارج الدار.. عرفت شادن أن الحارس هرب مذعوراً.. تلمست طريقها باتجاه بكاء زهرة.. ضمتها إليها وصعدت بها.. قادتها إلى فراشها دون أن تنطق بكلمة. لم توقظها صباح اليوم التالي وذهبت لأعمال الدار. يتردد على مسامع شادن صوت ذلك الحارس.. تفكر أن تلتقي به سائلة نفسها: ولما لا أجرب؟.

في المساء جلست إلى زهرة تحتضن وجهها.. تنظر إلى عينيها مشجعة:

- لا عليك من ذلك الوغد.

- كان يريد أن يغصبني على مالا أريد!

- فقط ساعديني لألتقيه.

- كيف؟

- تعودي إلى لقياه في نفس المكان.

- أخافه.

- سأحرسك.

- لكن ما علي فعله.

- سأخبرك بعد أن تهدئين.

شع من وجهها الأبيض ابتسامة.. ثم دست رأسها في صدر شادن لتتلقفها أحضان النوم. بينما ظلت شادن تفكر في تطويع ذلك الحارس لما تريده.. وما كانت تخشاه أن يكون له صلات ببنات شبرقة.. أو أن يصِلهن بما يدور.. تُقلب الأمر فلا تجد غير أن تغامر وتلتقيه.

- عديه بأنك ستعطيه ما يريد.. وحين يطمئن.. اشترطي عليه أن يلتقيني.. قولي له أن لديك له هدية.. امرأة تشتاق إلى رجل مثله.

لتسألها بخشية:

- وإذا مانع.

- راوغيه حتى يذعن.

في حذر التقاها.. ظل صامتاً.. ثم أنفرط عقد عِتابه:

- لم أكن أعلم أن هناك من يحرسك؟

ترددت قليلا ثم قالت بصوت رقيق:

- أقسم لك أني لم أكن أعلم بأن إحداهن تتلصص علينا.

- ماذا تريد من تلصصها؟

تلك اللحظة واتتها فكرة أن تخبره بما نصحتها به شادن:

- تلك المرأة تشتاقك!

- كيف تعرفني؟.

- إنها رفيقتها.. ودوما تراقبك.. وهي تتلهف للقياك.. فهل أخبرها بموافقتك؟

احست رفضه من خلال صمته الذي طال.. ليفاجئها طلبه لقياها.. مشترطا أن تطل عليه قبلاً ليرها.

تلك الليلة ظل متوجساً بصمته.. خمنت شادن بأنه ينتظر التعرف إليها من صوتها.. لكنها فضلت أن تعرفه بنفسها بشكل مختلف. مدت أصابعها تبحث عنه.. حتى لمست كتفه.. هبطت بأصبعها حتى كفه.. كانت باردة.. عادت تصعد بأصابعها حتى رقبته.. أمسكت بوجهه.. قربته من صدرها.. أحست أنفاساً حارة.. تأوهاته محمومة.. كان في أعماقها كائن يستيقظ.. بدأت تفقد السيطرة على رغبتها حين بدأت أصبعها بتمزيق ملابسه.. ضمته إليها عاري الصدر. أحست بتسلل يديه أسفل بطنها وقد أرتفع شخيره. فجأة استيقظت من حمى تجتاحها.. تصارع نار غلمتها.. دفعته بعنف وهي تشتمه بأقذع الألفاظ.. خر صامتاً. نهضت واقفة مذعورة من نفسها.. تتذكر بأنها لسنوات طويلة لم تمس رجلاً.. تتمتم مستغفره. نطقت أولى كلماتها:

- أعطيتك.. فماذا لديك لتعطيني؟

تجرأ ولم يخفِ رغبته المحمومة:

أعطيك ما تريدين.. فقط دعينا نرتوي.

- ماذا ستعطيني؟

- ما تريدينه.

- هل لك صلات ببنات شبرقة؟

- أنا حارس ومهمتي ...

قاطعته:

- لا أريد أن نبدأ أول لقائنا بالكذب.. فأنا أشتهيك.. كن صادقا.

- تشتهيني!

- نعم.. وأعاهدك بأن تكون لنا أسرارنا الخاصة.. فهل تعاهدني؟

- أعاهدك. قالها وقد ركع يحتضن ساقيها.. لتتسلق أصابعه فخذيها. زجرته وقد اقتربت من الانهيار.. كابحة غول شبقها.. ليتشبث يقبل قدميها يرجوها.. قالت مودعة:

- إن أردت أن تتحدث سأحضر ليلة الغد في نفس الموعد.

.....

يتخيل زيد ضريحا لمهاجر أول على ربوة عالية.. يراه الرعية عالياً مهيباً.. عاد الأمل يداعبه بأن يكون يوما سيد الوادي.. وقد تخلص من الخطر الداهم شنهاص.. ولذلك أرسل من يترصد تحركاته.. كما أكد على فاطم ايلاء مرداس مزيداً من اهتمامها.

نقلت العيون أن تحركات شنهاص متواصلة بين المشايخ.. وأنه يعد العدة للعودة ورجاله إلى الوادي.. زادت تلك الأخبار من قلقه.. يفكر في وسيلة للحد من الخطر القادم.. فكر بحرق ما تبقى من غابات وشعاب حتى لا يجد شنهاص مأوى.. ثم فكر بتوزيع حراس من الرعية على سوامق الجبال وفجاجها لحراستها.. كان طولها يبعث على اليأس.. ثم أهتدى إلى تحصينها بسلسلة من القلاع.. أن تبني محارس تراقب ثغورها.. سيُكلف الرعية ببنائها. تحمس الشيخ للفكرة فلا تسلل لطامعين بعد اليوم.. ولا هروب للعصاة من الرعية.. وأشار بسرعة تكليف الرعية ببنائها.

يحلم ليل نهار وقد وقع شنهاص في قبضته.. ليبدأ عصره دون منغصات.

.....

مضت مخلفة لهاثه صاعدة وقد خضلتها الغلمة. في الليلة التالية كان هو المبادر.. ما أن شعر باقترابها حتى طوقها بذراعيها.. خشيت أن تنهار وقد أرسل أصابعه تداعب مكامن لذتها.. زجرته سائلة:

- كف عن عبثك.. وحدثني عن تواصلك ببنات شبرقة.

- وستكونين لي!

- سأقف أمامك كما ولدتني أمي.

أغمض عينيه يبتسم متخيلا جسدها يفيض شهوة بين يديه. ليحدثها:

- فاليكن سر بيننا. منذ وفاة أمهن وهن يستدرجن بعض الحراس.. إلى أسطح الدار.

- ولماذا الأسطح ؟

- خشية الخادمات.

- وبما يتحدثن؟

- أن يقتلن من تسببن بمقتل والدتهن.

- وما أدراك؟

- أعرف ما هو أكثر من ذلك.

صمت وصمتت تفكر.. ثم قررت أن تقذف بأول أحجارها لتسبر غوره.

- هل ترغب بي كما أرغب بك؟

- وأكثر.

- مادمت كذلك.. لما لا نتزوج.. حتى يكون ما بيننا حلال.

- ماذا؟

- أن نعقد زواجنا!

- وكيف سيكون ذلك.

- لم يكن بيننا إلا الحلال.

- وكيف ذلك.

- أن تأتي بفقيه ليعقد.

- من تظنيني حتى آتي بأحد؟!

- أو تخرج بي خلسة إلى أي فقيه!.

- هل جننتِ؟

- بعدها نلتقي كل ليلة.. حلالاً.

غامرت وخلعت ثيابه بعد أن طال صمته.. ضمته إلى صدرها تزيل ملابسه.. تركت ليديها أن تقوده اثارته.. شهق لما تصنع به وهي تعتصره. لحظات طالت إلى ساعات من أنين متقطع.. فجأة وقفت تردد أي من القرآن مستغفرة.. ثم خاطبته بصوت حنون:

- الم تقل أنك ترغب بي.

- أكثر مما تتصورين.

- وأنا أرغب بك.

- فلماذا كلما بدأ النعيم تصدين بابك ؟

- يجب أن يكون بما يرضي الله.

قال متلهفا: سأبلغك بعد أن أرتب الأمر بما نويت فعله!

حذرت شادن زهرة من بنات شبرقة.. بعد أن تأكد سوء نواياهن.. وقالت لها أن تستعد ليوم الخلاص.

قبل الفرار حاولت إقناع الحارس أن تصطحب أمها حتى تشهد عقد القرآن.. لكنه رفض بشدة.

لفت حول خصرها بطرحة وأخفت في ثناياها سكين وكسر خبز جافة.. لم تودع أمها.. صاحبتها رهبة الخوف وهي تعبر الساحة نحو البوابة.. ضامة إلى قامتها زهرة وقد تسربلت الظلام.. يرتجفن من صخب أنفاسها.. كان الجو بارداً وهن يعبرن البوابة.. نقاء رائحة السفوح وقد حاذين أعمدة التعذيب.. فصلتها بعد ذلك عن طولها لينحدرن خلفه في خطوات قلقة. تتساءل: قد تكون رائحة الحرية تلك .. أخيرا بعد سنوات طويلة هذه أنا خارج الحصن.. كانت قلقة أن يكتشف الحارس زهرة.. فضلت أن تنبهه.. همست: اصطحبت صبية تعرف أنت... لم يرد.. خمنت معرفته بوجودهاً. جنحت تردد كلمات غير واضحة.. تعرف زهرة بأنها تناجي الله.. وقف لتصمت أصوات أقدامهم:

- الآن نحن نجاور قرية المنحدر.. يمكننا إيقاظ أمين مسجدها!

وقفت مشدوهة.. لم تتوقع ذلك.. كانت تظن بأنه سيذهب بهن قرية بعيدة.. تفكر تلك اللحظة كيف تتدارك الموقف؟. أن تقنعه بأنها لا تريد العودة.. وأنها ستسكن بيتا في أحد القرى.. تنتظر قدومه بين فينة وأخرى. ردت عليه بصوت يخالطه الاضطراب:

- من الأفضل أن نبحث عن أمين في قرية أخرى.

- لكن ضوء الصباح سيدركنا.. وعلينا العودة قبل الفجر.

- لا أريد العودة هذه الليلة...

فلتت الكلمات من شفتيها دون تمهيد ليقاطعها:

- لا تريدين ماذا. تحسبيني أبله.. الم نتفق على العودة بعد أن نعقد سريعاً ونعود!

- نعم.. لكن...

- لكن ماذا.. هل تنوين خداعي؟

- أسمعني.. الم نتعاهد على الوفاء.

- وهل من الوفاء أن تضعيني في موضع...؟. صمت قليلا ثم أمسك بمعصمها وقد بدى صوته حاداً: هيا سنعود.. وداخل الحصن نتفاهم.

لم ينتظر ما سترد به عليه.. اخذ يدفعها أمامه.. وقد تصنعت طاعته.. سارت إلى جواره وقد انعدمت لديها الخيارات.. بينما يدها الأخرى منشغلة بسحب سكينها ببطء.. أحس بطولها يرتعش ظن بأنه برد الليل.. لتفاجئه سكينها تخترق أمعاءه.. حاول إنزال بندقة.. لتسارعه بطعنات متتالية.. خارت قواه.. وتهاوى يئن راكعاً.. لم تميز زهرة ما يدور في تلك اللحظات.. وقد تملكها الرعب حين شدها صوته الخائر "يا خائنة.. أهذه عهودك.. ياخا..." لم تدر ما تصنع وقد أرتفع نحيبها جاثمة تتلمس هذيانه الممدد.. احتضنت رأسه صارخة: ماذا جرا لك؟. لم يرد عليها وقد زاد ثقله.. تتلمس أجزاء بدنه حتى ميزت سائلا تشبعت به ثيابه. بهلع أرتفع صوتها: ماذا فعلتِ به.. أهذا دم؟

.....

أشاع زيد بأنه نقل رفاة لمهاجر أول إلى الربوة العالية.. ليسخِّر مجموعة من الرعية تقوم بجلب الأحجار وحفر الأساسات.. كما استقدم بنائين مهرة من خارج الوادي ليباشروا بناء أساسات الضريح. في الوقت الذي تم تحديد مواقع لبناء قلاع الحراسة على قمم الجبال.. آمراً عقال القرى بتسخير رعية كل قرية في تهيئة المواقع.. والبدئ بقطع كتل الأحجار التي ستستخدم لبنائها. وإن كان شغله الشاغل متابعة أخبار شنهاص.. من خلال عيونه التي ترصد تحركاته.. متوقعاً تسلله في كل وقت.

لكن فرار ابنة شنهاص من الحصن شوش عليه تفكيره.. ليتسلل إليه احساس بمؤامرة تحاك ضده من داخل الحصن.. وقد تكون هناك صلات بين تسلله وهروب ابنته. صب جام غضبه على أبنته.. وهو الذي ظل يؤكد عليها مراقبة كل ما يدور في الحصن.. وأن لا تجعل عزلتها تغفل عمَّ يحاك.. يلومها غاضبا:

- كنت مطمئن إلى أن عيونك تترصد كل من داخل الحصن.. وأن كل همسه تهمسها إحداهن تصلك.. فلا تتنفس خادمة أو حرة إلا وعرفتِ بها.

- الست أنت من نصحتني إغلاق الأبواب في وجيه الجميع.

- لكن ذلك لا يمنع أن يكون لك عيون بينهن.

- لن أخذلك بعد اليوم. قالت جملتها مدركة أن والدها لا يهمه إلا نفسه متناسياً رغبتها في أن يكون لها وليد. رد عليها دون أن يغير ملامح وجهه الغاضبة.

- اعتنى بمرداس.. وانقلي زوجة شنهاص لتكون في خدمتك.. وكذلك بنات مرداس. ولا تنسي أن تحسني لبقية الخادمات. اجعليهن عيونك على بعضهن البعض.

لم يرق لها حديث والدها.. وقد تناسى ما تعانيه من عدم الإنجاب.. لكنها لا تملك إلا ارضاؤه.

.....

التقطت شادن بندق القتيل.. وجمعت الرصاص من جيوبه.. ساحبة نحيب زهرة هبوطاً. تسير على ضوء قمر خجول.. تجر زهرة من ذراعها ترجو كتم بكائها.. تحدث نفسها منكرة ما صنعت.. تتمنى أن لا يكون قد مات من خلفهن في المنحدر.. تصارع هواجسها رافضة أنها أصبحت قاتلة.. يضايقها استمرار بكاء زهرة.. تحاول اسكاتها متصنعة الحزم: أن لم تكفي عن البكاء سألحقك به. لكنها تواصل أنينها.. تغير شادن من حدة صوتها: هيا كفي بكاءً.. تعلمين أنه لم يكن لي من خيار آخر.

ظهرت شمس الأفق وقد ابتعدن غرباً.. يرين الحصن الذي بدا في عليائه مخيفا وبعيداً.. حاذين فجوة الغابة التي تحولت إلى سوادٍ عملاق .. واصلن السير غربا.. مخترقات أشجار البن الجافة بحذر. يتخفين بين الأشجار إذا ما لمحن أحدهم في الجوار.. ثم يواصلن تسللهن حتى أطراف سفوح الجبال الجنوبية.. غشاهن بعض الأمان وهن يوصلن صعود الجروف العالية.. بين فينة وأخرى يلتقطن أنفاسهن راصدات حركة الوادي.. لا شيء يثير الريبة بين تلك القرى المتناثرة.. تبتسم شادن وقد تخيلت الشيخ علم بمقتل الحارس.. أمها تفزع متلصصة من نوافذ الحصن علها تلمح ما يطمئنها.. خادمات الدور يصعدن الأسطح يتابعن حركة الوادي. تعاود شادن الوقوف لرصد حركة الرعية.. تستغرب ذلك الهدوء.. بعد حين ميزت مجموعة من الحراس يسيرون هبوطاً في مجرى السيل.. اختبأن يتابعنهم وقد وقفوا بين مسافة وأخرى يتحدثوا إلى رعية في مزارعهم.. خمنت بأنهم المكلفين بملاحقتهن.. مكثن يتابعن تحركاتهم حتى اختفوا بين منازل إحدى القرى.. ليكتشفن بصعودهن أنهن يقتربن من قمة ينشط عليها مجموعة بقلع الأحجار.. كان الأمر غريباً.. تراجعن لأن لا يراهن أحدهم.

ظلت زهرة طيلة ذلك النهار تخشى رؤية وجه شادن.. وقد أحست أن جميع الجهات تتربص بها.. وأن شادن تلك لم تعد هي.. لتكتشف أن الحرية التي كانت تحدثها عنها لها روح قاسية. بينما كانت شادن تسير متمنية لو أنها لم تكن تلك المرأة التي كانتها.. ولم تستل سكينها. يسرن وكل منهن تمضغ هواجسها. زهرة تخاف اكتشاف أن من ترافقها امرأة أخرى.. وأن ظلمة الليلة الفائتة البستها روح شريرة. يراودها شعور بأنها أسيرة كابوس مخيف.

لأول مرة تقضي ليلها في كهف.. تفكر زهرة كيف سيكون غدها برفقة امرأة لم تعد تعرفها؟. لا تعرف لماذا طرأ على تفكيرها في تلك اللحظات قارون.. تتخيل وقد التقته.. كيف هي ابتسامته.. رائحته.. كلماته التي تتمنها رقيقة.. شعور مبهم وقد أمسى أقرب الناس إليها بعد خذلان شادن. ترى نفسها تحدثه عن تشابه الناس في القسوة.. وعن عذابات الحياة المتصلة.. وانها تفضل أن تعيش الحلم بالحرية لا الحياة فيها.. تراه يطلب منها أن ترافقه.. وإن لم فهي من ستطلب منه. أعادها صراخ شادن إلى واقعها.. تحتد كأنها في شجار ما.. حتى أن جدران الكهف يردد صدى احتدامها.. ثم استفاقت بعد أن أختنق صوتها.. ظهر شبحها وقد تسلل سنا القمر تستند إلى الجدار.. تردد مرتجفة "ربنا إنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.. ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين". تردد أدعيتها حتى خيوط الفجر.. حينها ضجت شقشقة عصافير الجبل.. لتمد يديها تضم زهرة التي كانت تتناوم.. تحدث نفسها: أيعقل أن تجمع بين حناياها كل ذلك الحنان وتلك القسوة.. أيهن هي شادن؟

تفتعد زهرة فوهة الكهف قد أصطبغ الكون بدفء شمس الصباح.. ترى الوادي وخيوط دخان المنازل ساحراً.. تشعرها ببعض الأمان في ذلك الارتفاع.. سمعت صوت شادن يأتيها من داخل الكهف:

- لا أعرف ما علي فعله. صمتك يخيفني؟. لم ترد عليها وقد أردفت: ثم لم أراك ترفعين النظر إلى وجهي. اقتربت وقد خفض صوتها: لو كنت مكاني لعرفتي ما أنا فيه من عذاب!

لترد زهرة كمن يتحدث إلى نفسه:

- لا أعرف كيف طاوعتك!

- لا تخافي مني فأنا لست قاتلة.. وما ظننته في تلك الليلة قد حصل.. لم يكن إلا تهيؤات.. رأيته في منامي وقد حملوه في "محفة" عائدين به إلى الحصن.. نهض مبتسماً.. وقال محدثا من حوله: لا شيء قد حدث.. فقط جرح بسيط أسفل بطني. ورأيته يكشف لهم أسفل مكان الجرح ليبدوا بلون أزرق!

- أماني وتهيُأت.

- تشفقي عليَّ.

- دعيني ولا تحمليني أكثر من طاقتي. ثم تسألها باكية:

- أهذه هي الحرية التي كنتي تبشرين بها.

- وماذا تريدن أن أصنع؟

- الم تخبريني بأنك ستفرين للقيا والدك؟.

- وهذا نحن نفر إليه!

لم تكن تعلم شادن أن تلك القمم العالية التي كانت تشاهدها من الحصن قد نشط الرعية مسخرين لبناء قلاع منذ أيام.. ولم يعد لهن إلى الاختباء في كهف منحدر بين القمم والسفوح.. والبحث عن وسيلة لمعرفة الطريق إلى والدها. مكثن لأيام مختبئات في كهف وقد أستبد بهن الخوف والجوع.. يرقبن طوال النهار السفوح وحركة الرعية.. يخرجن مع وهج الفجر للبحث عن ما يسد رمقهن ثم يعُدن خفية أن يلمحهن أحد.. يراقبن الحراس يجوبون القرى.. يدخلون بعض الشعاب.. يصعدون جبالاً.. يراقبنهم بوجل. وقبيل غروب الشمس يهبطن إلى نبع غزير ليشربن. في آخر مرة رأت شادن وجهها على صفحة الماء.. دمعت عيناها لحالتها.. وحين تأملت زهرة لاحظت البؤس الذي طرأ عليها.. ولأيام تفكر بإقناعها بالعودة.

.....

نباح كلب يفاجئهن ذات صباح.. فررن برعب إلى عتمة أعماق الكهف.. كان الأمر غريباً وقد ظهر نابحاً عند الفوهة بضآلة لا تناسب صوته الكبير.. مالبث أن تغير نباحه إلى زمجرة وهو يتقدم مقوس الظهر نحو عتمة الكهف.. صوبت شادن بندقها باتجاهه مرتجفة.. فجأة ظهر فتى أسود زعق بصوت حاد مطلقاً صفيره.. تنفستا الصعداء وقد أستدار هازاً ذيلة يتبعه.. ليختفيا ويتركهن في حيرة من أمرهن.. نهضت شادن بحذر بعد حين تتقدمها فوهة بندقها حتى باب الكهف.. لفح وجهها سكون إلا من ريحٍ وشمس.. ثم تهادى إلى مسامعها أصوات رقيقة تغني.. خرجت بحذر.. لم يكن أحداً في الجوار.. غير مجموعة من الحاطبات وقد تفرقن يجمعن حطباً أسفل المنحدرات. عادت مضطربة:

- أنهضي.. في الجوار أمر مريب!

- لا تخيفيني فوق خوفي!

- لك أن ترين.

مكثن خلف إحدى الصخور يرقبن تحركات الحاطبات وأغانيهن الشجية.. ما زادهن خوف أن راين عدد آخر منتشرات على منحدرات جبال أخرى.. يذكرهن ذلك بالأيام التي سبقت الحريق الكبير. أنقضى النهار وغادرت تلك الجموع بما جمعن من حطب.. لم يجدن تفسيراً لتكرار ظهور الكلب والفتى.. وكذلك انتشار الحاطبات. اضطررن للمخاطرة والخروج قبيل الفجر.. كانت لهن فرصة أن يبحثن في موقع بناء القلعة قبل أن يصل المسخرون.. لم يجدن غير معاول.. التقطت شادن أحدهن: وغمغمت: سيفدننا!. ولم تعلم أن ذلك قد أثار التساؤلات

باختفائه.. صعدن نحو القمم يبحثن عن مأوى آمن. أشرقت الشمس وقد وجدن كهفاً صغيراً. لاحظت شادن ذبول زهرة المتزايد.. سألتها:

- منذ أيام وأنا أفكر بعودتك إلى الحصن.

صمتت زهرة وقد كسى وجهها بعض التبلد:

- أعود.. لماذا لم تفكري يوم كنا في الحصن؟

- أنا.. قدري فيما أقوم به.. لكني أراك تذبلين من الجوع والبرد.. لم أكن أتصور... قاطعت كلامها عبرة ثم نحيب. ما لبثت زهرة أن احتضنتها تبكي معها.

- سأكون معك أينما تكونين.

- تريني أمسيت قاتلة.. لكنك لا ذنب لك.

- لن أعود!.

منذ تلك اللحظة شعرت بأن شادن تصارع كائن لا يرى.. بدت كمن تخفي ما يدور في خلدها. وتخاف أن تصحو يوماً ولا تجدها إلى جوارها.

تراقبان المسخرين لبناء تلك القلعة من جرف عال.. لم تكونا تعرفان أن صاحب المعول يبحث عنه.. وأن أحد زملاه قد ذهب بشكه بعيداً.. فبدأ يبحث عن سارق المعول.. في البداية أتهم فتى الكلب الذي يتردد باحثاً عن عيدان "الشرز" تلك الشجيرة العطرية.. لكنه صرف النظر عنه وقد لاحظه بأنه يعود من المنحدرات قبل أن يؤوبون إلى قراهم.. ليقوده الشك إلى من يتحدث عن هروبهن الجميع أن يكونن في الجوار. لم يساور شادن الشك ذلك الصباح حين لاحظت عدم وجود المسخرين.. ظنت في بداية الأمر أن ما أخرهم طارئ.. ظلت تراقب الأنحاء حتى أنتصف النهار.. حينها لاحظت أناس يصعدون على المنحدرات كأنهم في سباق محموم.. ميزتهم حراس حين اقتربوا.. نبهت زهرة.. عرفت لحظتها أن غياب المسخرين له صلة بوصول الحراس.. فكرت شادن بالهرب قبل وصولهم.. ولم يكن غير مسلك واحد.. هبطت وزهرة حتى أطلت عليهم من جرف واسع.. فكرت في وسيلة للحد من تقدمهم.. وكانت الصخور والجلاميد المتهاوية وسيلتها.. عاونتها زهرة لتتدحرج الصخرة الأولى.. هوت من سامق الجرف لتثير الغبار عند اصطدامها أسفلها وتدفع بأخريات مشكلة شلالاً مدوياً.. أصابت تلك الصخور ثلاثة.. تشجعت ودفعت بصخرة أخرى.. ثم ثانية وثالثة.. نظرت إلى رعية الوادي يتابعون انهيار الجلاميد.. لم تستمر في متابعة ما يحدث في الأسفل.. أكتفت بسماع أصوات تصادمها.. وتصاعد سحب أتربتها.. مستغلة انشغالهم بالصخور.. لتتوارى وزهرة. هابطة من الجهة الشرقية للجبل. ليقط طريقهن ثلاثة

برصاصهم.. حينها لجأت شادن إلى بندقها لتصرع أحدهم وتصيب ثان ويتوارى ثالثهم.. لحظتها استطاعت الهبوط مسرعة بحذر.. لم تكن تعرف أن شلال الصخور قد قتل اثنين وهشم عظام أربعة كانوا بين الحياة والموت.

مضين متسللات.. هبوطاً باتجاه السفوح حيث شعاب نبع ماء اعتدن التردد عليه.. وما توغلن بين شعابه حتى وقفن بحذر يلتقطن أنفاسهن وقد ظنن بأنهن في أمان.. لكن دوي رصاصة أعاد إليهن رعبهن.. وقد أخذ من تبقى من الحراس يجدون في أثرهن.. هرولن منهكات بين الأشجار.. دوت رصاصة أخرى تردد صداها لمرات. ما أن وصلن النبع حتى حاذين مجراه موقنات بالهلاك.. هللت زهرة حين ظهرت أمامهن بركة واسعة.. تشد بذراع شادن.. مشيرة عليها بالدخول بين الماء.. سحبت البندق ودستها بين شجيرات قريبة.. بهدوء هبطن بأجسادهن حتى غمرهن الماء.. وما هي الا لحظات حتى اقترب وقع أقدام يصاحبها هرج أصوات لاهثة.. أخفين رؤوسهن تحت السطح تمسك كل منهن بيد الأخرى.. رأتهم شادن من تحت الماء يتقاطرون مهرولين.. حتى عاد السكون.. بعد وقت كأنه دهر شهقت زهرة مخرجة رأسها.. تبعتها شادن ..لا أحد عدى أصوات بعيدة.. مكثن لبرهة يرتجفن غير مصدقات أنهن نجين.. هدوء يعم المكان إلا من خرير الماء.. وزقزقة عصافير.. تحتضنها زهرة يتلفتن بترقب.. خرجن من البركة لا يعرفن ما عليهن فعله.. غير أن شادن سحبت البندق من بين الشجيرات وهرولت تتبعها زهرة يتخفين خلف سيقان الأشجار.. ترتجف زهرة وتصطك أسنانها لبلل ثيابها.. بعد حين فاجأهن نباح كلب لترتبك حواسهن.. ما لبث أن ظهر ليقترب منهن كادت تطلق عليه رصاص بندقها إلا أنها جفلت لصوت كأنه آت من العدم: من أنتن .. ومن اين لكن بهذه البندق؟

كان الصوت لذلك الشاب الاسود وقد أسكت كلبه.. عقد الخوف السنتهن يتأملنه ذا شعر أكرت وقامة قصيرة متماسكة.. رفع صوته ملوحاً بفأس طويل الساق: هيا اخبريني.. من أنتن؟.

عاد لشادن بعض تماسكها.. مصوبة البندق في اتجاهه.. بينما زهرة ترتجف خلفها.. تخشى أن يلفت نباح كلبه من في الجوار.. اقتربت منه تقطر ماء:

- لا عليك منا.. أمض في حال سبيلك.

- لن أمض حتى أعلم حكايتكن؟

ثم أشار برأس فاسه: ولماذا تختبئن؟

قدرت شادن أنه معتوه.. وهو يلوح أمام فوهة البندق بفأسه.

.....

بدأ شنهاص يعد العدة للتسلل إلى الوادي بعد أن سمع عن فرار خادمتين من حصن مرداس.. يحدثه قلبه بأنهن زوجته وابنتها.. تمنى لو أنه يعرف الطريق إليهن.. ظل متابعاً لأخبارهن.. ينتشي لتهويل الناس لأفعالهن.. وأنهن يصنعن مالم يصنعه الرجال. وتبدل الشعور بالعار وهن لسنوات خادمات لنساء الحصن إلى الشعور بالفخر.. أنشغل بالبحث عن وسيلة تعيده إلى الوادي ليلتقيهن.

ضاعف زيد من اهتمامه لبناء القلاع.. بجمع العقال ملوحا لهم بالثواب والعقاب.. قال لهم: الشيخ يتابع أعمالكم من نافذة حصنه. ويرى ما يصنعه كل منكم.. فسارعوا في البناء لنيل رضاه. وسريعا ما ظهرت ثمار كلماته.. ليتنافس العقال في تسخير المزيد من الرعية لإكمال ما تبقى من تلك القلاع.. يتنافسون بينما أعينهم على نوافذ الحصن البعيد.. يتحدث بعضهم بأنهم رأوا الشيخ في نافذته يلوح بكفه مبتهجاً.. وآخرين بأنهم رأوه يبتسم لهم.. وهكذا خلال أسابيع كانت جدران القلاع قد ظهرت بألوان زاهية بعد أن طليت بالنورة.. توزع الرعية حراستها.. وأمسوا يتفاخرون بسماع نفير "بورزاناتها" المتوالية نهارا.. ومشاعل النيران المتقدة ليلاً. ولم يعد هناك من يستطيع التسلل أو الخروج من الوادي.. إلا من معبر نهاية مجرى السيل غرباً.. وقد كلف أحد أبنائه كمشرف على تسيير حراسها.

يتحدث زيد إلى الشيخ بزهو وهو يريه من سطح حصنه مواقع تلك القاع: الوادي أمسى بعيد المنال عن كل طامع.. وتلك القلاع التي تراها يرصد من يتناوب عليها كل حركة في الوادي حتى الطير في كبد السماء. وقد زودنا حراس المنفذ بأوصاف شنهاص.. إن حاول التسلل. سيقودونه مكبلاً إليكم.

- وابنته الفارة من تقتل الناس؟

- سأكلف عقال القرى بجمع كل من لها عين باطلة.. وستراها قريباً بين يديك.. فلا مجال لأي عاصٍ أو فار بعد اليوم الإفلات من العقاب.. وسيعم الوادي الاستقرار الدائم بفضل حكمتكم.

في الوقت الذي أنجزت فيه القلاع.. كان البناؤون يرفعون جدران الضريح متفننين في تشكيل أحجاره بنقشات والوان بديعة. وقد تزاحم الرعية للمشاركة في البناء تبركاً.

.....

أدركت شادن بأن ذلك الفتى غَرْ.. يرمق زهرة بعيون ولهى. أنزلت بندقها تمثل المغلوبة على أمرها:

- نحن طوع بنانك.

تقدم مزهواً يتفرس البندق وقد خفض فأسه:

- ماذا سيقول الجيران عن هذه البندق؟.

- أي جيران؟

- جيراننا في الدرم.

صمتت تفكر ثم ردت بغنج:

- سنرى حين نصل.

أبتعد بهن غرباً.. وقد وضع فأسه على كتفه.. وطوال الطريق يسيرون تحت أشجار متشابكة.. يتحدث منتشياً عن مواضيع لا يفهمنها.. شعرن بخوف بعد أن خرجن إلى سهول مكشوفة.. تتلفت خوف ظهور أحدهم.. بينما ذلك الشاب يرفع صوته يحدث كلبه.. تارة وأخرى متحدثاً عن نفسه إليهن.. وقف وقد ظهرت لهن مجموعة أكواخ تجاورت على حواف مجرى السيل.. وقف بخيلاء:

- ذلك هو درمنا.

بدت المسافة قريبة.. أكواخ متهالكة.. تفصلها أزقة متعرجة وضيقة.. قلة من الخوادم يجلسن أمام أكواخهن.. أطفال عراة يتلاحقون هنا وهناك.. وكلاب تلوب بحثا عما يُؤكل. وقفت مشيرة إليه:

- سننتظر هنا حتى يحل الليل.

- ولماذا تبقين هنا!

- لا نريد أن يرانا أحد!

- تريدان الهروب!

- أبداً...

- سأبقى معكن.

طوال الوقت ينظر إلى زهرة في خفر. يسأل بتلهف: لم تحدثني عن حكايتكن؟. لتمطره شادن بأسئلة تدفعه للحديث عن نفسه.. عرفن بأن أسمه محمد.. وأنه يعمل حطاباً.. ويعيش مع أمه في كوخ وسط ذلك الدرم. أستمر يتحدث حتى دنت الشمس وصخب الجدجد بصريره.. وقد رأين خوادم الأكواخ يشعلن مواقد النار أمام أكواخهن.. واختفى الأطفال إلَّا قلة حول بعضهن. وظهرت نجيمات متباعدة. أشارت عليه شادن مبتسمة أن ينهض.. ماداً يده للامساك

بمعصم زهرة.. هبطوا تتلمس عيونهم غبشة المساء.. وما أن اقتربوا حتى استقبلتهم جوقة كلاب.. غاص كلبه بينهن نابحاً في تآلف.. أطلق الحطاب محمد صفيراً حاداً لتفر جميعها عدى كلب هرم ظل أمامه يهز ذيله.. ركع وأخرج له من تلابيب ملابسه كائنات في قبضه اليد يبدوا أنها فئران ميتة.. ألقاها ماسحاً بيده رقبته ورأسه.. قائلاً: هذه أم كلبي وقد هرمت!. ثم مضى يتابعن خطوهن وسط حذر عيون الأكواخ.. وقف بهن أمام كوخ وسط الدرم.. تكومت جذوع أشجار وعيدان حول بابه القصير.. أشار عليهن أن يدخلنه. استقبلتهن رائحة عفن خانقة.. بينما أنشغل محمد بإشعال نار موقد طيني.. للحظات تعانقت السنة اللهب وتسرب ضوئها إلى الداخل.. وقفن يكتشفن ما حولهن.. امرأة ممددة.. ما أن شعرت بوجوده لتستوي جالسة على فراش داكن.. ورفعت صوتها:

- ما أخرك يامحمد؟

دخل إليها أمسك كفيها هامساً:

- ضيوف!

- أينهم؟

اقترب من أذنها:

- أخفضي صوتك.. هاهن إلى جوارك.

لوحت بيديها تتلمس الفراغ.. وقد أنعكس ضوء اللهب على وجهها المتغضن الأسود:

- أين هن؟

أمسكت شادن بذراعها.. بشرة جافة.. أصابع داكنة.. عينان واسعتان.. فراش أمسى دون لون.. وقد ربضت إلى جور فراشها جلاميد حجرية مستطيلة.. عليها بقايا أطعمة.. تفصل تلك الجلاميد فراشها عن فراش آخر تغطيه ملاءة متربة مددت على أطرافه.. ومجموعة من الحبال.. عرفت شادن لاحقا أنها أدوات احتطاب.. في فضاء الكوخ تدلت زنابيل خوص وعدة فؤوس.. وإلى جوار الباب قرعة مليئة بالماء. أدرك حيرتهن وقد ظللن واقفات مشيراً عليهن بالجلوس على فراش الحبال.. جلست شادن تتأمل ضيق الكوخ.. تتخيل إذا ما داهمهن أحد لن يجدن زاوية يختبئن فيها. حتى أنه لا يوجد للباب درفة تُغلق.. عدى جذوع توضع فوق بعضها ليُسد عند الحاجة.

عاد محمد لناره واضعا قصعة عليها يحرك فيها عصيدة العشاء.. مغنيا بكلمات قد تكون موجهة لزهرة.. سريعا ما دخل واضعاً القصعة على الجلاميد.. رائحة ذكرتهن بجوع أستبد بهن.. تتخاطف الأصابع عصيدة رغم سخونتها. لم يكن لزهرة غير الصمت أمام نظرات

محمد.. يحاصر زهرة بنظراته.. حتى حين يتحدث ينظر إليها.. بينما ظلت في ذهول غير مصدقة أن هناك من يعيشون بذلك الكفاف.. وإن تسرب إلى أعماقها نوع من الطمأنينة.. تستمع إلى حديثه وأمه ذلك الحديث الذي يشي بقناعة غريبة.. نهض محمد مرسلا ابتسامة خجلا لزهرة: سأنام في الخارج.

لم تكن تشعر بأي خوف من نظراته.. بدت لها مألوفة.. لتنام تلك الليلة إلى جوار شادن نوما عميقاً.. بينما أمست شادن تقلب خوفها.. وهي ترى الصباح يظهر أكثر مما يخفي.. قادها خوفها للتسلل واكتشاف المكان.. عند الباب كادت أن تهوي فوق شبح محمد المحتضن كلبه.. نبح متحفزاً لتتراجع.. هامسته: نام أردت فقط أن أريق الماء. غمغمت أمه بكلمات غير مفهومة.. ليعود محتضناً كلبه.. خرجت تتأمل فراغ الظلام وقد غمرته غلالة فضية لقمر يسافر باكتماله.. تستطلع تلك الأكواخ.. ليتعالى نباح كلاب في الجوار.. لم تجرؤ التقدم مكتفية بالطواف حول الكوخ.. اكتشفت بقايا كوخ يلاصقه من الخلف.. دون سقف أو باب.. عادت تنتظر الصباح.. حين سألت محمد عن بقايا كوخ خلفي.. أخبرها ضاحكا:

- لكنه أمسى مدفناً للموتى.

لم تفهم.. لتنبري أمه موضحة:

- من يموت في درمنا.. يحفر له ويدفن في أقرب كوخ مهجور.. وأن لم يجد فيدفن في كوخه.. حتى يبقى مجاوراً لمن يحب.

ردت شادن بتعجب:

- أحب أن أسكن مع الأرواح...

-ولما لا؟ محمد سيتكفل بذلك من غد.

خلال يومين جلب له محمد فروع لأشجار وسيقان قوية.. ثم باشر بإصلاحه حتى أمسن يدخلنه من باب داخلي.

لم تكن العمياء قد أصابها الخرف.. وليست كما بدت في أول ليلة طاعنة في السن.. يقضين الوقت بالحديث إليها.. تردد هنهنات هازة رأسها. وشادن تحكي حكايتها ملفقة دون أن تطلب منها ذلك.. محاولة تبديد تحفظها.. بصوت يستدر الشفقة: تيتمت وأختي صغارا بعد أن مات والدانا.. ليسومنا أقربنا ألوان العذاب.. فررنا من بينهم.. ولأيام طويلة نسافر من قرية إلى آخر حتى وجدنا أبنك محمد.. وكم نحمد الله أن اصطحبنا إليك.. نشعر بمحبتك في قلوبنا.. ولذلك أرجو أن تقبيلنا بنات لك. تستمر شادن بحكاياتها لتحرك العمياء عينيها المطفأتين رافعة وجهها إلى السقف بهزات متوالية.. لتوقف رأسها وتلتفت كمن تنظر إلى شادن: محمد

ولد طيب. بعض نساء درمنا يطمعن فيه.. أتعرفيّن لماذا؟. ودون أن تنتظر الرد واصلت: لأنه لم يتعود التسوُّل مثل البقية.. ولا يسرق.. يجمع ما يحتطب ويقايض به ما نقتات به.. كما يجمع عيدان وجذور شجيرات "الشرز" ذات الرائحة الطيبة ويبيعها للنساء.. مقابل ذلك يتفضلن عليه بحبوب الذرة والبن.. وأيضا بأغصان القات ومما يزرعون.. وأنا كما ترين لا أستطيع الخروج أو الدخول إلا بمساعدته.. أخاف أن تأخذه أحداهن بعيدا.. وأشعر أنكن لا تهتمنَّ به.. فكلامكن مختلف عن كلامنا حتى رائحتكن. لا تشبه رائحة الخوادم!. تبادلت شادن نظرات التعجب مع زهرة.

منذ أول يوم وشادن تراقب من شجوج كوخها سكان الأكواخ بقلق.. تراهم يخرجون مع خيوط الشمس.. لتسمع جلبة عودة اسرابهم بعيد الظهيرة.. فرحين بأغصان القات وما جمعوه من طعام. وترى محمد يخرج حاملاً فأسه وحباله على كتفه.. يتبعه كلبه في طرق مختلفة.. وحين يعود.. يكون وحيداً.. يجالس أمه يمضغان القات.. شادن تنصت علها تسمع ما يشفي غليلها.. لكن أحاديثه لا تتجاوز ما يصنع بيومه. تتمنى أن يتحدث عما يتحدث به الرعية.. أن يذكر ما سمعه عن نشاط حراس الحصن.. أو يأتي بذكر والدها.. لكن كلامه لا يحيد.. يوما بعد يوم تتملك شادن حيرة.. متسائلة: أين ذهب ذلك الفتى الذي ظهر حول تلك البركة حاملا فأسه مهدداً.. وهذه النظرات التي ما فتأ يرسلها لزهرة.. تود أن تسأله.. في الوقت الذي تخاف إن يعرف بسرهما.

ولم يكن أمامها إلا أن تستدرجه ليخرج معها في ليلة حالكة السواد.. حملت بندقها وسارا بعيداً عن الأكواخ.. يتبعهم كلبه.. سألته:

- الا ترغب في الزواج؟

رد عليها بخجل طفولي:

- سأتزوج أختك!

- متى ؟

- حين توافق.

- وأنا.. الا تريد أن تتزوج بي؟

- أنت كبيرة!

- وماذا تفعل بها حين تتزوجك؟

ضحك.. ولم يرد.. مدت أصابعها وأمسكت بكفه.. شعرت برعاش يده:

- تذهب كل يوم لتحتطب.. بماذا يتحدث الناس؟

- لا أتحدث إلى أحد.

- ألا تسمعهم يتحدثون إلى بعضهم؟

- يتحدثون.. لكني لا أسمعهم.

صمتت لبرهة.. ثم رأت أن تستخدم رغبته في زهرة:

- كيف ستتزوج أختي؟

- إن وافقت سنكون أزواج.

- سأجعلها ترغب بك إن طعتني.

- كيف أطيعك؟

علت ضحكتها عالياً لتلقائيته.. تتأمل شبحه وسط العتمة تأمل القناص للفريسة:

- حين ترى الناس تتكلم استمع لحديثهم.. لتخبرني بما يقولون.

- لكني دوما بعيد عنهم.

- اذهب إليهم!

أدركت صمته وحيرته.. أنتابها قلق أن يفكر لماذا تطلب منه ذلك. وأثناء العودة إلى الكوخ تمنيه بزهرة.. وقبل أن يصلا ربتت على كتفه: أنت شاب طيب وسأقنع أختي تحبك!.

تنتظر عودته.. تنصت لحديثه ووالدته أثناء مضغ القات.. لكنه أستمر في حديثه المكرر عمَّ يصنعه في يومه مع الأشجار.. مرت الأيام وشادن تفك في وسيلة لمعرفة الطريق إلى والدها. إلى ذلك النهار حين عاد بحديث يضحكه:

- حراس الشيخ يبحثون عمن عيونهن باطلة.

شعرت شادن بتلك الكلمات تيقظ قلقها.. نهرته أمه وقد ظنت أن الكلام يعنيها:

- ما لك وما لهذا الكلام يامحمد.

- ويقولون أن عاقل القرية المجاورة سيأتي ومعه حراس ويصفوا نساء الدرم.

زاد اضطراب شادن.. ناظرة إلى عيني زهرة بقلق.. تلح على زهرة طوال الليل بالرحيل.

.....

ساورت شنهاص حيرة لانقطاع أخبار أبنته بعد محاولة القبض عليها.. في الوقت الذي كان يعد العدة للتسلل.. بعد أن مل انتظار وعود المشايخ. وما جرح كبريائه أن بعضهم يردد "شنهاص رجل عجوز ولا كف يقاتل بها.. ولم يعد له من وريث.. ويطمع بمشيخة الوادي". دفعه ذلك للاعتماد على ذاته.. متمنياً الوصول إلى ما خبئه من مال ذات يوم بعيد.

عرف من جولته بين المشايخ أن الكل يطمع بضم الوادي.. وقد أمسى مرداس منزوياً.. بينما الفاطمي يوسع من نفوذه.

رأى شنهاص أن مصلحته تقضي بسرعة عودته .. يفكر في حيلة يتغلب بها على الحراس بعد أن تأكد له بأن الوادي أمسى سجناً كبيراً.. ليتسلل دون أن يكتشفه أحد.. فكر بعده سبل منها: استمالة حراس أحد القلاع بالمال.. لكنه أدرك بانها مسألة غير مضمونة وقد يقتادونه.. أو أن يقاتلهم ويدخل الوادي عنوة.. وقد يلفت الأنظار بذلك.. والعبور من المنفذ يشكل خطورة.. وقد استدلوا عليه من كفه. وبعد طول تفكير قرر المغامرة والدخول من المنفذ دون صحابه.. يرافقه جمع من مبتوري الأكف.. رافقوه بأجرٍ معلوم.. كان معظمهم من المتسولين وعوام الناس.. ولم يكن لديهم علم بخطورة ما يقومون به.. كما يجهلون عمن يكون.. وما أن اقتربوا من المنفذ حتى تباطأ أمرهم بالعبور.. أنشغل الحراس بهم ثم قرروا اقتيادهم إلى الحصن مقيدين.. ليصل الخبر إلى زيد الذي هلل شنهاص بينهم.. صُفوا أمام الشيخ الذي تفرس ملامحهم فرداً فراداً.. لكنه لم يجده بينهم.. ليعلم بأنه كان بينهم وقد تسلل في غفلة من الحراس.

وكما توقع شنهاص.. ما أن وصلوا حتى التف حولهم الحراس بعد أن أثاروا عجبهم بأذرعهم المبتورة.. وأخذوا يسخرون منهم.. دون أن يفقهوا إلى أن شنهاص هو من بهرهم على حصان مزين بحلة زاهية.. ومظهر مُلفت.. متنكرا بعمامة فاطمي.. وثوب فضفاض بأكمام مطرزة تخفي ذراعه.. و"توزة" فضية تزنر خاصرته.. وقد مضى بعيداً. نظر الشيخ إلى زيد هازاً رأسه بسخرية دون أن ينطق.. ليعود غاضباً إلى عزلته.

تناقل الوادي خبر تسلل شنهاص وعدد من رجاله.. ليقيم الذعر في قلب زيد الذي لازم الشيخ ليل نهار منذ ذلك اليوم.. محاولا إثارة حماسه لملاحقته ورجاله.. موضحاً أن بينهم قارون أبن قاتل عنصيف.. وأن شنهاص إذا تُرك يتنقل بين الرعية سيكسب تعاطفهم ويعيد الوادي إلى اضطرابه القديم.. شارحا له فرصة التخلص منه بعد أن وقع في المصيدة.. مشيرا عليه ضرورة إرسال أكثر حراس الحصن شجاعة لملاحقته واقتياده لينال العقاب. لم تخب مساعيه حين نهض الشيخ راداً: تعني الفأر دخل القفص. هابطاً ساحة الحصن.. آمراً مجموعة من حراسه الخروج إلى الوادي.. على أن يصطحبوا عاقل كل قرية واقتياد فاقدي الأكف إليه.

كما أمر بمجموعة أخرى من الحراس ملاحقة أقارب كل من تسلل من رجال شنهاص.. ومن يمت بصلة قربى لهم.

وبدوره زيد.. حث أمناء المساجد في القرى بمضاعفة مواعظهم ضد شنهاص وابنته القاتلة.. ولم تمض أيام حتى كانت صفوف من جمعوهم في ساحة الحصن.. وقد تجاوز عددهم الخمسين شخصاً.. ليس بينهم شنهاص.

.....

عقب تسلل شنهاص إلى الوادي تخلص من حصانه وقد استبدله بحمار.. وتنكر بأسمال امرأة تجيد تلاوة القرآن.. يحرص على طلاء وجهه بمعجون الكُركم "الهرد" بعد أن أزال شعره. يداوي الممسوسات والعواقر.. ويعمل على جلب الغائب.. كما يعيد الحبيب دون مقابل. يرد على من تسأله عن أسمه "المداوية آية هذا اسمي". متجنبا التواصل بمن يعرفهم.. والاحتكاك بأي رجل. يطرق الأبواب ليستقبله الأطفال والنساء.

يرهف السمع في تنقله إلى ما تتحدث به النساء عن شنهاص.. وابنته التي ظل في حيرة من اختفائها.. يلاحظ في تنقله حراس الحصن يجوبون الوادي ليل نهار بحثا عنه وعن ابنته.. يسمع عن زيد الكثير.. فهو من يتابع المكلفين بمطارته وهو من يهتم وأولاده بشئون الرعية.. وبتشييده جدران ضريحاً كبيراً يكرس حضوره.

كان الخوف يمنعه من دخول قريته الجفنة بعد كل تلك السنين.. وحين يجاورها عابراً يركض قلبه وترتبك مشاعره.. تاركاً عينيه لأن تغرق في دموع دافئة. إلى ذلك النهار حين ترك حماره يلج أزقتها متمهلاً.. يرَ بيوتاً لم تتغير.. وعيوناً تنظر إلى امرأة غريبة تجول بحمارها.. وجوهاً لا يعرفها وأخرى وقد مر الزمن عليها. تجمع الصغار في أثره حتى حاذى ركام داره.. بهتَ وكاد ينعق نائحاً.. تاركاً للحمار أن يطوف حوله مدارياً دمعته.. محاولاً تحديد مكمن كنزه.. يتذكر بأنه دفنه ذات مساء في الزاوية القبلية للزريبة.. أزعجه تكاثر الصبيان.. خشي فضولهم. أبتعد وقد تأكد من سلامة ذلك الركن الذي يختبئ صندوقه تحت تلة ركام. أبتعد به الحمار تاركاً له المضي كيفما كان. يستجمع قواه ليطرق أول باب.. يتجمعن حوله.. يعرض مهارته ويلتقط بين فينه وأخرى ما يتفوهن حول: شادن.. اعتكاف مرداس.. نشاط زيد.. تسلل شنهاص ورجاله.. وملاحقة الحراس المحمومة له. قلة يثنين على أيام شنهاص.. وبعضهن يصفنه بأقذع الصفات.. لكن ما أدهشه ثناء الجميع على شجاعة شادن.. يذكرن أسمها بفخر قل نظيره. ولأول مرة يعرف بأن من فرت معها لم تكن أمها كما كان يظن.. بل صبية لا يُعرف لها اسم. ظل يطرق الأبواب.. حتى كان أمام إحداها ساهماً.. تنهد وذهبت ذاكرته إلى سنوات صباه وتلك الصبية "عمادة" وقد أرسلها والدها إلى "المعلامة" لتتعلم الكتابة وحفظ القرآن على يدي فقيه القرية.. هي الصبية الوحيدة بين

مجموعة من الصبيان.. وكانت أنجب من حولها.. يشير عليها الفقيه مراجعة ما حفظه بعض أقرانها.. ومن بينهم شنهاص.. حينها ربطته بها مشاعر مودة بريئة.. ويوم أكملت حفظ القرآن رتب لها والدها زفة ووزع الحبوب المسلوقة.. وقدم لها شنهاص هديته مصحف صغير.. تطورت تلك المودة إلى دفئ في المشاعر ظلت حتى بعد زواجها بآخر.. وبعد وفاة زوجها أستمر عطفه عليها.. يُسعد قلبه لمرآها.. يمدها بما ينقصها.

تردد في طرق بابها.. تمنى أن لا يكون ملاك الموت قد زارها في غيابه. وقف يتأملها بسعادة تفيض دموعاً.. دعته للدخول.. أغلقت الباب.. همس في تضرع بأن يحدثها منفردين. احتضنته باكية بعد أن أفصح عمن يكون.. مدت أصابعها تلامس طبقة الكُركم.. ظلت تتأمل عينيه. يراها صبية رغم تجاوزها الخمسة عقود.. حدثها عن معاناة حبسه.. تشرده بين الغابات والجبال.. لم يخفِ عنها ما يخطط له. حول حيرته من انقطاع أخبار ابنته.. رغبته بلقياها.. قال لها: لا أحد يعرف بأنني المداوية غيرك. وشكا خذلان المشايخ له.. وأنهم يطمعون في الوادي. نهضت وعادت تحمل مصحفاً صغيراً.. تنظر في عينيه دامعة.. قائلة:

- أتتذكر هذا؟

- لا أتذكر!

- هذا مصحفك الذي أهديتني في "المعلامة". أنت معي منذ ذلك اليوم.. ولذلك أودك أن تسمعني.. أعتبر هذا البيت بيتك.. وحتى لا تلفت الانتباه أن ترحل من فورك!. وأن تتخذ منزلاً تأوي إليه في إحدى القرى الطرفية.. حتى إذا ما كُشفت تستطيع الهروب.. وأن لا تستقبل أحداً في بيتك.. ولا تفصح عن شخصك لأي كائن. وان لا تحتك مع الرجال البتة. ولا تأتي إلي إلا للضرورة. ظل ينصت إليها وقد تساقط دموع عينيه ليهامسها راجياً:

- قبل أن أستودع الله.. أرجو متابعة أخبار شادن حتى إذا ما عرفتي تخبريني.

- بدون رجاء.

- وأن تحفظي سري.

- أعدك!

- وأن تساعديني في إخراج ما أخبئُه من مال.

- مال!

- صندوق تحت قاع الزريبة.. وضعت به ما ورثته بعد والدي وما أضفته في سنوات. أن تفكري في طريقه لإخراجه دون أن نلفت أنظار الناس.

- سأفكر.

- والآن استودعك حافظ الكل.

- لا تعود إليَّ إلا عند الضرورة.. وحين أريدك سأبحث عنك وأصل إليك في الوقت الذي أراه مناسباً.

مرت الأسابيع و"عمادة" تبحث بين أفكارها عن طريقة لإخراج ما أراد.. حتى راقت لها فكرة وقد وجدتها في مداوة زوجة أحد أبنائها. خرجت ذات صباح من قريتها تبحث عنه.. تعمدت أن تطوف عدة قرى سائلة عن مداوية تعالج بكتاب الله.. وإن زوجة أحد أولادها لم تنجب منذ تزوجت.. وقد رأت في منامها مداوية تقبل عليَّها ممسكة بطفل باسم.

وحين التقت به حدثته عن استمرار انقطاع أخبار ابنته. وطرحت عليه فكرة استغلال عدم إنجاب زوجة أحد ابنائها.. دعت مجموعة من نساء الجفنة ليحظرن مداواة زوجة ابنها حسب اتفاقها معه. وقد وقفت بين يديه تحدثه أمامهن بحاله زوجة ابنها.. رفع صوته منقلاً عينيه بين من حوله من النساء "أن تحضري لي سبع أحجار كل حجر بحجم قبضة اليد.. أحجار لم تراها الشمس منذ سنوات.. يجمعن ويوضعن على نار متقدة.. ليوضعن تحت المريضة عارية الفرج.. ويصب عليهن ماء ...". سألتها :

- أين نجد مثل تلك الأحجار؟

- من أي خرابة؟

- بالجوار ركام دار هدم منذ سنوات طويلة.

- هل لي أن أراه؟

خرجت به.. وحولها المدعوات من نساء "الجفنة" وقفت به جوار ركام داره.. رفع صوته يردد مغض العينين "ربنا.. إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا.. ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفرعنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا". ثم صمت كمن يبحث عن شيء في ركام الدار.. مشيراً إلى أحد أركانه "هناك في وسط ذلك الركام ابحثن عن حاجتنا". لم يطل الأمر وقد تسابقت النسوة بالحفر.. وكلما أخرجن حجراً عرضنه عليه.. يتأمله ثم يهز رأسه بالرفض.. ومتى ما كانت الحجر مناسب يغمض عينيه ويتلو "ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير". وهكذا حتى رأى أن الحفر قد وصل إلى العمق المناسب.. رفع وجهه إلى السماء ليردد "ربنا أتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا". ثم مشيراً بكفه اليسرى بأن يوقفن عن الحفر.. مركزاً نظراته على ما أمامه من أحجار.. ثم رفع صوته ناظرا إلى السماء "ربنا

هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة عين واجعلنا للمتقين إماما. الله هم آمين" وما أن وقف حتى شاهد حشد كبير من الصغار وبعض الرجال على مقربة يتابعون ما يدور.. سار غير مكترث عائداً خلف عمادة ومن حوله جمع النساء باتجاه بيتها.

مع هدأة الثلث الأخير من الليل استطاعت عمادة اخراج الصندوق.. وقبل أن يغادر بيتها.. أضافت ناصحة: اليوم لديك القليل من المال.. تستطيع أن تصطفي رجالك وتمدهم بالقليل القليل منه. لكن عليك أن لا تلتقيهم في زي المداوية.. وأنصحك أن تختار ستار الليل لتذهب إلى من تنتقيه وتلتقيه دون تنكر.. كن حريص أشد الحرص ولا تجعل أحد يعرف بأنك المداوية آية.

أخذ ما يعينه ثم أستودعها صندوقه ورحل.. أستمر متنقلاً.. يطرق أبواب النساء.. يعرض عليهن مهاراته يتلو عليهن ما تيسر.. في الوقت الذي كان يرهف السمع باحثا عن خيط يطمئنه عن ابنته.. مهموماً بلقياها.

يعود إلى بيت عمادة بين فينة وأخرى.. مندهشاً من ظهور عوارض حمل زوجة ابنها.. وكذلك يردد البعض بشفاء مريضة أخرى كانت تعاني من الصرع.. وثالثة عاد الود بينها وبين زوجها. ورابعة جاءته وقد تخلصت من مس كاد يطير بعقلها.. ينزوي شاكيا حيرته من استمرار انقطاع أخبار أبنته.. تنصحه: دع الهم بشادن حتى يظهر لها خبر.. وتفرغ للإعداد والترتيب لمقارعة الحصن.

أنشغل شنهاص باصطفاء من يرى فيهم الثقة.. كانت خطواته تتم بحذر شديد.. يزودهم بالقليل من المال لشراء بنادق ورصاص وإخفائها عن الأعين.. لم يكن يعرف أي منهم بالآخرين.. مكلفا كل فرد باستقطاب من يثق بهم.. وأن يكون تواصلهم سراً.. ظل حريصا على ألا يعلم كل فرد بأفراد مجموعته. يعود ليحدثها بأدق الخطوات التي أنجزها.. يبشرها بأن له شبكة واسعة تغطي قرى "غرب الوادي".

.....

ظل اختفاء بنت شنهاص يشغل الجميع.. ليتزايد قلق زيد من التقاءها بأبيها الذي تماها من خبر تسلله ولم يعرف إليه طريقاً.. ولا إلى رجاله.. ولذلك تساوره الشكوك بأنه لم يتسلل إلى الوادي بعد.. لكن شكوكه تلك تبخرت حين جاء من يخبره أن شنهاص التقى بعض الرعية.. ليحل اليقين من وجوده بداخل الوادي. زاد زيد من الحاحه على الشيخ بضرورة الخروج .. ليتزايد شكه حول نوايا مستشاره.. ويخشى أن له أطماع غامضة.. وليس كما يدعي حبا وإخلاصا له. ولذلك سأله بتهكم:

- أين وصلت في بناء الضريح؟

أدرك زيد عدم براءة السؤال.. لكنه أبتسم وهو يراه ضعيفاً ولم يعد له غير لسانه.. ولذلك رأى أن لا يظهر بمظهر القوي. كبت غيظه وفي هدوءه أجابه بدون مراوغة:

- قارب على الانتهاء.

مدركاً أن يقظته متأخرة.. فلم يعد يمتلك القدرة على تجاوزه.. وبدون أن يأمره كما كان في سابق أيامه.. أخذ يحثه متسائلا:

- ألا ترى بأن أمر شنهاص وأبنته قد طال.

ابتسم لتلك اللهجة وقال:

- نعم.

ذلك اليوم لاحظ مرداس خطاب زيد الذي تحول وكأنهم أنداد.. يتكلم كما لو كان صاحب الأمر.. بل كمن أكتفى بنفسه.. ظاناً بأنه الوالي على الوادي. لحظتها أضمر مرداس بأن يبعث برسالة إلى ابنه جمال يستحثه سرعة العودة.. وكانت العقبة من سيحملها إلى صنعاء لإرسالها.. فكر باللجوء لأم جمال عيشة.. أن يناقش معها أمر شكوكه من نوايا زيد.. لكن الخجل كبله وهو المجافي لها منذ طلاقها.. بنتاه اللواتي لا يعرف بأنهن خرجن يوما من بوابة الحصن.. متحسرا عدم تزويجهن.. متخيلا وجود أزواجهن وأولادهن حوله. لأيام يفكر ليقرر الركون على عاقل قرية المنحدر.. ولم يبطءِ حين أرسل في طلبه بعيدا عن أعين فاطم.. محذرا إياه من عدم معرفة زيد بذلك أو أي كان.. وبالفعل خرج من الوادي في طريقه إلى صنعاء لإيصال الرسالة لمن سيرسلها إلى مصر من صنعاء.. وقد ضمنها "أبني الغالي وقرة عيني الولد الصالح الشيخ جمال مرداس حماه الله ورعاه.. ولدي الكريم غرض رسالتي إليكم السلام والاطمئنان على أحولكم بعد انقطاع رسائلكم وأخبارك عنا.. يساورني القلق من ذلك.. نحن بخير ووالدتك بخير.. وما ينقصنا سوى رؤية وجهك الطاهر.. وأخبار دراستك. ولدي ومهجة فؤادي.. لا أخفيك أن الطامعين بمشيختنا كثر.. فشنهاص فر من محبسه ويعد العدة بمؤازرة مشايخ المخاليف الأخرى للهجوم.. لكني قادر على ردعه.. ولكن ما هو أدهى أطماع الفاطمي زيد.. مستغلا وحدتي وكبر سني.. وأظنه الآخر يعد العدة للتسلط على الوادي.. بعد أن ائتمنته ظاناً برعايتنا له طول سنين عمره.. ولا أخفي عليك أنه يشيِّد ضريحاً كبيراً في قريته الهجرة يدعي بأنه للمهاجر الأول من سلالتهم.. ويساورني الشك بأنه يريده مزارا.. كما كان ضريح جدك الكبير قبل هدمه رمزاً لسلطاننا.. ولم يعد من أعتمد عليه بعد أن تراكمت علي سنين العمر.. ولم يعد لي أمل إلا فيك. ولدي الغالي وقرة عيني.. نحن ننتظرك والوادي ينتظرك.. فأنت شيخه ووارثه.. العَجَل العجَل قبل فوات الأوان.. والدتك تسلم عليك وخواتك.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

.....

لم تكن "عيشة" بعيداً عما يدور.. تتابع أنشطة زيد وركون الشيخ عليه.. لكن ما كان يشغلها انقطاع رسائل ابنها.. ولا تجد وسيلة للتواصل به. وتشعر بالعجز وهي ترى كل يسير في اتجاه لا يصب في صالحه. ولم تعد تأمل خيراً من مرداس الذي أنكفأ على نفسه تاركاً كل شيء لصهره الفاطمي.. ولا تعرف هل هو عجز منه.. أم يأس. أم أنه يظن بأنه يسير في الطريق الصحيح.

استأنست عيشة بالوحدة.. حتى أن ساكنات الحصن ينسن وجودها لأيام.. حتى إذا ما التقين بها في مناسبة أو زيارة.. تذكرن وجودها.. وتلك الزيارات من النادر بينهن.. خاصة في السنوات الأخيرة.. تساورهن الدهشة من أسلوب حياتها. فبنات شبرقة منسيات منذ موت أمهن.. وفاطم تعاني أوهام ظانه بأن من في الحصن وراء تعاستها. ولذلك تحولت دور الحصن إلى جزر منفصلة.

كانت رسائل جمال تصلها وقد خط اسم والده على غلافها الخارجي.. في أول رسائله كان الشيخ يفضها ليجدها موجهة لعيشة.. ثم عدل عن فضها مكلفاً من يصلها إليها. ولم يكتب إلى والده قط.. وبدوره الشيخ لم يبعث إليه منذ غادر. ومنذ انقطاع رسائله تخرج والدته السابقات.. تبسط رسائله أمامها متجاورات.. تترك لعينيها أن تسرح.. ثم تعيدهن بعناية إلى مرقدهن كنفائس. ونادراً ما تستعين بخادمتها أم شادن لإعادة قراءة بعضهن. تساورها ظنون من أنه يبعث إليها برسائله.. وأن أحداً ما يخفيها.. بحثت عن وسيلة لتتأكد من ظنونها.. لكنها لم تصل إلى نتيجة.

تدمع عيناها ألماً على حالة الحصن وما آلت إليه.. زوج لم يكتفِ بتطليقها.. بل وحرم عليها الخروج أو استقبال أي أحد من خارج الحصن لزيارتها.. حتى أفراد أسرتها.. تساورها الشكوك أن يكون هو من يحتجز رسائل ابنها.. وما كان يؤلمها أكثر أنه لم يولِ ابنها يوما اهتمامه كما كان مع ابناء شبرقة. ما أثر على ابنها الذي لم يبدِ أي اهتمام بشؤون الوادي.. ولم يشابه أخوته شغفهم بالمشيخة. ولا أخذ من والده ولو القليل من حب التملك والتسلط. لم تكن تعرف أن أبنها استمر ببعث رسائله إليها.. ولم تنسيه واجباته الدراسية بعد أن تخصص في مجال الـ "دروع".. ولم يكن لينساها.. ولا ينتظر منها رد فهو يدرك صعوبة ذلك.. ولذلك لم ينتظر يوماً رداً.

في القاهرة حرص جمال على اقناع نفسه بأن الإنسان بإرادته يستطيع أن يتجاوز العقبات.. فرغم ميله للين ثابر على التحصيل والتفوق.. حتى لا يمنح من حوله فرصة النظر إليه كطالب رقيق الطبع.. تحمل تلك التدريبات العنيفة.. والانضباط الشديد.. ولذلك كان داخل الكلية طالباً معروفاً بين زملائه وأساتذته بالالتزام والتفوق.. ولم يكن يجرؤ إظهار ميوله

للين.. رغم إحساسه بوجود أمثاله بين الطلبة.. فهو داخل الكلية غيره خارجها. ينتظر الإجازة ليطلق لروحه العنان.. وليعوض ما يفتقده خلف أسوار الكلية. ما أن يخرج من البوابة ليعرف إلى أين ينطلق.. متحاشياً مرافقة زملاؤه. فلا تنقصه الوسامة ولا الطول.. متعوداً الاعتناء بمظهرة ونظافته الشخصية منذ طفولته.. ولذلك يبدو مختلفا عمن سواه من الدارسين اليمنين.. مفضلاً عدم ظهوره بلباسه العسكري.

مع مرور الأيام كان جمال يتصور اليوم الذي سيغادر مصر إلى صنعاء. يفكر في كيفية حياته بعد عودته وقد أصبح معلماً لطلبة عسكريين.. يرى نفسه بمظهر وانضباط مقنع.. وتصرفات تتسم بالخشونة. كثيراً ما أقلقه التفكير بيوم العودة. يتمنى لو أن الحياة تستمر بعيداً.

.....

جنح زيد للعمل الهادئ بعد تهكم مرداس من بناء الضريح. معتمدا على عيون له في متابعة تواصل شنهاص بالرعية.. راصداً أولئك الخونة.. ثم كلف فرقة سرية بزيارة بيوتهم فجراً.. وبصورة مفاجئة يقتحمونها بتكسير أبوابها ونوافذها.. ينتزعون أرواح ساكنيها ببلطات وفؤوس تهبط على رؤوسهم وأضلاعهم.. وبسكاكين تُحز بها رقاب ضحاياهم.. وحبال يطوقون بها رقابهم.. ولا يغادرون إلا وقد أشعلوا النيران في أركانها. ليتنفس الصباح على حريق التهم كل شيء يصاحبه عويل الجيران ونحيبهم.. ليهمس البعض بأنه سمع ليلاً أصوات زاعقة.. وآخرين سماعهم تهشيم ثم سكن كل شيء. وهكذا ليلة بعد أخرى انتشر رعب زوار الفجر في قرى الوادي. وقد أشاع أمناء المساجد بين المصلين بأن وراء تلك المذابح شنهاص وأبنته. مؤكدين بأنهم من يتخفون بأردية الليل لتنفيذ جرائمهم.. يدعون الرعية لملاحقتهم.. ويحرضوهم على قتلهم. بينما كان البعض يهمس بخوف أن من وراء ذلك زيد.

سأل الشيخ مستشاره حول تلك الحوادث.. ليبتسم منتشياً وهو يرَى مرداس عاجزاً حتى عن فهم ما يدور. ليرد عليه: يقول الناس أن شنهاص وابنته من وراء كل تلك الجرائم.

.....

أمست فاطم شبيهة بزوجها مرداس.. تعيش الوحدة وقد بدأ حلمها بطفل يذوي يوما بعد يوم.. لتجد نفسها وقد تعودت حياتها بعيداً عن أنظار من حولها.. وإن أظهر لها والدها حرصه على إعادتها إلى ما كانت عليه من تواصل بمن حولها.. أن تهتم بأبسط ما يتفوه به زوجها وبكل تحركاته حتى لو كانت بداخل داره. ورصد من يتواصل بهم. منبهاً لها بأنه منشغل عنه بملاحقة شنهاص ومن يتواصل به.. وكذلك استكمال الضريح. يشرح لها مقدار الجهود التي يبذلها وجهود أخوتها الذين ينشطون كلا فيما أوكل إليه. لتفاجئه ببكائها:

- ولماذا البكاء والنواح يا ابنتي؟!

- وأنا أين أنا من كل ما تحدثني عنه؟.

- أنت قرة عيني وما كل ذلك العناء إلا من أجلك وأجل أخوتك!

- لكني لا أريد شيئاً.. لا أريد شيئاً.. ولا يعنيني كل ذلك التعب!

صمت فاغر الفم وكأن من أمامه ليس فاطم صاحبة الابتسامة والكلمات المشجعة.

- ستقولين أنني لا أتمنى ما تتمنينه يا ابنتي الغالية.

- لا أحد يهتم بي.. ولا أحد يسألني عن حالتي.. ما أسمعه منكم دوما أن أهتم بما يدور في الحصن.. وأن أرهف السمع للعجوز مرداس ولنساء الحصن.

- لقد بذلت جهدي معك.. ولا أعرف كيف أساعدك!

- أن تتركوني لوحدتي علَّ الله يتقبل مني.

أطرق أرضاً بصمت وحيرة من دموع أبنته وكلماتها:

- لا احتمل رؤية دموعك.. وشعورك هذا.. فأنت ابنتي الغالية.. فلست كما تصورتي ولست انانى.. لكنها الأقدار يابنيتي.. وعليك أن ترضين بالقسوم.. ولا تأتمني الغرباء.

خرج مصدوماً من حالة ابنته.. تلاحقه كلماتها.. لا يعرف إلا أنه شاور أمها.. ورجاها بإقناع أن تطمئنها بأن الجميع يشعرون بها ويقفون معها: لا أريدها أن تموت حية.. العزلة تعني الموت.. وعليك أن تقنعيها بأن تنفض عزلتها.. حثَّ والدتها بعينين دامعتين ناقلا مخاوفه على فاطم من الانطواء على ذاتها.

.....

قرر خال قارون العودة إلى الهجرة.. ترك زوجته وأولاده ليفر من الوادي بعد أن وصلته أخبار تحركات حراس الحصن ومداهماتهم لبيوت أقارب المغضوب عليهم. ودَّع أسرته ليلاً وهو في طريقه إلى عدن. وأثناء تسلله خارج الوادي سمع أن ابن أخته قارون موجود في إحداها.. ليلتقي بشابٍ تجاوز السادسة عشر.. يشابهه في أشياءٍ كثيرة.. عيناه الضيقتين شفتيه.. قامته القصيرة.. وكأنه هو في سنوات صباه.. فاضت عيناه. وقد تذكر أخته الراحلة.. يعزيه.. صدم قارون لخبر مقتل أمه. وكأن ما ينقصه هو موت أمه.. ليزيد من عبث التشرد والضياع. دعاه الخال للرحيل معه.. يحدثه عن بلاد لا يوجد فيها مشايخ.. ولا اقتتال.. بل وديان على مد البصر. حدثه بأنه عاهد شنهاص باللحاق به.. لمناصرته في مقاتلة مرداس.

ليقف صاحبه عرام مؤيدا لفكرة الخال مرددا "أرض الله واسعة ياصاحبي". أحتار قارون بين عهده للشيخ شنهاص.. ودعوة خاله ورغبة عرَّام للهروب بعيدا. لتنتصر كفة عرَّام الذي كان يقلد صوت شنهاص ساخراً "ياقارون أترك هذا الشيوعي.. سيفسدك ياولدي.. وأدعوك إلى طريق الله" ولم يكن يعرف عرام إلا أن كلمة شيوعي شتيمة.

.....

وسط برودة ذات صباح أنتظم صف قصير في أطراف الدرم أمام عاقل إحدى القرى وعدد من حرس الحصن.. لم يكن غير خمس ممن فقدن عيونهن.. وقد تجمهر من الصغار والكبار حولهن.. في الوقت الذي كانت شادن تلوب داخل كوخها في خوف كاد يفقدها صوابها.. مر ذلك الصباح بطيئاً وثقيلاً حتى عادوا بالعمياء إلى كوخها.. ليغادر العاقل ومن معه خاليين الوفاض. سألتها شادن عما يحدث.. فأخبرتهن العمياء: أنهم يقولون بأن الشيخ أرسلهم يطوفون القرى والادرام باحثين عن امرأة فرت من الحصن.

منذ ذلك اليوم قل حديث شادن إلى العمياء.. تشعر بأنها ترى وجهها.. تمد يديها تمتد لتغطي عينيها.. ترهف السمع حين تتحدث إلى ابنها.. تسأله هامسة عن ملامحهن فلا يشفي شكوكها. حتى هامسها ذات نهار بأن شادن ذات عاهة في عينها. ومن لحظتها عادت لصمتها.. ولم تعد كما كانت تتحدث إليها. إلا أن زهرة ظلت بحاجة إلى حكاياتها.. تتقرب إليها.. في بداية الأمر جلست إليها ممسكة بكفيها.. تتأمل تجاعيد وجهها القريبة إلى نفسها.. تتملكها السعادة وقد وافقت على غسل يديها ووجهها.. أو تفلِّي شعرها. لتجد العمياء تعود لطبيعتها وقد خرج همسها كأنين شجي. ويوما بعد يوم أخذت تدندن تشعر بحركة زهرة وهي تنظف فراشها تزيل مخلفات وبقايا أطعمة قديمة. ومع قدوم الليل تصطحبها خارج الكوخ لقضاء حاجتها. مع الأيام ترفع العمياء صوتها ببقايا أغانٍ وكأنها تغني لنفسها.. لم تكن تعرف زهرة بأنها ستطرب لذلك الأنين.. حتى ذلك الصباح حين صاحبتها مدندنة.. ما لبثت العمياء أن رفعت صوتها.

تسألها زهرة أن تحدثها عن حياتها.. وكأنها كانت تنتظر ذلك تتدفق كلماتها: لم أكن منذ ولدت عمياء.. كنت صبية في مقتبل العمر حين وفد إلى درمنا البعيد خلف تلك الجبال.. رجل وحيد في عمر أبي.. شعره مرسل.. ووجهه يبث السعادة.. ملابسه غريبة.. حتى كلماته ينطقها بليونة.. لا أحد يعرف من أين أتى.. كان الجميع يتحاشونه حتى تلك الليلة حين أشعل بعضنا نار ساحة الدرم.. تقاطر بعضهم حولها.. رأيته وقد جلس ممسكاً بمزماره بين أصابعه ينظر بشغف إلى السنة النار.. يبتسم بين وقت وآخر.. بعد وقت رفع مزماره إلى شفتيه وبدأ بالعزف دون أن يبعد ناظريه عن النار.. خُيل لي أن السنة النار تتراقص لنغماته.. تمايل البعض في مكانه طربا.. وتوافد من بقي في الأكواخ لتتسع دائرة اللهب.. نهض قلة يرقصون على نغماته.. ارتفعت أصوات جوقة صبايا يجارين عزفه. كانت نظرات الحضور ملتصقة

بوجهه.. سُحرني عزفه وشعرت به يتغلغل إلى مسامعي وروحي.. في لحظة التقت عينانا شعرت بمس يهز وجداني.. أبتسم فابتسمت له. كانت المفاجأة حين حضر صباح اليوم الثاني يفاتح والدي بأنه اختارني زوجة له.. تعجب ابي وهو يراه في سنة.. ثم التفت إليَّ ليرَ ابتسامة تغطي ملامحي.. قال لي: إذا كنت ترغبين أذهبي معه.. فبرغبتيكما تصبحان أزواج. ومن يومها خرجت من الدرم أرحل معه بين القرى.. علمني كيف أغني. وراقصني حتى أجدت الرقص على أنغامه. كنت صغيرة وهو رجل كبير.. حين ينفخ مزماره أشعر بروحي تئن منتشية.. أبكي فرطاً وأرجوه المزيد. ظنته سحرني.. لكنني حين رأيت مزماره يسحر من يسمعه عرفت بأنه غير ساحر. ودوما يردد: أنا لا أزفر هواء بل هي روحي من تسكن اليراع.

ومع طوافنا وصلنا وادي مرداس ولنا صبية تجاوزت العاشرة.. وأخوها هذا محمد كان لا يزال صغيراً.. وكان زوجي قد أمسى هرماً.. وإن ظل عزفه شجياً لا يماثله عزف.. لم يطل به المقام.. فمات لندفنه هنا في كوخه الذي نجلس الآن فيه.. ومن يومها لم أنتقل من هذا الدرم. ولم يعد لي بعد موته رغبة بالرجال أو الرقص والغناء.. برحليه مات شيء في روحي. شبت ابنتي وظهرت مفاتنها.. تزوجت بشاب تحبه.. وسكنوا الكوخ الذي تسكننه الآن.. ولم يطل بهم المقام.. حيث رحلوا سوياً.. ولم يعودوا إلينا.. وتركوا كوخهم مقبرة لمن مات.. ضاع زوجها وضاعت مني.. وذهب نظري بعدها.

- كيف ضاعت؟

- في يوم عيد جاء رجال "عنصيف" ابن الشيخ مخيرين سكان الادرام بالرحيل خارج الوادي أو الموت.. صعد الجميع يتسولون الحصن البقاء.. قبِل عنصيف تسولهم مشترطا أن يعمل المقتدرون في مزارعهم.. وكانت ابنتي وزوجها بين المقتدرين.. عدت وصغيري محمد مع من عادوا من كبار السن والأطفال.. ومن يومها لم أرَ أبنتي.. إلى أن حين جاء من يخبرنا أن زوجها قُتل.. ثم بعد موته بسنين جاء خبر موت أبنتي.. بكيت كثيراً.. وأصيبت عيني برمد أبيض.. عانيت منه ولم يتركهما إلا وقد سرق بصري. غابت عني ألوان الحياة.. ولولا هداية الله لأبني محمد لكانت حياتي عذاب.

مع تلك الحكايات تسرب شك إلى قلب زهرة أن من تجالسها هي أم أمها.. مفضلة الاحتفاظ بذلك الشك وعدم البوح به لأحد.. ليزداد شغفها بحكايات العمياء.. تسألها المزيد.. فترد عليها بحنان: أنا لا أراك.. لكني أشعر بأسى يسكن قلبك.. كما أحس من صوتك عشقك للحياة وللمغنى. وتطلب منها إذا ما غنت أن تغمض عينيها.. وأن تترك لبدنها أن يهتز مع صوتها. وتتمنى عليها أن تصاحبها حين تغني. كانت شادن تتابع تلك العلاقة وتسعد أن زهرة استطاعت أن تقترب من العمياء. تتابع وقد أخذت زهرة تساير بصوتها أغنية التقطتها العمياء من قعر ذاكرتها.. يرتفع صوتيهما وقد أغمضت زهرة عينيها منتقلة إلى عوالم من الوجد..

شعور بالسكينة يطوق شادن وهي تسمعهن.. تلك الأحاسيس تنسيها هموم واقع يلاحقها.. وأن صوتاهما يسكن روحها. يوماً بعد يوم تغنيان معاً.. يشعرها الغناء بالأمان. وفي ذات يوم طلبت العمياء من زهرة أن تبحث عن مزمار في أحد الزنابيل المعلقة.. بعد أن وجدته أخذت تقلبه بين يديها.. يراع حفرت ثقوبه الجمر. يغطي أطرافه دبق متيبس.. قالت لها:

- لمن هو؟

- هذا لزوجي.. هو لك.. حرريه من صمته.

جربت زهرة النفخ فيه.. لتخرج منه أصوات جافة.. سمعت ضحكة العمياء:

- خلقتي لتغني.. وذلك المزمار أمانتك.. ستجدين يوما من يجيد زرع روحه فيه.. أمانتك لا يظل مهجوراً:

- وأبنك محمد.

- لقد حاول مراراً.. لكنه لا يملك روح المغنى.

تدندن زهرة وقد انشغلت بتقليب المزمار بين أصابعها.. ثم تخفيه بفرح طفولي بطرف طرحتها.. وقد تعلمت أن المغنى بوح الروح.

الصباح موعد مجالستهما.. كل منهن تتأهب لتستمع للأخرى.. تبدأ زهرة بسؤال.. ليتدفق صوت العمياء بحكايات جديدة.. تتساءل زهرة: لماذا لم تطلب مني أن أحكي عن نفسي كما أطلب أنا منها؟. وتتعجب حتى أنها لم تسألها عن أسمها أو بنت من تكون.. ودوما تصفها بـ "ابنتي". تعرفت زهرة من حكاياتها على حيوات لا تشبه حياة حصن مرداس.. ولا تشابه حكايات شادن.. وأن حياة الترحال لا تهتم أن يكون لك سكن.. ولا يفكرون بالغد ولا بهموم المعيشة. تردد العمياء حين تسألها زهرة:

- لماذا لا أجد في حكاياتك الهم بالغد؟

فترد عليها ضاحكة:

- يا ابنتي يومنا عيدنا.

.....

رحل الثلاثة عبر وديان متداخلة وجبال لا تنتهي.. يحدثهم الخال عن سنواته الطويلة في مدينة بشرق السودان "القضارف". حيث عاش سنوات يزرع في سهولها الواسعة حب العزيز "فول سوداني". حيث غيث السماء الجواد.. وبحر السهول الواسعة.. وعن تمازج

الأحباش بشباب الغرب والجنوب حين يلتقون في مواسم الحصاد.. يصور لهم المستقبل وقد أضحوا مزارعين.. يمنيهم بوفرة المال والحياة المستقرة. قارون يحاول تصور حياته الجديدة.. بعيداً عن واديه.. الذي لم يعطه غير اليتم والحبس والتشرد.. يحاول تخيل صفحة جديدة من عمره.. تاركاً قلبه هناك حيث روح أمه.

قطعت بهم الدواب بلدان يتقاسمها مشايخ كثر.. فيها الرعية يشابهون رعية وادي مرداس.. كل شيء حق الشيخ. ليَّعرف أن شعب اليمن وديان تتقاسمها حصون تشابه في سطوتها وتسلطها حصن مرداس. بعد أيام من السفر وصلوا مدينة صغيرة "قعطبة" ومنها اقلهم حوض سيارة "لاند روفر". لتعبر بهم بلاد "شعيب الضالع" مرورا بـ "يافع" و"الحبيلين" وصولا إلى "حوطة" لحج ومن أراضيها المنبسطة أشار عليهم الخال إلى نقطة داكنة في طرف الأفق جبل"شمسان". ظن قارون أنهم سيعبرون من عدن إلى السودان كما عبروا البلدان السابقة.. لم يتصور أن يرى بحراً بذلك الأتساع.

غادرهما الخال إلى السودان بعد أيام من وصولهم عدن واعداً بإكمال وثائق سفرهما وإرسالها من الخرطوم خلال أيام.. لكنها الأيام تمضِي وتلك "الشلنقات" التي تركها لهم تتناقص.. حتى صرفا آخر قطعة.. عانا النوم على الأرصفة والحدائق.. تذوقا الجوع.. فلم يكونا يجيدان إلا حمل البنادق. دلهم أحدهم على الـ"دكة معلا".. تعرفوا هناك على عمال قدموا من جبال بعيدة. أسكنوهم بينهم.. واصطحبوهم صباحاً لتحميل "البوابير" من السفن الراسية على الأرصفة. أثقال بالات أضعاف حجم قارون. أنسحب يواسيه عرَّام شاعرا بذنب أقترفه حين أقنعه بالرحيل برفقة الخال. يقاسمه لقمته ويرد عنه سخرية الساخرين لفشله.

عاد قارون يذرع الشوارع وحيداً.. يتأمل تلك المعارض الكثيرة.. تعجبه "مانكينات" عروض الملابس من النساء.. حركة الناس.. تحاصره الغربة ويحن بالعودة إلى الوادي.

.....

لا تجرؤ شادن الخروج نهارا من الكوخ.. توزع وقتها بين سماع منادمة زهرة والعمياء.. واستراق النظر من شجوج الكوخ لحركة الشوارع الخلفية.. وبين النوم.. حتى إذا ما عاد محمد تنصت إلى حديثه وأمه. وما أن يحل الليل حتى يحيطها بسكينته ما نحاً روحها الأمان.. تبتعد ومحمد عن الدرم محاولة الفكاك من شعور يكبلها وكأنها لم تتحرر من أسر الحصن.. تنسى كل غمها وهو يحدثها: رأيت حراس الحصن وعقال القرى يبحثون عن رجال دون أكف.. قالوا بأنهم تسللوا إلى الوادي ليقتلوا الناس.

تلك الليلة عرفت بأن والدها قريب منها.. وأن عليها أن تغامر لتلتقي به.. تفكر كيف تستدل على الطريق إليه؟. ظلت لليال تستمع إلى محمد.. تعده بزهرة إن حدثها بكل ما يتحدث الناس به. لم تكن تعرف أنها بدفعه لسماع الناس كانت تلفت الناس إليه.. وانتباه من تلفتهم

تصرفاته.. ليستدرج أحدهم سذاجته ويعرف منه أن في كوخه امرأتين تختبئان منذ أيام.. وأن أحداهن عوراء.

ليفاجئها برفضه الحديث إليها.. خمنت لحظتها أن في الأمر جديد.. أمعنت النظر في عينيه علَّها تُخجله.. لترى غياب ابتسامته البلهاء.. تابعته وهو يجالس أمه مهامستها.. تيقنت من شكوكها.. وأن هناك خطراً ما.. ليمسي الشك يقيناً برفضه الخروج معها مساء. وحين الحَّت فاجأها رافعاً صوته:

- أنت تقتلين الناس!.

- أي ناس؟

- الناس وبس.

- من قال لك ذلك؟

- الرعية.

- أي رعية؟

- لماذا تكذبين على أمي.

- بماذا كذبت؟

- بأنكن خوادم!

- ..... ؟

- وقالوا أن القاتلة بعين واحدة.

- ألا تريد زهرة زوجتك؟.

- زهرة زوجتي.

- وأنا!

- وأنت سيأتون ليأخذوك!

لحظتها جن جنونها وقد خرجت عن طورها:

- من الذين سيأتون؟

ركن محمد إلى صمت أمه.. بينما زهرة كانت تراقب مايدور مرتجفة. تأكد لشادن يقين ظنونها.. وأن ذلك المعتوه سيقودهن إلى الموت دون إدراك. عادت تهامس زهرة بأن تستعد للرحيل. لم يعد لها من خيار. خرج ليوقد ناراً أمام الكوخ.. ينظر إلى داخل الكوخ تارة ثم إلى ناره ليزيدها حطباً.. فكرت شادن بفتح ثغرة في سياج كوخهن لتهربا من الخلف.. لكنه سمع تهشيم عيدانها.. ليهب مسرعاً يصرخ بكلمات ملتبسة.. يبرطم لائباً حول الكوخ.. قررت شادن المضي قدما نحو الباب .. حين رآها تقترب من الباب صارخ:

- لن تخرجي حتى يأتوا.

- لا نريد رؤية أحد أتركنا نمضي!

- لقد وعدتهم.

كانت أصواتهم تتزايد وقد احتضنت زهرة العمياء التي كانت تهز منتحبة.. بينما محمد يلوح بفأسه أمام حلق الباب كالمجنون.. ليرتفع صوت شادن وقد رأت بعض الأخدام يتجمعون:

- أتركنا وسنعود إليكم...

وقبل أن تكمل تقدم بفأسه مهددا:

- لن ترحلي.

استدارت حاملة بندقها.. وما أن رآها حتى رفع صوته: لا تحاولي.. لن ترحلي.

أضطرب صوابها وهي ترى على ضوء اللهب مزيداً من الأخدام يراقبون ما يدور.. صرخت مهددة:

- سأقتلك ان وقفت في طريقي.

صوبت بندقها مهددة ومحاولة الخروج.. أزداد هذيانه بكلمات التهديد.. ليرتفع صوت أمه منتحباً:

- أتركهن يا ولدي وأقصر الشر.

رد غاضباً:

- لن أتركهن.

خطت شادن خطوة أخرى خارج الباب.. هرول نحوها رافعا فأسه.. انطلقت رصاصتها تبدد صفوف من تجمعوا وقد اخترقت صدره.. أرتفع صراخ العمياء وزهرة التي ظلت تحتضنها.. وبعنف سحبتها شادن خارج الكوخ مخلفة محمداً أرضاً.. ارتفع نباح كلبه خلفها

لتستدير وتصرعه برصاصه.. زاد تجمهر سكان الأكواخ في بلاهة وخوف يقفون.. هرولن مبتعدات دون أن يعترضهن أحد.. حتى برز رجل من بينهم مهرولا خلفهن:

- ماذا تنتظرون.. اتتركوهن يفرين بفعلتهن؟!

استدارت شادن موجهة فوهة بندقها نحوه علّه يتوقف.. لكنه زاد من هرولته خلفهن.. لتدوي رصاصة أخرى شتت شمل من خلفه ليتواروا في الظلام.. لا تعرف إن كانت أصابته أم لا.. لكنها رأته يتهاوى في العتمة.. أسرعت ممسكة بذراع زهرة ليختفين وسط الظلام.. يلاحقهن نباح كلاب تطغى على صراخ العمياء حتى خبا. عبرتا السهل بصعوبة لشدة الظلمة .. يتوقفن بين فينة وأخرى فلا يسمعن غير صرير الحشرات.. واصلن السير حتى أطراف دغل مجرى مياه النبع.

.....

يصاب شنهاص بإحباط لتتابع إحراق بيوت انصاره بعد ذبحهم وأفراد أسرهم.. لم يتوقع ما يحدث.. معتبرا ذلك مؤشر لاقتراب عيون زيد منه.. يتصور وقد حلت لحظة اكتشافهم لسره. لجأ لعمادة يستشيرها فيما يجب عمله.. ولم يكن يتوقع أن تحدثه عن شادن: يقولون بأنها قتلت خادمين حاولا اقتيادها. ثم فرت إلى الجبال.. وأنها تأخي السباع. ذلك الخبر أعاد له الأمل بلقياها. لكنها حذرته من أن يجعل عاطفته مصيدة تقوده إلى حتفه.. كما رجته أن يضع كل همه لردع زيد بعمل مماثل لما يقوم به تجاه أنصاره.

أنشغل شنهاص بزياراته المتكررة لهجرة الفواطم.. يخطط لتنفيذ أول هجوم.. أقترب من دور زوجات زيد.. ليختار دار إحداهن بعد أن سمع بأن زيد يبات معظم لياليه جوارها لصغر سنها. ثم التقى بمجموعة من مناصريه في بيت أحدهم ليلاً:

- أن لم نبادر إلى ردعه فسيرسلكم رجالة إلى الآخرة الواحد بعد الآخر.

رد أحدهم بيأس.

- وما العمل؟

- جمعتكم الليلة لنخرج سويا ننفذ عمل بسيط.. فإن أرتدع زيد وإلا فستكون هجمات متتالية.

كان شنهاص حريصاً على أن لا يعرفوا قط بأنه تلك المداوية التي تطوف القرى وتزور نساءهم.. وقد عرفوه حليق الدقن والشارب.. يعتمر شالاً.. متزنراً بجنبية. قادهم تلك الليلة ليعبروا الوادي باتجاه هجرة الفواطم. ولم تشرق شمس اليوم التالي حتى كان الوادي يتحدث عن مقتل إحدى نساء زيد وأطفالها وجميع من في الدار من خدم.. ليعرف شنهاص أن زيد أفلت منها.

من سمعوا ذلك الدوي عرفوا أنه انفجار نواسف قلبت عالي الدار سافله. نشط بعدها أمناء مساجد القرى في بث شائعاتهم بأن من نسف دار زيد هو من يحرق دور الرعية.. بعد تلك الليلة عاد السكون المحفوف بالحذر يعم الوادي. وأخذ كل طرف يعد لجولته القادمة.

.....

أرسلت زوجة زيد الكبرى وأم فاطم من يجلب إليها المداوية.. ليفَاجأ شنهاص ذات نهار بمن يتبعه: لقد أرسلتني زوجة المستشار زيد لأن اصطحبك إليها!

أرتبك هابطاً من فوق دابته.. يتأمل نظرات ذلك الفتى جامدة وهو ينظر إليه.. دارت في رأسه عدة صور.. يرى نفسه وقد كُشف سره لزيد.. وما تلك الدعوة إلا أسلوب من أساليبه.. أو أنه يريد أن يكبله ليشفي غليله قبل أن يرسله بعدها إلى الحصن ليوثق إلى عمود التعذيب في الساحة.. رد بصوت متذبذب:

- ما حاجتها لي؟

- لا أعرف.. لكنها قالت لي لا تعود إلا بها.. وقد طفت عدة قرى باحثاً عنك.

بحث بين كلمات الفتى عن مؤشرات لصدق ما.. لكنه شعر بخوف ينخر أعماقه.. وقد أرتد زفيره في حركة لا إرادية.. وكاد يختنق.. يفكر في أسوأ ما يكون وذلك الفتى يقف منتظراً رده.. ظل صامتاً يتلو في سره ما تيسر.. محاولاً تهدئة نفسه. ثم قال:

- سأزورها غداً أو بعد.

- أوصتني أن لا أعود إليها إلا بك.

يقود الفتى الدابة.. وشنهاص صامتاً كالمسحور.. لأول مرة في حياته يشعر بأن عقله شُل.. يحدث نفسه: لو كانوا يعرفون من أنا لأرسلوا من يقتادني بكل عنف وليس هذا الفتى. ظل الفتى يسير به من قرية إلى أخرى حتى أقترب به من هجرة الفواطم.. حينها ظهر مبنى الضريح في بياض جدرانه الآسرة.. تزهو قبته بأعلامها الخضراء.. ما أن صعدوا وحاذوا الضريح حتى رأى تزاحم الناس يطوفون حوله.. وتلك الشوارع لم تكن كما تركها آخر مرة.. وقد كنست وضللت بأشرطة ملونة.. وبدت جدران المنازل تشع ببياض "النورة".

لاحظ أن جميع من يصادفهم يسألوا الفتى الذي كان يرد منتشياً وكأنه أنجز عمل عظيم. دهش حين أقترب من دار زوجة زيد لتجمع عدد من النساء بعد أن عرفن بقدومه.. وأخريات قادمات بخطوات عجلا وكأنهن يلحقن بحدث مهم.. وما أن ترجل عن دابته وخطى نحو الداخل حتى تزاحمن لكسب وده.. سمع أحاديثهن بأن زيداً قد دعا العقال وأمناء القرى لإحياء

ذكرى دخول اليمنيين الإسلام حول الضريح.. وما زاد ذعره حين عرف بأن ذلك الفتى أحد حراس زيد المخلصين. حين شكرته الزوجة وكلفته إبلاغ زيد السلام.

.....

في ليلة أول جمعة من رجب خطب زيد إلى الجموع التي حضرت من مختلف قرى الوادي عن مكانة صاحب الضريح وكراماته.. مسلسلاً للجميع نسبه الطاهر الذي يصل به إلى البتول الزهراء سيدة نساء العالمين بنت أكرم خلق الله سيد الرسل وحبيب الله.. موضحا مكانة آل المصطفى من سكنوا وادي مرداس منذ سنين بعيده.. وأولهم صاحب المقام. داعيا الجميع لتعظيم الأئمة الأطهار. استمر زيد حتى أكمل كلمته.. نهض صف من المنشدين وقد حملوا دفوفهم يصدحون بأصواتهم مرددين عظائم وفضائل خير الأنام وآله الأطهار.

لأيام تدفق الناس لزيارة الضريح والتبرك به.. يدعون شفاء أمراضهم.. وزيادة في ذرياتهم وأرزاقهم.. يتزاحم حوله المجاذيم والمعاقين.. من داخل الوادي وخارجه.. مجزلين النذور والهبات.

في تلك الجمعة دعا زيد أمناء مساجد القرى من الفواطم إلى اجتماع خصهم به.. حدثهم: بأن الأرض قد حرثت وخصبت لسنوات.. وأنها قد بذرت.. وأن الوادي قد تهيأ لسلطانهم: فكما تسمعون بحالة مرداس وقد أمسى لا يهمه أمر الوادي في شيء.. كما ترك لي الأمر لأقوم بما يجب القيام به.. وقد ذللنا العقاب واليوم أعلن إليكم دعوتي.. وأن تبشروا الجميع في مواعظكم بأن عهداً جديداً قد بدأ.. قائم على شريعة الله.. ومن اللحظة أدعوكم للخروج ونشر دعوتنا بين رعية الوادي: "أن الله واحد ليس كمثله شيء، وأنه عدل في جميع أفعاله، غني عن ظلم عباده، وأن وعده ووعيده حق، وأن محمد رسول الله إلى جميع خلقه، وأن علياً وليه والمستحق بالخلافة من بعده.. وأن الإمامة في آل محمد إلى يوم الدين، وأن نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر". أما ثاني هام.. فعليكم أن تجدّوا في الكشف عن تخفي شنهاص الذي يعيش بيننا.. ويتواصل مع بعض الرعية وأنتم تعرفون ذلك.. نريد أن ننهي وجوده ليكتمل لنا السلطان دون أدنى معارضة على الوادي.

.....

مع ازدياد المقاومة ضد الإنجليز في عدن تم ترحيل المئات من سكان الجبال.. لتستمر ملاحقة الإنجليز لكل ما هو جبلي.. فكر قارون بمغادرة عدن والعودة من حيث أتى.. حدث عرام يستأذنه الرحيل.. لكنه سأله:

- إذا ما وصلت الوادي أين ستذهب؟.

- أتمنى أن يكون الشيخ شنهاص قد سيطر على الوادي.

- ويملأه عدلاً.. بعد أن يحوله ملاذا لكل مظلوم.. لا زلت واهم بذلك المخاتل ياصديقي.

- لكن رؤية من حولي وقد عادوا من أعمالهم.. يصرفون مما يجنون. يجعلني أرى نفسي حقيراً. إن بقيت هكذا سأصاب بالجنون.. ثم ألا تعرف أني قد فكرت أن أذهب إلى جرف "صيرة" لألقي بنفسي لحيتان البحر.

- هون عليك ستفرج غدا.. هذا نحن أخوة نأكل سويا و....

- أنت تشقى وتكد وأنا أشاركك الطعام.

لم تمر ليلتين من ذلك الحوار حتى عاد أحد زملاء السكن.. يحدث من حوله رغبته بالسفر في إجازة إلى بلاده.. باحثاً عمن يحل محله حتى يعود بعد شهور ثلاثة. خفق قلب قارون لما سمع لكنه خجل أن يقول هذا أنا.. أو حتى يسأله عن طبيعة ذلك العمل... ليبادره عرَّام مخاطباً ذلك المسافر.

في ذلك المساء أشترى له عرَّام لشراء ملابس جديدة.. ثم عادا ليعلمه المسافر كيف يتكلم مبتسماً.. كيف يوزن خطواته.. وكيف يقدم ما طُلب منه.. متى يعود لرفع الفاضي.. وكم مقادير تحضير كوب من الشاي.. وكوب من القهوة...إلخ ما يجب القيام به في عمله الجديد. في صباح اليوم التالي كان قارون وصاحبه يصعدان خلف المسافر درجات مقر الوكالة التجارية التي سيعمل بها.. عبروا صالة واسعة توزعت مكاتب الموظفين في أطرافها.. وعدة مراوح تدور ببطء فوق رؤوسهم .. يبتسم الجميع للمسافر. بينا يمضي بهم نحو باب أفضى إلى قاعة واسعة.. برز في منتصفها مكتب كبير خلفه رجل أشيب يقلب أوراقاً من عمود أمامه.. وإلى جواره مكتبان إحداهما جلست خلفه فتاة سمراء لعينيها لمعان.. كانت تلك القاعة هي مكتب المدير.. الذي كان يتحدث إلى المسافر.. عرف لاحقا بأنه هندي. وقد وافق على عمله لديهم.

غرفة منزوية ازدحمت بدواليب صفت بداخلها أكواب وصحون.. وفي الوسط ثلاجة عمودية فتح بابها ليرى قوارير ماء و"ميرندة".. وطاولة عليها "شولة" نار وأواني تحضير الشاي والقهوة. عرف أين يجلس منتظراً رنة جرس ليستجيب.. ثم يعود لتجهيز ما طُلب منه. يوما بعد يوم تعرف على الموظفين وعرف أنهم خليط من: العدانية والهنود وقلة من الأفارقة.. وجبلي واحد مهمته الكنس وتنظيف المكاتب.. سريعا ما تعرف على أسمائهم.. ونوعية طلباتهم. ذلك العمل جعله يسترد ثقته بنفسه ويعرف بأن كل كائن خلق لما هو مسخر له.

قبض مرتبه الأول وأنطلق ليضعه بين يدي عرَّام:

- هذا جزء من حقك.

ابتسم عرَّام للحظات.. ثم رد عليه بحزم:

- مبروك أخيرا قبضت.. هذا حقك.

- أبدا أنا مدين لك بمصاريف شهور طويلة.. حتى الملابس التي البسها منك.

- السنا أخوة.

- أخوة لكن الحق حق...

- قد يأتي يوم وأحتاجك ليس بيننا حساب.

انزلقت دمعة صامتة على خد قارون.. وكأنه يرد بها على كلماته.. ليطوقه بذراعيه: يا صديقي ربطت بيننا ظروف قاسية وعجيبة.. لم يعد لنا أهل.. فأمك وأمي قتلهن الشيخ وأخوتي أحرقهم.. ووالدي أيضا قتله ووالدك شرده. وها نحن مشردين.. فلا تحسب بيننا حساب.. نحن أخوة ولن يفرق بيننا لا مال.. ولا أهواء... لتخنقه العبرة.

أنتهى الشهر الثاني وقد أحب قارون عمله.. وما نغص عليه عودة المسافر.. يعد الأيام ويجدها تذوب.. وسريعا ما عاد المسافر. وهو الذي كان متصوراً أن الثلاثة أشهر لن تنتهي. ذلك المساء تجمع من في السكن حول العائد يستمعون إليه يحدثهم عن أيام اجازته.. كان الجميع يستمعون بشوق بينما قارون يشعر بالضياع صامتاً.

صباحاً ذهب برفقة المسافر إلى مقر الوكالة.. أستلم ما تبقى له من أجر وهبط منكسراً.. ليسمع صوت أحدهم يلاحقه:

- انت ياقارون...

وكانت سكرتيرة المدير تقف أعلى السلم مبتسماً تشير لأن يعود. ظن بأن هناك لبس في الأمر.. أو أنه قد نسي شيئاً.. أو أخطأ في شيء.. عاد مطأطئ نظراته إلى مكتب المدير:

- لم تودء ني؟

ابتسم في خجل ولم ينطق بكلمة.. أردف الهندي: يله تأل فيه أندك شكل.

- شغل لي أنا؟!

- هدثني الفراش بأنكِ مزارء.

- نعم أنا مزارع.

- إذا ليكي شغل عندي.

.....

عاد شنهاص إلى عمادة ليفرغ جعبة حكاياته.. ظنت بأنه سيحدثها بما صنع بدار زيد.. لكنها سمعت العجب:

- لقد قابلت مرداس!.

- أفي المنام؟.

- بل في الواقع.

- كيف ذلك؟

- دعتني أم زوجة مرداس لزيارتها.. ثم رحلت بي إلى الحصن.

- حصن مرداس!

- ما غيره. في البداية ظننت بهلاكي وأنا ألج أزقة الهجرة.. لتخرج بي صبيحة اليوم التالي في موكب ضم حارسين ومجموعة من النساء وخادماتها.. سرنا في عمق مجرى السيل الجاف نحو الشرق لنصل الحصن مع قرب نهاية النهار.. ومع أنها قد وضحت لي بأنها لجأت إلي لمداوة ابنتها بعد أن سمعت الكثير عن بركاتي.. إلا أني كنت متيقناً بأني أسير إلى حتفي مع ذلك صممت المضي حتى النهاية.. وقد تملكتني مشاعر بفقدان عقلي.. لم يكن من خيار أمامي.. وصلت بي لنحاذي أعمدة التعذيب التي جزمت بأنها تنتظرني وسط الساحة الخارجية.. هزني رعب مميت لرؤية باب حبسي .. عبرت بي بوابة الحصن لأرى مجموعة من الخادمات اللواتي اصطففن في استقبالها. لحظتها رأيت وجه زوجتي.. كدت أسقط أرضاً بعد أن تعاظم صوت سريان الدم في أوردتي.. للحظات التقت عيني بعينيها.. أدركت بأنها لم تتعرف إليَّ. لم تعد هي.. بدت ملامحها قديمة.. ونظراتها لا تعني شيئاً.. تسير في مؤخرة الخادمات. شعور بأني أعيش كابوس.. أنفاسي تضيق وهن يصعدن بي سلم أحد الدور.. أسير إلى قدر محتوم لا خيار لي فيه.. حجرة واسعة تحيطها عدة أبواب.. خرج من إحداها شيخ طاعن في السن بظهر مقوس.. ووجهٍ غطاه شعر أشعث مبيض.. وهيئة من لا يهتم بما حوله. كان ذلك مرداس. دار حديث هامس بينه وزوجة زيد التي كانت تشير إليَّ.. ثم خطا نحوي مادا كفه.. التقت عينانا في لحظة كأنها دهر ولا تزال كفه معلقةً.. ارتبكت.. لتنقذني زوجة زيد: حتى أنها لا تصافح النساء! تكلم إلي بكلمات مشتتة لم أفهم منه إلا أنه يريد أن يتم كل شيء بسرعة.. مشيرا إلى أحد الأبواب.

دخلت وتبعني الجميع.. وقفت مع من وقف في غرفة تفوح بروائح البخور.. وتغطي أرضيتها وجدرانها طنافس متنوعة. لتطل امرأة لم أرَ في حياتي أجمل من محياها.. بياضاً نقياً..

ووجها تزينه غمازتين.. لا أحدثكِ بعين رجل.. لكنني دهشت لحظة رؤية اطلالتها المبهرة وقد دخلت بطولها الفارع.. فتلك العيون تحمل غموضاً آسراً.. وحين تبتسم تفتر شفتاها كورقتي ورد. أشرت على الجميع أن يتركوني لأسمعها.. وكنت قد أضمرت شيئاً. خرج الجميع. لحظتها تيقنت من أني في أمان.. وأن تلك الهواجس أوهام. وأنهم لا يعرفوا إلا أني المداوية.. فلم يون زيد موجوداً مع زوجته في الهجرة.. ولم يكن كذلك في الحصن.. وعلمت بأنه منشغل بالبحث عني بعد نسف داره.. وقد كلف أحد ابنائه على رأس مجموعة من العيون لتتعقب خطواتي.

سألتها فتكلمت عن تكرار إسقاطها.. وأن حفظة للقرآن قد زاروها وتلو ما تيسر في زوايا البيت.. وأن السقط تكرر حتى بعد تطهير الدار وانعزالها عمن حولها. أجلستها أمامي وطلبت أن تغمض عينيها.. تلوت ما تيسر بصوت هامس واضعاً يدي على بطنها.. مر الوقت والسكون يعم المكان.. وحين أكملت نظرت إليها كانت لا تزال مغمضة: العيب في مرداس.. فـ"صيبه" مريض. كانت تلك الكلمات ما أكملت به جلستي ولم أضف.. لتدور حولي وهي ترددد: وماذا عساي أن أفعل؟ لم أرد عليها وقد تملكني رعب هياجها.. كنت أريد أن أفارق ذلك المكان. لكنها ركعت أمامي.. مادة يديها في توسل.. تنتظر أن أخرج كفيَّ لتمسك بهن.. مكررة: قولي لي ما علي فعله.. أرجوك دليني؟!. كنت متأكد بأنها أدركت ما أعنيه. وما كانت تريده مني غير مزيداً من تأكيد ما ذهب فهمها إليه. لكني اكتفيت بما قلت. ونهضت نحو الباب.. لأجدهم يقفون منتظرين بقلق.. اقتربت مني أمها متلهفة.. همست لها: ابنتك بخير. حرصت ألا أكثر من كلامي.. مقترباً من مرداس لأرى عينيه مرة أخرى قبل أن أغادر. تركتني والدتها ودخلت إليها.. لم يلتفت إليَّ مرداس حين تبعها وبقية الخادمات.

قضيت ليلتي في غرفة أجالس الأرق.. أتمنى أن التقي بزوجتي.. أن يكلفنها لتأتي بطعامي.. أو أن تأتي بين من سيأتين لمسامرتي.. ما أقسى حين أدركني ضوء الصباح وأنا أقلب الأماني وحيداً.

أن افلت من بين أنياب الضباع أمر لم يصدقه عقلي.. وهذا أنا أمامك غير مصدق.. فهل حقا نجوت؟. لكني أتذكر ذلك متحسراً من شلل طرأ على عقلي.. ولم أفكر لحظتها باستغلال ذلك الحدث.. كان بإمكاني عمل الكثير.. لكن.

- وماذا بعد؟.

- ماذا بعد.. أريد أن التقي بابنتي.

- لماذا لا تأخذ بنصائحي؟

- لا تنصحيني بشيء إلا ووجدته صائباً.

- إذا دع التفكير بابنتك واتجه بعد أن ردعت زيد أن تعد نفسك لمقارعتهم.. أجعله همك. فقد سمعت أن دعاة زيد يدعون الناس لطاعة زيد.

- معتمدا في نشر دعوته على الضريح كرمزٍ لأحقيته في ولاية الناس.

هزت رأسها وهمست مبتسمة "لا يفل الحديد إلا الحديد. وأنت تمتلك مالا يمتلكه غيرك.. تفقهك في الدين.. قارئ لكتاب الله.. وحافظ لأحاديث كثيرة. وما عليك إلا أن تنشر مقابل دعوته دعوتك.. خط مكتوباً ووزعه على من اصطفيتهم تدعوا فيه الناس إلى شرع الله وسنة الرسول الحق.. اعلان مقارعتك لدعوة التشيع. وحدد اليوم الذي تزيل فيه طبقة الهرد عن وجهك.. وتخلع أردية المداوية. شاهرا سلاحك.

- وشادن!

- الم أقول لك أترك أمر شادن عليَّ.. وضع كل جهدك لتتغلب على الحصن.. بعدها ستستعيد واديك.. ستستعيد أبنتك وزوجتك. أما الأن فحذاري يعرف أحد بأنك المداوية!

خرج شنهاص من بيت عمادة مدركا طريقه التي سيسلكها.. بادئاً بإبلاغ مناصريه بالدعوة إلى توحيد الله.. ومحاربة البدع والشرك.. وأتباع سنة المصطفى والسلف الصالح. وسريعاً ما وصلت تحركاتهم مسامع زيد. ليدرك بأن خصمه أمسى له حضور قوي في الوادي. وان عليه بسرعة الوصول إلى رأس الأفعى.. ليشفي غليله. كان زيد بعد مقتل أصغر زوجته وأبناءها يشعر بأن الأمر أصبح بينه وبين شنهاص شخصي.

.....

ظل صوت المداوية يتردد في عقل فاطم " أنت بخير.. العيب فيمن (صيبه) ضعيف". ولذلك أخذت تفكر في تتدبر أمور خلوتها. باحت لوالدتها بما تفوهت به المداوية.. أن تقنع أباها بطلاقها من مرداس حتى يكون لها نصيب آخر.. صرخت والدتها في وجهها:

- اياك والتفكير بذلك.. والدك لن يغفر لك ذلك.

- لكن...

لم تدعها تكمل وقد صفعتها بعنف وهي التي لم تصفعها يوما:

- أجننتي؟. قد يقتلك لو علم بما تفكري به.. تريدين أن تنهي ما يخطط له!

في ذلك اليوم أدركت بأن أمها تشابه أباها.. بل هي أشد قسوة.. ولذلك أضمرت أن تعيش حياتها.. التي يدفعها الجميع إلى أن تعيشها حتى أمها. سقطت ثقتها بكل من حولها.. حتى أمها التي كانت تراها مثالاً لا يضاهيه أي أحد سقطت أمامها لتصل بها إلى اللطم. لم تبكِ

كعادتها.. وما هي إلا أيام وقد عادت لتعامل أمها كأفضل ما يكون.. معتذرة لها عما بدر منها.. وترجوها أن لا تتفوه بكلمة إلى والدها. معتذرة لها عن سوء تقديرها للأمور.. وأنها تستغفر الله على ذلك التفكير. احتضنتها والدتها باكية معتذرة لها.. لتصارحها بأن والدها يعقد على وجودها بداخل الحصن أمال عريضة .. وأنه بفضلها قطع شوطا كبيرا.

تحول الجميع فجأة منذ صفع أمها إلى أدوات.. ترى مرداس أداة وأمها ادوات وكل من حولها أدوات. مصممة على استخدام الجميع ليكون لها طفل.

.....

وعلى غير عادته أستقر زيد في الحصن لأيام.. شارحاً للشيخ يقينه من أن شنهاص وابنته من قتل صغاره وزوجته.... متوسلاً الشيخ أن يكلف مجموعة من حراس الحصن تحت إمرته ليتعقبهم بنفسه.. مظهراً غضباً ممزوجاً بحزن دفين.. وظل يكرر أرجوك أمنحني ذلك قبل أن يصل شنهاص وابنته لنسف الحصن. خشي الشيخ إن لم ينفذ طلبه أن يقوم زيد بالتآمر عليه.. أو نسف أحد دور الحصن بمبرر أنه قد حذره من شنهاص. ولأول مرة يأمر مجموعة من حراسه بطاعة مستشاره الأمين.. صاحب قرية الفواطم زيد.. هكذا وصفه بتلك الصفات أمامهم. مكرراً: وعليكم التقيد بأوامره.

لم يكتفِ زيد بمجموعة الحراس التي أمر بها الشيخ.. بل دعا صبيحة اليوم الثاني جميع حراس الحصن بحضور أحد ابنائه موجها إليهم أولى كلماته: أحدثكم اليوم باسم الشيخ مرداس. الآمر لكم بطاعة أمري.. فعليكم جميعاً السمع والطاعة.. ومن يتهاون في ما يؤمر به سيكون عبرة لمن يعتبر.. ومن يخلص سينال منا التقدير والعطاء.. وقد جمعتكم اليوم لأعيد إليكم كرامتكم وهيبتكم المهدورة.. بعد أن أستباحتها امرأة.. فلا توجد امرأة تنتصر على رجل واحد.. فما بالكم بها وقد انتصرت على مجموعة منهم.. وهم أنتم.. كيف تصفون أنفسكم بالحراس الأشداء.. ياللعار.. وهي تقتل من تريد وتسلب ما تريد.. وتتجول دون خوف.. وكأن لا أحد يمتلك كرامة ليثأر لزملاء له قُتلوا. أسألكم: أليست عندكم نخوة تثأرون منها؟. أتتركون امرأة تمرغ برجولتكم التراب.. وتزرع العار في كرامتكم.. كيف ينظر إليكم الرعية بعد كل ذلك.

صمت يجيل النظر في عيونهم.. ثم انتقى خمسة منهم.. ليعود صوته أكثر حدة: أنتم مكلفين بملاحة بنت شنهاص.. أثق في رجولتكم.. هيا أمضوا ولا تعودا إلا بها.. وإلا فالويل والثبور لكم. عاد صمته مرة أخرى وعيناه تتفرس ملامح البقية.. ثم أشار إلى تسعة آخرين: وأنتم أراكم وقد عدتم بجثة مقطوع اليد شنهاص.. أو الأفضل أن تصلوه إلينا حياً حتى نجري عليه شرع الله.

هبط الحراس كل مجموعة في اتجاه.. يوجهون العقال بتحريض الرعية لترصدهم.. ولأيام يأتيهم البعض مشيرا إلى أنهم رأوها في الجبال الجنوبية ولم يُرَ والدها.. وآخر يتحدث عن رؤية الحواطب لها في الشعاب الغربية.. وثالث بأنه رآها تخرج من أحد الكهوف.. ينتقل الحراس من جبل إلى آخر دون أن يهتدوا إلى أي منهم. ما جعل الناس يشيعون على لسان شادن ووالدها الكثير من الأشعار.. لكن ما أضفوا على شادن كان كثيرا.. فتارة تناجي والدها.. واخرى نخوة الرعية. ما دفعهم لوصفوها بالحرة والفارسة الشجاعة.. لتتحول في وعيهم إلى كائن خارق لا يُغلب. في الوقت الذي ظلت شادن وزهرة تعانيان من وعورة تلك المسالك.. وشحة الطعام.. متنقلات من جبل إلى آخر بعيدا عن أعين حراس القلاع.. وتحركات الحراس.. حتى وصلتا أطراف الجبال الغربية المطلة على قريتها "الجفنة".

لم يعد لشادن رغبة في مفارقة تلك الجبال.. تشعر بنوع من السعادة.. وقد تلاشى الخوف من قلبها.. تتأملها زهرة وقد جلست متأملة "الجفنة" تنقل ناظريها بين الوديان والآكام المحيطة بها.. كمن تبحث عن شيء.. ثم تلتفت مبتسمة مشيرة: ترين تلك البيوت المتحاضنة مع بعضها.. بينها خطوت طفولتي وصباي.. وتلك الشعاب المحيطة بها فيها كانت أولى لقاءاتي. تسترسل في حديثها فرحة.. يختلج صوتها وتدمع عينيها فجأة.. ثم تلوذ بالصمت دون أن تنقل عينيها عن الجفنة. تتأملها زهرة بخوف.. ترفع صوتها محاولة انتشالها:

- تخيفني تحولاتك.

تنظر إليها من خلف شبح ابتسامة:

- لا يتركنا الأخرون نظل نحن!

- أراك امرأتين في امرأة.

- بل أكثر من كائن.. ما نقترفه يُفرضه علينا الأخرون في لحظة ضعف.

- إلى متى سنظل نتنقل من جبل إلى آخر..

- أريد سماع أخباره.. أن التقي به.

- كيف تسمعين أخباره وأنت في هذه الجبال؟

- أشعر بأنه قريب.. في هذه الوديان والقرى التي ترينها.. قلبي يحدثني بأنه في مكان ما منها.. فقط علينا بمعرفة الطريق إليه.

- وقارون؟

- ماذا؟

- الم تمنيني بلقياه.. ثم قلت لي بأنك تعرفين شيء من حكاياته.

- الكل يعرف أن والده فر طالباً النجاة من بطش الحصن.. ليجعل مرداس من وجوده سبب في حمى والدي سبب لحربه.

- وما مصيره؟

- أنتهج مرداس نهب إرث بنو عمومته.. واحد بعد الآخر.. ومن قاوموا يختفون .. ويقال بأنه يضعهم في حبس سري بداخل الحصن.. عدى والد قارون الذي كان في قريتنا حتى يوم الهجوم.

تصمت للحظات ثم يعاود صوتها هادئاً.. فلا تدرِ زهرة أتحدثها أم تتحدث إلى نفسها: دعينا من والد قارون.. سأحدثك عن سنوات صباي.. حين كان يخرج والدي بي وبإخوتي إلى أطراف الوادي.. يثبت كرسي البندق على صدري.. يريني كيف أمسكها.. اصوبها ..وكيف احدد الهدف.. ومتى أضغط قداحة الزناد.. يضع أخوتي أصابعهم على مسامعهم في انتظار دوي الرصاصة.. طلقة تلو أخرى. أنهض رافعة صوتي "لقد أصبته.. لقد أصبته". ويوما بعد آخر ازداد دقة في إصابة الأهداف أزهو على أخوتي بتفوقي. ويزهو والدي مفاخراً أمام ضيوفه.. يتحدث عن براعتي في استخدام السلاح. تصمت هنيهة ثم تعاود كلماتها وقد تحولت إلى همس: أتذكر لقائي الأول بزوجي.. كانت البداية بتردده على مجلس والدي. أرقبه دون أن يراني في دخوله وخروجه.. بعد أن أعجبت به.. ولم أبح لأحد بما يعتمل في أعماقي.. انشغلت بالتفكير به.. أبحث عن سبب لهذا الانجذاب. فلم يكن عمري قد تجاوز السادسة عشر.. اسأل قريناتي عن الحب.. يثرثرن عمَّ يتمنينه.. أسألهن عن الإحساس به.. يتخيلن أحاسيس يفتقدنها.. ولم أجد لديهن ما يشفي رغبتي. كنت اتخيل لقاءات بيننا لم تحدث.. صوته.. كلماته.. نظراته. عرفت بأنه يذهب إلى الوادي صباح كل يوم.. وبعد تردد قررت لقياه.. حملت بندق أبي وخرجت أرقبه من سفوح مطلة على سهول الوادي.. رصدت مسالك ذهابه ومواعيد عودته.. وكان لقائي الأول مخيباً.. ما أن التقت عينانا حتى لا حظت في نظراته خوفاً وترددا.. ولم يطل الوقوف.. بل مضى في طريقه دون وداع.. ولم يلتفت حتى أختفى. فكرت أن أعترضه أثناء دخوله أو خروجه من دارنا.. وكانت المفاجأة حين أمسك والدي بيدي:

- يابنيتي.. قد جاء من يطلب يدك.

لا أعرف إلا أنني تمنيت أن يكون هو من جاء.. لم أتجرأ بسؤال والدي عمن يكون.. وأتذكر بأني صمتُ.. بينما والدي ينتظر ردي.. لأجد كلماتي تخرج مرتبكة:

- الرأي رأيك.

رد مبتسماً مربتا على رأسي:

- إرادة الله فوق كل إرادة.

بعد لحيظات من الصمت أضطرب قلبي خوفا ألا يكون هو.. أردت أن أعرف.. خرجت من حضرة أبي والحيرة تعصف بي.. ماذا سأقول لو كان غيره. أبحث عن أمي.. لا أعرف إلا أنني ارتميت في حضنها باكية.. سألتني بوجل عما يبكيني. ما زاد بكائي حين علت ضحكات امي هامسة في أذني عمن يكون. مسحت دموعي وقد انفرجت أساريري بابتسامة وضاءة.. ثم شعرت بأني في موقف المغفلة.. عدت إلى صدرها باكية من جديد.. لا أعرف لما البكاء أمن السعادة أم الخوف.. فهو الذي التقاني بوجهٍ متجهم.. ولم يتفوه إلا بكلمات محايدة. وكانت سعادتي مضاعفة حين هامسني يوم زفافنا بأنني من تملكت شغاف قلبه منذ لقيانا.. وأنه أحس بمشاعر تغرقه بالسعادة.. فسارع إلى طلب يدي.. قلقاً من رفض والدها له. صمتت للحيظات ثم التفتت لزهرة: لم تكن سعادتي به خيالاً.. بل حقيقة عشتها معه كل لحظة بعد أن انتقلت إلى دارهم.. يعاملني الجميع كأميرة.. حتى أمسى لنا بيتاً يخصنا.. لنعيش سنوات في أحضان السعادة رزقنا خلالها بثلاثة أطفال... ودون مقدمات أنفجر نحيبها.. تعاتب الوجود بصوت متقطع: لماذا يا رب؟. لماذا.. اكتمالك يقتضي تعاستي؟. ربي أحمدك حمداً يملأ الوديان والسماء. ثم التفتت تخاطب زهرة: أما لهذا التشرد أن ينتهي!. لن نبقى هنا بل هيا سنهبط الآن إلى قريتنا.

ردت زهرة وقد شعرت برهبة من تصرفات صاحبتها:

- الآن ضوء الشمس سيفضحنا.. ألا تخافين عيونهم؟.

- أشعر بأن والدي ينتظرنا.

لم تكن تعي أن حراس الحصن قد جندوا أمناء المساجد وعقال القرى والرعية كعيون لهم. ولم تدنوا الشمس حتى رأوهن بعض الرعية هابطات نحو السفوح السفلى.. ليسارعوا بإخبار أمين المسجد.. أمسى الحراس يمشطوا تلك الجروف والكهوف.. ولا يعلموا بأنهن هبطن حتى مزارع الوادي القريبة من احدى القرى. ثم واصلن تسللهن إلى أزقة القرية.. التي كانت شادن تعرف طريقها إلى أحد منازلها.. وما أن طرقته حتى فُتح الباب وظهر وجه على ضوء مسرجة يحملها رجل ثلاثيني.. برهة يتأملها.. ثم همس:

- أنت أبنه الشيخ شنهاص!.

أربكتها معرفته بها.. لم تتذكر أنها رأته يوماً:

- اليس هذا البيت بيت الخالة "غانية"؟

- بلا.. يرحمها الله.. وأنا أبنها!. هيا أدخلن قبل أن يلحظكن أحد.

- فقط أسألك.. هل تعرف الطريق إلى والدي؟.

- الجميع يتحدث عن وجوده.. لكن لم أسمع أحداً يقول بأنه قد قابلة.

- إذا أستودعك الله.

- أدخلن.. لا أحد غير زوجتي وأبنائي.

- لا نريد أن نسبب لك مشاكل.

- لكن حراس الحصن في كل مكان...

يحدثهن وقد أطل الخوف من عينيه.. لتصمم شادن المضي مع الليل إلى حيث يقودها قلبها.. ودموع ذلك القريب تلهج بالدعاء.. كان قلب شادن يحدثها أن والدها في الجوار.

.....

سمع شنهاص بأن عيون بعض الرعية شاهدت ابنته ورفيقتها في جروف الجبال الغربية قبل أيام.. فسارع إلى زيارة عمادة.. ليلحظ في طريقه وجود الحراس في تلك الأنحاء.. تخرج عمادة لتعود تخبره بأن الجميع يتحدثون بأنهن في الجوار. تلك الليلة قرر نزع ملابس المداوية كما يفعل في الليالي التي يقابل فيها أعوانه.. والخروج للبحث عنهن.. لكنها عمادة فاجأته بتنمرها وقد أغلقت باب بيتها:

- أجننت.. هم يتربصون ظهورك!

- سأقاتلهم .

- كم ستقتل؟ هي مصيدة.. ألا ترى وقد سخروا الرعية يترصدون بك.

تلك الليلة عبرت شادن وزهرة حتى أزقة قريتها.. تنتقلان من زقاق إلى آخر بحذر.. حتى توهج أفق الفجر سارع أحدهم إلى أمين المسجد "رأيت غريبات في أزقة القرية". في تلك اللحظة كانت شادن قد اقتربت من بيت زوجها.. تصل مسامعها صدى همس زوجها.. وجدته دون باب.. دخلته.. تلمست مواطن أمسها وسط عتمة حالكة لتذرف دموعٍ بللت وجهها.. وصدى صراخ أطفالها يتعالى.. كادت أصواتهم تفقدها ما تبقى من عقلها.. سحبتها زهرة لتخرج بها مرتجفة:

- أشعر بالخوف من طول بقائنا هنا.. ألا تخشين ضوء الفجر.. أرجوك نغادر.

- بل أتوسل إليك.. أن نزورهم ثم نغادر.

- من تزورين؟.

- أبنائي وزوجي!

مضت باتجاه "مجنة" تعرف الطريق إليها. ترى أطفالها يسابقونها وسط عتمة الأزقة.. تسرع علها تمسك بأصواتهم.. حتى شارفتا أطراف المجنة.. وقفت لحظتها وقد شعرت بوحشة المكان.. شهقت منتحبة. تهرول بين شواهد متراصة وأحجار مهملة حتى نهايتها ثم تعود من جديد.. لا تعرف في أي ركن تجدهم.. تقف تتلفت في كل اتجاه علَّ قلبها يقودها إليهم.. ثم تواصل هرولتها هنا وهناك وزهرة تتبعها باكية.. وقفت شادن وقد أنبلج الأفق عن غلالة فضية.. وزهرة ممسكة بمعصمها تستحثها الهرب. لفت نظرها تجمع بعض الأشباح عند أطراف المجنة.. ظنتهم قادمون ليدلوها على مراقد أولادها وزوجها.. رأت أشباحاً أخرى على أسطح المنازل المحيطة.. صرخت بعلو صوتها: أرجوكم ساعدوني. وأخذت تلوح بيديها لهم. دوت رصاصة أحست شادن بوخز حارق أعلى ساقها.. سقطت أرضاً. ركعت تحتضنها ملتفت في هلع لترى أشباح يهرولون باتجاهها.. حينها أدركت زهرة أن كل شيء قد أنتهى.

في الوقت الذي تعلقت عين شادن بشبح امرأة دون ملامح على سطح أحد المنازل المطلة على المجنة.. لتدوي رصاصة بندق شادن ليسقط أحد الحراس أرضاً.. اختفى من كانوا عند أطراف المجنة وعلى أسطح المنازل.. عدى شبح تلك المرأة بأرديته السوداء.. احتماء خلف شواهد القبور بقية الحراس.. حاولت زهرة سحب شادن خلف أحد الشواهد.. زجرتها بأن تتركها وتحمي نفسها بعيدا.. توارت زهرة نايحة.. نهض أحدهم مصوبا بندقه نحوها.. لتفاجئه برصاصة اخترقت رأسه.. ليصوب بقيتهم رصاصهم على جسمها الممدد.. تحاول تقليب بندقها وقد تمددت مضرجة بدمائها.. صمت كل شيء.. وعاد الناس للظهور يتابعوا ما يدور. تأكد للحراس عجزها عن تحريك أطرافها.. خرجوا بحذر شاهرين بنادقهم نحوها.. اقتربوا منها لتدوي رصاصة ثالثة أوقعت ثالث أرضاً.. أحاطوها يتبادلون ضربها بأعقاب بنادقهم. شهرت عينها ناظرة باتجاه امرأة السطح التي لم تختفِ.. خيل لها أنها تبتسم لها.. بادلتها ابتسامتها حين تأكدت أنه هو. لاحظ أحد الحراس نظراتها الباسمة.. أنكفأ مادا سبابته وبظفره فقأ عينها. ثم سحبوها بين القبور نحو أطراف المجنة.

كانت آخر ما شاهدت عين شادن ذلك الواقف على سطح بيت قريب. عرفت بأنه أبوها.. ظل على سطح بيت عمادة.. فكر أن يحمل يصوب بندقه.. مستخدما أصبع كفه الشمال.. إلا أن عماده منعته.. ليقف كالصنم يتابع ما يدور.. ابتسم حين بادلتهم طلقات الرصاص لتصرع الأول.. ثم الثاني والثالث.. وما نغص عليه حين ابتسمت له وقد عرفت من يكون رغم أرديته.. بعينين باكيتين تابعهم يجرون زهرة بعد أن أحكموا وثاقها.. بينما شادن ومن قُتلوا حُملوهم على ظهور بهايم يسوقها عدد من الرعية. وآخرين صفوف يزوملون بأصوات جماعية.

.....

بدت لقارون الحياة مختلفة.. وقد أنتقل للعمل كبستاني في فيلا مستر ديفد. تلك الفيلا المتربعة على جبل هيل يرى البحر باتساعه وتلك السفن التي تدخل وتخرج من "دكة معلا" إلى اليمين.. وتحته حي التواهي.. كانت له غرفة ضمن سكن خلفي للخدم.. الذي يتوزعون أعمال النظافة والبستنة.. والطبخ وخدم المائدة.. لم يكن عمله الجديد مضن.. فهو واحد من ثلاثة يهتمون بري الشجيرات والمساحات الخضراء المتدرجة.. وتقليم الزائد منها وتقليب تربتها وتسميدها.. ومكافحة الحشرات.

يلتقي بعرَّام كل يوم عطلة.. يوزعون أوقاتهم بين الثرثرة في زاويا مقاهي "كريتر". والذهاب إلى السينما. يتحدث قارون عن عوالم لا تشبه ما يعيشه الناس.. حفلات ليلية تزدحم بالرجال والنساء متأنقون.. يرقصون ويأكلون ويشربون حتى منتصف الليل. وأحيانا حتى الفجر. يشير من أحد شوارع التواهي إلى فيلا تربعت على كتف جبل أسود بلون أبيض زاهي.. يجاورها برج ساعة مخروطي.. وعدة فلل أخرى. يسأله عرَّام:

- أين البساتين والحدائق التي تحدثني عنها.

- قد تتعجب أن قلت لك بأنها حدائق صخرية نباتاتها غريبة وأن زوجة المستر.. تعشق تلك النباتات التي لا تحتاج إلى تربة كثيرة.. وقد وزعت تلك المساحات بين شجيراتها.. واقتطعت مساحة لحفلاتها وسهراتها تُرى صفحة البحر من مقاعد توزعت في زوايا وأركان زجاجية تعزلهم نهاراً عن حرارة الشمس.. ولذلك يحرصون أن تكون حفلاتهم على تلك المساحات ليلاً.

أستمرت لقاءاتهما منتظمة.. يشتاقان لبعض.. يستهلكان ساعاتها بشغف دائم.. إلى ذلك اليوم الذي لم يجد قارون صاحبه في انتظاره حسب ما تعودا.. سأل عنه زملاء السكن.. الجميع يخبره بأنه لم يعد منذ عدة ليال.. ولعدة أيام يبحث عنه في أرصفة "دكة معلا" وسأل عنه بين الحمالين.. ليتلقى نفس الإجابة.

يفكر كسير القلب.. متسائلاً بخوف: أيكون قد عاد عرَّام بدوني إلى الوادي؟. أو يكون قد تعرض لمكروه؟. نصحه البعض أن يسأل عنه في المستشفى ومراكز البوليس.. تنقل طوال أيام يسأل ولم يجد جواباً.

مع استمرار غياب عرَّام تتهاطل الذكريات ومنها نقاشاً دارت بينهما ذات لقاء.. مبدياً اعتراضه على عمله في فيلا انجليزي.. داعيا له أن يكون من مناهضي الاحتلال. إلى لقاء تالي وقد دعاه للالتحاق بصفوف الثوار.. لكن قارون كان يتملص في كل مرة من دعوات صاحبه.. وتناحر الثوريين يتزايد يوما بعد يوم في شوارع عدن.. ليصفه عرَّام بالساذج.. وأن

مظاهر الأمور دوما ما تخدعه.. ناصحا له بأن يمعن التفكير أما ما يستجد.. مذكرا إيها تأييده لشنهاص رغم وضوح مكره وسوء نيته. موضحا له بأن عمله في تلك الفيلا كخادم للمستعمر يعتبر خيانة لوطنه.. في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون في صفوف المناضلين ضد وجوده.

كان قارون يعي ما يعنيه عرَّام.. ولا يتهرب من النقاش.. مفضلاً الاستماع له راسما ابتسامة باهته.. حتى لا يخسر صاحبه.. وحين يشتد بعرَّام الحماس يرد عليه: حين نجد عملا آخر سأترك خدمة الإنجليز.. موضحاً له أن العمل يمثل لي لقمة عيش. ليصون كرامته.. يتذكر حين كان يضحك ساخراً.. بل قل أغرتك الحياة في جبل هيل.. بأصناف الطعام النظيف.. وتلك المشروبات.. وأجساد النساء الراقصات. وكأنك في جنة عدّنٍ التي ذكرها القرآن.

يتذكر ليلة حمل إليه قنينة صغيرة من شراب انكليزي.. عازفاً له مما تعلمه من هنود الفيلا أنغام الرعاة في قريتهم.. وتلك "المهايد" الشجية.. وأنهما شربا وضحكا إلى ساعة متأخرة من الليل. ومنذ تلك الليلة لم يعاود عرَّام دعوته للذهاب إلى أصدقائه الثوريين الأحرار.. ولم يفصح له عن الطريق التي بدأ ينتهجها.. لكنه عرف من إلحاحه إلى أن صاحبه أمسى عضواً في جبهة التحرير من الاحتلال. يتذكر بأنه كان في لقاءاتهم الأخيرة مهموماً.. وكأنه ليس عرَّام الذي عرفه.. يسأله فلا يصدقه القول.. ثم حاول إقناعه بعدم التورط في القتال مع أي طرف.. من أطراف الصراع على خلافة الإنجليز.. محذراً له أن لا يكون أداة في أيدي غير. يمنيه بالعودة إلى الوادي معاً ليعيشا هناك وقد تغيرت الأحوال وأنزاح ظلم المشايخ وأعوانهم الفواطم.

ظل يبحث عله يكتشف سر اختفاء صاحبه عرَّام. ليخبره أحدهم بعد شهور.. حين التقى شاب بالمصادفة في إحدى مقاهي المعلى.. سمعه يتحدث إلى زميل له في طاولة مجاورة عمن سقطوا في مواجهات الجبهة القومية وجبهة التحرير.. في شوارع الشيخ عثمان ودار سعد وكرتير. شاركهم قارون الحديث بفضول لم يتعود عليه.. ليكتشف إن المتحدث من رفاق عرَّم.. وأنه كان معه يوم قُتل في مواجهات حي "المنصورة". لحظتها ارتبكت حواسه غير مصدق أنه فقد صديقه للأبد. ولعدة شهور أمتنع عن الشراب وأعتاد الصلاة في مواعيدها. محاولاً تفادي الشعور بالضياع.. ولم تعد شوارع عدن تستهويه.. مفضلاً قضاء كل أوقاته في سكنه بين الهنود في فيلا جبل هيل.. دون أن يخالط سهراتهم.. ليعود فجأة بعد حين لمجالستهم.. وأمسى العزف على الناي حياته. ولم يعد قارون ذلك الشاب الذي يهمه شيء غير أن يشرب ليحلق حيث ينسى ضياعه.. ليحلم بوجود وطن وأهل يحتضنونه.

.....

أُحكموا وثاقهن إلى عمودين متجاورين وسط الساحة.. وبعد وقت خرج الشيخ وإلى جواره زيد يسيران بين صخب من حضر من الرعية لصلاة الجمعة.. وقفوا يتفرسوا الفتاة التي شغلت الجميع.. تلك التي آخت وحوش الجبال شهوراً طويلة دون خوف. كان زيد يبتسم بغبطة المنتصر وهو يرى الانبهار في عيون من تجمعوا.. يتفرسون وجه شادن المعمى. يعرف بأنها جثة هامدة.. ومع ذلك وجه كلامه إليها ليوحي للجميع بأنها تسمع ما سيقول: أيها الناس ترون مصير من يقتل ويعيث بين الناس الفساد.. علينا جميعا أن نؤمن بقوله عز وجل "وبشر القاتلين بالقتل ولو بعد حين". هاهي أمامكم من كنتم تظنونها قد خاوت الوحوش.. وأن الوصول إليها بعيد المنال.. صحيح أنها لا ترى أحداً منكم.. لكنها تسمعنا. ثم صمت يمسح وجوه من حوله بعينيه. ليعود مشيراً إليها: أيتها العمياء.. كنت أتمنى لو بقي لك بصيص من نور حتى ترين من جاءوا اليوم ليروك.. من ظنوا بأنك لن تُقهرين. كان زيد يواصل حديثه إليها بينما أنشغل الشيخ بالنظر إلى وجه زهرة المعلقة.. ليلتفت سائلاً زيد بصوت هامس:

- من الصبية الأخرى؟

أجابه جذلان:

- هذه التعسة رفيقة بنت شنهاص.

أقترب يمعن النظر في وجهها.. وبحزم رفع صوته:

- أنزلوها!

وتحت دهشة زيد فكوا وثاقها وأنزلوها. لم يعرف أن مرداس كان يرى وجه شبرقة.. وهو يردد متمتماً "أيعقل؟".

تكاثر الناس ليواصل صوت زيد خطابه.. مشيرا إلى الجسد المعلق: اليوم نقف لنسأل أنفسنا من منا لا يريد رضا الله وعفوه.. من منا يريد أن يكون وقود لجهنم والعياذ بالله. تعلمون جميعاً بأن شيخنا جزاه الله خير الجزاء يريد أن يعيش الرعية في سلام واستقرار.. ويأبى المارقون إلا أن يقلقوا السكينة.. وأن يسعوا في الأرض فسادا. ولمواجهتهم علينا أن نقف صفا واحدا.. وكما ترون اليوم هذه الشيطانة وقد نالت جزاء شرورها.. وقد سرقت هذا وقتلت ذلك.. ناشرة الخوف بأفعالها التي لا ترضي الله ولا رسوله. وتعلمون أنها كانت قبل هروبها تعيش في رعاية شيخنا الذي أغدق عليها من نعيمه سنوات.. بل وعاملها كما يعامل بناته. ثم جازت إحسانه بجحودها.. هربت بعد أن احتالت على أحد الحراس وقتلته وسرقت بندقه.. والآن أخاطب ديانتكم.. ما الحكم في ناكرة المعروف؟.

ردد الجميع بصوت وحد: الموت لها.. اللعنة عليها.

أبتسم وقد أتسعت عينيه الصغيرتين.. مردفاً: أعاهد الله وأعاهد شيخنا.. أنكم سترون والدها معلقا في مكانها. عهد يحاسبني الله عليه يوم القاه.. ذلك الشيطان الذي أحرق البيوت وقتل الأنفس حتى أنه لا يستحي من الله حين يفجر البيوت فوق النساء والأطفال. أكمل خطابه مشيراً للحراس: هيا أحملوا جسدها وجبةً للكلاب.. فمثلها لا تستحق الرحمة لتدفن مثل أمه محمد.

في تلك الأثناء سقطت أم شادن مغشياً عليها وهي تتابع بين نسوة كثر من أسطح الحصن.. وبصمت حملنها قلة من الخادمات هابطات بها.. ولم يصلن بها أسفل السلم حتى فارقت الحياة كمداً.

خيم يتم بطعم الحنظل على بعض سكان الحصن من الخادمات.. فلا من يحزن على أم شادن.. ولا من يواسي زهرة المكبلة بجراحها في إحدى زوايا طابق الخادمات بدار شبرقة.

.....

تصاعدت حدة الصراع بين القومية والتحرير لخلافة الإنجليز على عدن.. وتجاوزت ملاحقات الشوارع إلى الاغتيالات وهجمات على المقار والمنازل. وقد أعتكف قارون في تلك الفيلا في حياة بعيداً عن دماء الشوارع.. فهو الجبلي الوحيد بين عدد من الهنود وقلة من الصوماليين.. حياة غيرت مفاهيمه للحياة وحتى اسلوب حياته.

يسمع عن تطور المواجهات بين فصائل الثورة والوجود الانكليزي في عدن.. حتى ذلك اليوم الذي أصبح الجميع يتحدث عن قرار الأمم المتحدة الذي يطالب الإنجليز بالرحيل.. ليصدر عن الخارجية البريطانية "الكتاب الأبيض" في ٢٢ فبراير ١٩٦٦ والذي أعلنت بريطانيا منح مستعمرة عدن والمحميات الاستقلال مطلع ١٩٦٨.. ليتزايد النضال الثوري وتوقع اتفاقية الجلاء في نوفمبر ٦٧. كان قارون حزين ولا يعرف أنه يشارك شرائح كثيرة في المجتمع العدني حزنها لرحيل الإنجليز.. ليتجدد الصراع الحاد بين جبهات الثوار في سباق من يخلف الإنجليز.. وتتحول شوارع عدن إلى ساحات قتال في سباق محموم على السيطرة والتسلط.

تأهب كثيرون للرحيل من عدن، هنود ويهود وجنسيات أخرى.. ومع اقتراب شهر نوفمبر شعر قارون بالضياع.. وسؤال يتردد بداخله: إلى أين؟ ولا أشد منه حين حل ذلك اليوم الذي أخذ الجميع فيه بالرحيل.. حتى أن المشاهد لتلك الجموع المتجهة إلى الميناء والمطار وعربات النقل البري يظن أن عدن ستفرغ من ساكنيها.. بعد رحيل جميع من في فيلا جبل هيل.. خرج قارون يهيم في الشوارع دون هدى. لم تعد تلك الشوارع التي عرفها.. بعد أن غطت جدرانها الشعارات.. وطفت على سطح المدينة وجوه مختلفة.. ولغة مختلفة.. وسكان آخرين. أمست مدينة غريبة.. فقرر الرحيل.. يتمنى لو يعرف لعرَّام قبراً ليودعه.. طاف

المقاهي التي كان يرافقه إليها.. دور السينما.. دكة معلا.. سوق الطويلة.. الشوارع وشواطئ. كان يرى صاحبه في كل مكان.

ركب من الشيخ عثمان باتجاه تعز.. يخبئ القليل من مدخراته في "كمر" يطوق خاصرته.. يلتفت متأملاً جبل شمسان الذي يتوارى ويتحول نقطة داكنة كما رآه يوم وفد برفقة خاله وعرام.. ليعبر حوطة لحج ومنه إلى وادي عقان.. بعد عقان أعترضهم حاجز عسكري يطلبون وثائق المغادرين.. تذكر ما كان يردده عليهم خاله الذي غادر إلى السودان عن وثائق السفر بين البلدان.. شرح للجنود بأنه من جبال بعيده وأنه غادرها رغبة بالسفر إلى السودان. لكن خاله خذله.

.....

تتابع عيشة ما يعتمل حولها وتقيسه بما يعود على ولدها جمال بالنفع.. مرداس خيب ظنها ولم يعد من أمل فيه.. بل تراه بحاجة إلى العون.. وترى زيد يمسك بالخيوط يوما بعد يوم.. وما تخشاه كثرة أولاده الذي سلطهم على نواحي عدة. ولايزال زيد يمثل رأس مال يجب الاستفادة منه. من أين أبدأ؟ حدثت نفسها. وقررت أن تصل إليه عبر بنته فاطم.. المغلوبة على أمرها بعد محاولاتها المستميتة في أن يكون لها خلف.

في اليوم الثاني زارتها لتفاجأ عيشة بحفاوة فاطم.. وهي التي أغلقت أبوابها في وجه الجميع:

- جئت في الوقت الذي كنت أفكر أن أزورك

- هذه أنا جئتك.

- تعرفين مكانتك.. فكيف كل هذا الوقت ولا أراك؟

لتتكرر زيارات عيشة.. وقد وجدت أن أنسب مكان يتيح لقاء زيد هو عند ابنته.. تتحدث متسائلة عن ما يدور في الوادي مبدية تعاطف مع ما يواجه زيد من متاعب وصلت إلى حد قتل زوجته وأطفاله.. تسمعها فاطم وقد بدت لها عيشة غير من عرفتها.. ما حرك ظنون بحدس أنثوي.. لتدرك أن عيشة لم تكن نواياها بريئة من عودة زياراتها المتتالية.. فما أن يصل والدها لزيارتها حتى تجدها قد وصلت في أثره.. وكأنها تراقب من يدخل ومن يخرج من دار فاطم.. تلك الظنون التي ذهبت بها لم تكن لتهمها فوالدتها بعد ذلك الموقف والصفعة المدوية قد جعلتها تفكر بما يعود عليها بالنفع.. ولا يهمها الضرر بغيرها حتى والدها ووالدتها.. كانت سعيدة وهي ترى عيشة وقد وقفت لوالدها تحدثه دون تحفظ بل أنها في أحد المرات قد حملت له هدية مغلفة لم تعرف ما يخفي غلافها وأدركت بعد ذلك أن والدها هو من يسأل عن أحوال عيشة إذا ما زارها ولم يصادف وجودها ودوما يحملها السلام.

.....

لعدة ليال تنتظر زهرة ما سيصنعن بها بنات شبرقة.. تنام نوم متقطع.. لتفزع وقد أحست بأنفاس تلفح وجهها.. تنظر في اتجاهات الظلام.. تصيخ السمع.. يأتيها صوت شادن.. وجه يتدلى من العتمة.. رائحة تجالسها. بل أنها توشك أن تلامس كفها.. لكنها لا تجد إلا أرضاً باردة. تكتفي بروحها التي تجول حولها.. تعوض صقيع رحيلها. تغمض عينيها باكية من أحلام أمها وقد سرقت منها شادن بعيداً. تؤنسها حكايات العمياء.. يشدها الحنين لسماعها.. يرتفع نحيبها.. تتمنى أن تعود لتخدمها.. تسمع المزيد من حكاياتها.. تشاركها المغنى. تتذكر بأنها الوحيدة التي لم تسألها عن أسمها.. ولا من أين تكون.. أو ابنة من هي؟

في اليوم التالي اقتدنها خادمتان.. لم تكن تعرف إلى أين يمضين بها.. ولا أي مصير ينتظرها.. صعدن بها سلم الدار الأوسط.. ظنت بأنهن سيذهبن بها إلى بنات شبرقة.. لكنها وجدت نفسها أمام الشيخ الذي نهض غاضبا حين رآها: الم آمرهم بفك وثاقها؟ هيا فكين أربطتها وانصرفن.

وقفت مرتعشة.. بينما عاد يجالس نافذته.. ثم التفت بوجهه المجهد مشيراً عليها أن تقترب. تقدمت خطوات مرتبكة.. وضع كفه على الأرض مشيراً: هنا أجلسي أمامي!

جلست مرتابة.. بعد لحظة صمت رفعت ناظريها تتأمل شعر وجهه.. أنفه الأفطس الذي ذكرها بأنف جبار.. لمحها تتأمله.. أقترب بوجهه من وجهها مبتسماً.. لترى عينيه هي الأخرى كعيني جبار.. طبقات تجاعيد متراكمة.. سألها:

- من أنتِ؟

دفعها سؤاله لأن تسأل نفسها.. أن تعرف من تكون.. وأن تقنع نفسها بما ستجيب قبل أن تقول.. حضرها صوت شادن "أنت مجرد خادمة.. وأي تبسط كان منها أو من بناتها يعتبر تفضل منهن عليك". أجابت عليه بصوت ذليل:

- خادمة.

- خادمة من؟

- في دار... بناتكم.

- ابنة من تكونين؟

- ابنة خادمتكم حمامة.

فتح فمه مندهشاً:

- آآآه حمامة.. خادمتنا حمامة.

عاد يمعن النظر في وجهها.. ثم سألها بتردد: هل أنت من حذرتني شرب سم تلك الليلة؟

هزت رأسها بالإيجاب دون أن تنطق.

لحظتها أخفت وجهها بين كفيها باكية بحرقة.. شعر بشفقة نحوها.. مد كفه ومسح رأسها.. ولم يتوقف نشيجها.. لا يعرف إلا أنه أحس بدمعة يتيمة تدحرجت على خده.. متذكراً حديث شبرقة ذات مساء: لا أريد لتلك الصغيرة أن تشقى. كان يعرف أسباب عاطفتها دون أن تُصرح. متمتماً: أستغفر الله وأتوب إليه. مسح دمعته. ثم رفع صوته لمن خلف الأبواب: هيا أحملنها عني.

.....

في تلك الأيام تملك زيد زهو وإحساس بقدرته على السيطرة.. مؤمنا بأن الله قد اصطفاه لهذا الوادي.. متخيلا حالة شنهاص وقد وصلته أخبار أبنته وزوجته. وسعيدا بخيبة ظنونه في من كان يحسبهم أنصاره.. وأمسى زيد متيقناً من أنهم ينتظرون رؤيته على أحد أعمدة الساحة مصلوباً.

عاد إليه يقينه باقتراب نهاية شنهاص.. وهو يرى حراس الحصن يمشطون الوادي عرضاً وطولاً. ولم يعد ملزم بإخبار مرداس بما يصنع أو ما يريد فعله. وهو يوسع من نشر دعوته لينتقل من اجتماعه بالأمناء إلى عقال القرى الذين بايعوه على السمع والطاعة.

لكن رد جمال على رسالة والده فاجأته "حضرة والدي العزيز الشيخ مرداس حفظكم الله ورعاكم.. سلام كثيرا وأشواق حارة.. لن أعاتبكم على عدم الكتابة إلي منذ غادرتكم.. بعد أن كتبت تستنجد بي من الخسيس الفاطمي.. أكتب إليكم جوابا على رسالتكم.. التي ذكرتم فيها لؤم من لا أمانة له.. فبعد أن جعلته الأعلى بين رعيتك مستشاراً لكم . بل وجعلته صاحب هجرة الفواطم.

والدي العزيز للأسف لقد وضعتم ثقتكم في كائن ليس أهلاً للثقة.. فهاهو يقيم ضريحاً على قبرٍ خاوٍ إلا من أحجار سوداء.. ويسعى لأن يتسلط في خلق ليس منهم.. ويدعي لنفسه شرفاً لا يمتلكه.. وهاهوا يستخدم قلة وافدة ليتحكم في وادي هم إليه وافدون.

والدي العزيز أعدك بأن أصلكم في أقرب وقت.. وأن ينال على يدي ومن على شاكلته أشد الجزاء.

تحياتي لوالدتي التي تسكن قلبي.. أكرر تحيات تخصها معطرة زكية.. ولك السلام وجل الاحترام.. ولأخواتي ومن سأل عنا ألف سلام".

كرر زيد قراءة تلك الرسالة.. كمن يبحث بين ثناياها عما ذكره مرداس في رسالته إلى ابنه.. كانت كلماتها واضحة وجارحة. متسائلا: كيف بعث مرداس رسالته وهو لا يبرح الحصن؟. كيف اخرج رسالته هذا الخرف من الحصن وأوصلها إلى مصر.. أخذ يبحث حول من يكون قد ساعده.. هل هو أحد الحراس؟. أم أن إحدى بنتيه قد ارتكبت مثل ذلك الفعل. لكنهن لا يصلن بوابة الحصن. وقف كالملدوغ: أتكون الخيانة اليتيمة.. أم هناك ما يخطط له مرداس من وراء ظهري؟. بل هناك أفعال ينفذها مرداس.. وليست هذه الرسالة إلا إحداها. قطعاً لا يمكن أن تكون عيشة.. ولا إحدى الخادمات المنتشرات في دور الحصن.

تذكر بما حدثته فاطم ذات مرة عن اكتشافها لعلاقة سرية بين بنات مرداس وبعض الحراس.. قالت له: يتسللون ليلاً وقد جعلوا من أسطح الدور ملعبا لنزواتهم. وبعد رحيل شبرقة يستضفنهم في حجراتهن. لم يكن الأمر يستحق مزيداً من الصبر.. تصور كيف تخرج الرسائل من الحصن. لم تمضِ ليالٍ حتى وجدت أبنتي مرداس جثتين هامدتين على فراشٍ ملوثٍ بالدم.. وإلى جوارهن جثتي حارسين.. وقد مُثل بهم.. ليبدو الأمر وكأنه ردة فعل لما يعلمه الجميع منذ حين ولا يجرؤ أحد الحديث حوله. تنفس الصعداء زيد متخيلاً الحصن مكاناً آمنا له.. زادت عزلة مرداس بعد مقتل ابنتيه.. حتى أنه لم يعلق حين أعلموه بما حصل.. ليأمر الحراس بدفنهن جوار اخويهن ولم يحضر أو يقبل أن يعزيه أحد. عدى زيد الذي ركع على غير عادته باكياً وقد وقفت فاطم ترقب ما يدور بحيادية وبرود.

.....

يطلب الشيخ الإتيان بزهرة.. يجلسنها أمامه.. يتأملها صامتاً وقد تكومت في ترقب وخوف.. يمسك بكفها يتفحص بقايا جراح على أطرافها.. يداعبها ملاطفا:

- ماشاء الله.. أراك اليوم أفضل.

لم ترد عليه ترقبه بطرف عينيها بحذر.. يسألها مبتسماً: قولي لي.. كيف كن بناتي يعاملنك؟

دمعت عيناها:

- أذكر إلا خيرهن. وحزينة لفقدهن.

- رحمهن الله.

- غفر لهن.

ذهب بنظراته بعيدا عبر نافذته يتأمل الوادي.. بينما أستمرت دموعها. عاد صوته دون أن يلتفت إليها:

- لا أريد الحديث حول بناتي.

التفت إليها: كفاك دموعاً. هل تصدقيني إذا ما سألتك؟.

هزت رأسها بالإيجاب وهي ترمقه في توجس بنظرات مسروقة.. ليسألها: أتخشين مني؟

التفتت لوقع سؤاله.. تردد أن تقول ما تشعر به.. هزت رأسها بالإيجاب.. انفرجت ملامحه المتغضنة عن ابتسامة.. ثم أبتعد بسؤال آخر: لماذا هربت مع تلك الشقية.

صمتت تلاعب أصابع قدميها.. وقد حضرت شادن بسؤاله.. اجتاحتها نوبة نحيب تحاول كتمها.. انفجرت وقد حضرت. تركها تندب وقتاً حتى هدأت وعاد صمتها.. لم يكرر سؤاله. بل ذهب بسؤالٍ آخر بعيداً:

- أشعر بالوحدة.. فهل تشعرين مثلي بالوحدة.

رفعت وجهها وهي تمسح بقايا دموعها.. لمح لأول مرة شبح ابتسامه تطفو على محياها. أطرقت تفكر غير متوقعة سؤاله.. ثم أردف: هل تقبلين أن تكوني خادمتي؟

ظنت بأنه يلهو .. ثم أردف: فاطم منشغلة بنفسها ولم تعد تهتم بي!

مكثت ترقبه وقد عاد لصمته والنظر من النافذة.. ثم نهض مشيراً: سأذهب لبعض شؤوني وعليك بإعادة ترتيب المجلس.

خرج وتركها وحيدة.. لتدرك أنه جاد فيما حدثها.. تردد في بداية الأمر ثم نهضت منهمكة بترتيب البسط والمساند والمتكآت.. وكنس أعواد القات الجافة ورفع "المتافل" لتنظيفها.. ظنت بأن عملها سيقتصر على الترتيب والتنظيف لكنه يوما بعد يوم يضيف إلى أعمالها أعمالاً أخرى.. وقد طلب منها أن تبخر له ما يشربه من ماء في جلسة القات.. ثم العناية بغسل أغصان قاته وتجفيفها.. إلى تجهيز "مداعة" تنباكه.. حتى وجدت نفسها وقد أضحت نديمته. تجالسه.. تنصت إلى ما يتحدث به.. وأكثرها لا تفهمها. تطور الأمر إلى البوح بما يقلقه.. وأحياناً يعود بها إلى حوادث من أيام غابرة.. فيها أناس لم تسمع بهم.

تقف على ما أصبحت عليه لتغشاها حيرة.. تقلب الأمر في ذهنها علها تجد تفسيراً لتلك العلاقة.. تتخللها هواجس كثيرة.. تعاملت معه بحذر.. لكن خوفها يتلاشى مع مرور الأيام.. وإن ظلت تتساءل عمن يكون من تجالسه: هل هو نفس ذلك الكائن الذي يتحدث عن جبروته

وقسوته الجميع.. كانت تظن أنه دون مشاعر.. وما خُلق إلا ليقتل ويدمر.. وأنه دون قلب.. لا يعرف إلا البطش.. ولسانه لا يأمر إلا بسفك الدماء.

سُرت فاطم كون مرداس تعلق بتلك الصبية وأمست جليسته.. لتتفرغ لما يخصها.. سخرت من إحساسها بالغيرة وهي تسمع تلك المنادمة التي لا تنتهي بينهما.. تتنصت لتسمع صوته وكأنه يتحدث إلى الفراغ.. تسترق النظر لترى زهرة تتربع أمامه جالسة تنصت بشغف وقد تسمرت عيناها بفمه.. يحدثها عن حياة عاشها لم تكن قد سمعتها من قبل.. كانت أموراً بسيطة وتفاصيل متشعبة.. حتى أنها خجلت من استراق السمع.

فتعود لتحدث عيشة بما يدور بين الصبية والشيخ.. وأن مرداس قد خرف ويهذر لها دون توقف. فتسألها بلهفة عما يتحدثان به.. لكنها تسخر من هذره لتضحك عاليا لاهتمام عيشة الملفت.

.....

ظل شنهاص لأيام ومشهد مقتل شادن يتكرر أمامه.. وما زاد حزنه وفاة زوجته.. غير مصدق بأنه أصبح فرداً دون أحد.. خشيت عمادة أن يسحقه ذلك الحزن الثقيل ويثبط إرادته. مكثت تحفز همته وهي تحدثه عمَّ سمعت من زيد قد جمع عقال الوادي بعد اجتماعه السري بأمناء المساجد.. ليعلن لهم دعوته باستعادة ميراث النبي.. الذي خص به آله. أمراً لهم مناداته بالسيد الأمين زيد اقتداءً بالأمين المصطفى سيد الخلق.. واعداً بالخروج لإزالة الظلم والجور الذي عم العباد.. داعيا لهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بدورهم بايعوه على الطاعة والنصرة. وبأنه يكرر دعوته على جموع زوار ضريح المهاجر "أدعوكم إلى جهاد الظالمين.. ألا ترون عباد الله أن دينكم مقتول.. وأن الحق الذي انزله على نبيكم مخذول.. وأحكام الكتاب معطلة.. والأمر بالمعروف والنهي عن النكر مهملة.. وقد بسطوا بالظلم أيديهم.. وحكموا بحكم الشيطان فيكم.. أحلوا دمائكم وأموالكم.. وأجاعوا بطونكم.. وساموكم سوء العذاب. أدعوكم أيها المسلمون إلى نصرة دين الله وطاعة آل بيته.. أن تردوا الأمانة إلى أهلها.. ليعم العدل والخير كما وعد الله ووعده حق. أنا لا أبحث عن مطامع دنيوية.. ولا أسعى خلف سلطان. بل أدعوكم لتطبيق الشريعة بطاعة الله ورسوله الكريم. فشيخنا هو مرداس.. وما أقوم به إلا نيابة عنه وباسمه".

تتقاطر الجموع أمام الضريح لمبايعته على السمع والطاعة.. كما يعاهدونه على الجهاد في سبيل الله وإعلاء دعوة آل البيت. جاعلاً من قرية الهجرة مركزا لنشاط دعوته.. يعمل بثبات وتأنٍ.. مستغلا موقعها المتوسط بين قرى المغرب والمشرق.. وما يمتاز به سكانها من علاقتهم برعية القرى.. محافظين على حيادهم عند نشوب الخلافات والاقتتال بين القرى.. مستفيدين من دورات القتال.. وكذلك من فترات الاستقرار.

الحت عليه عمادة سرعة التحرك. وأن لا يدع لأحزانه تؤثر فيما نذر نفسه له.. أن يعود ليسابق زيد قبل أن يفوت الأوان.

.....

يردد الأمين زيد على مسامع فاطم: الصبية أرسلها الله لتسير بمرداس إلى نهايته.. وعليك أن تفكري بعقلك لا بقلبك.. فرحلتك معه قاربت على نهايتها.

تلك العبارات تسمعها وقد أظهرت غيرة زائفة أمام أبيها.. ليسألها: ماذا تريدين منه؟. فترد وقد غالبتها دموع وعويل: لم أره يوماً يدلل أحداً مثلما يفعل بزهرة. فكيف لا أحنق وأغار؟. يستعين بعيشة التي استطاعت خلال فترة بسيطة أن تأسره بدلال لم يألفه متمنياً عليها: ألا تعقلين هذه الغاوية.. أنت من الحكمة ما تهديها إلا الصراط.

همست فاطم في أذن عيشة بأن مرداس لم يعد يعني لها شيئاً.. وأن ما تقوم به هو من أجل ارضاء والدها ليس إلا.. لتسرها بما بدأ يتحرك في أحشائها.. لم تصدق ما تسمعه:

- ماذا تقولين؟

- الذي سمعتيه!

تلك المفاجأة أشعرت عيشة بمغص حاولت مداراته.. ماطة بسمة تخفي خلفها مشاعر مضطربة.

تداري فاطم على سعادتها وقد أخذت بطنها بالتكور. لا تتحرك إلا للضرورة.. تاركة مرداس لزهرة. لم تعد تتصنع غيرتها وهي تراها تفلي براعم قاته.. وتمد له ما تراه من أغصانه.. وهي من تعد مياه الوضوء الدافئة.. وترتب فراش نومه.

ظل مرداس ينتظر وصول ابنه جمال.. يخطط ليلاً ونهار بما سيصنعه بهم بعد وصوله. يمثل دور المُسير.. خشية على حياته من زيد .. تاركاً لفاطم حياتها مظهراً عدم الاهتمام لما يدور. بعد أن وجد ما يشغله بسرد حكاياته لزهرة.. قلقاً من نضوب ما يختزنه.. ليعوضه بأسئلة يفتح مغاليق الكلام:

- حين صرختي تحذريني من سم الكأس تلك الليلة.. أكنت تفكري بالانتقام من صفيه.

- ولماذا الانتقام؟

- ألا تظني بأنها أضرتك.

- لم أحمل لها يوماً غلاً.

- فلماذا حذرتني أذاً؟

- لا أعرف إلا أن صوتي خرج.

- فقط.

- منذ رأيت أمي تموت تحت أقدام الحراس.. أصبحت أكره رؤية الموت.

- وتكرهين القاتل.

- أرثى له.

- لماذا!

- لأنه وضع نفسه في ورطة العذاب الدائم.

يتمعن في صوتها الذي يخرج مباشراً.. وكلماتها المفعمة بالعفوية.. جازما أن عجزها عن الانتقام خلق لديها تلك القناعات.. أو أنها سذاجة متأصلة فيها.. متذكراً طعم لذة الانتقام.. جازما بأنها لو ذاقته لتغير كلامها:

- من علمك هذا؟

التفتت ناظرة إليه وقد غشت عينيها سحابة دموع.. ثم نظرت أرضا:

- شادن.

- المارقة.

- سنوات بين أحضانها تعلمني التسامح والمحبة والغفران.

- لكنها قاتلة منتقمة.

- هذا ما يحيرني ويشقيني!

- أنا على يقين لو ذقتِ طعم الانتقام لتغير رأيك.

- لكني لا أطيق رؤية الموت.

- لا تملكين القدرة.. ولذلك تقولين ذلك.

صمتت متعجبة ثقته.. بينما أضمر أن يتيح لها أن تنتقم.. وبعدها يرى كيف ستتحدث. فكر في فاطم وقد اختارت طريقة أخرى لتحقيق أحلامها.. جرب تحريض زهرة عليها.. قال لها ضاحكاً:

- عليكِ أن تتغدى بها قبل أن تتعشى بك.

- من؟.

- فاطم التي تظن بأنك أخذتني عنها.

سكتت تبحث عن إجابة فلم تجد.. ليضيف: اعلمي إن لم تبادريها ستسبقك.

- سألتني في أول يوم عن سبب هروبي مع شادن.

- تريدي الهروب بعيداً.

- لا أريد الحديث حول الانتقام. طريقة تفكيرك ذكرني بها. شادن لم تقتل انتقاماً.. فقط كانت تجد نفسها في موقع الدفاع!

- ولماذا هربتي معها.

- لم أهرب إلا بعد أن علمتني كيف أحلم.. أن أكتشف الحياة وراء أسوار الحصن.. كنت مرتبكة حين وافقت على مرافقتها.. أن أهرب لأنجو مما يدبر لي. وكما رأيت لولا فضلك لكنت أمسيت طعاماً للكلاب.

أدرك مرداس مدى ما تحمله الفتاة من الآم.. رغم طبعها المسالم.. يشعر بأنها تأثر عليه بعض الشيء. وأن مرافقتها له بذرت في نفسه عاطفة كان يفتقدها.. تجاوز بها إلى الدهشة والإعجاب بجنوحها للغفران والتسامح.

زهرة كانت تتعجب حين كان يحدثها عن بعض همومه.. يشكو لها من أفعال تؤرقه. لتلحظ بأن شعورها تجاهه تحول من الخوف والحذر.. إلى العطف عليه وهي تسمعه مثقلاً بهمومه.. لا تصدق وهي ترى ملامح جبار عالقة في وجهه الهرم.. حكى حكايات لا تحصى عدى تلك المحرقة.. وكأنها فوهة سوداء يخاف الاقتراب منها.. ومقتل بناته أيضاً لم يكرر ذكرهن. ومع ذلك ظلت تدخر أسئلة حول ذلك وتتحين الوقت المناسب. يوماً شكى لها عن أرق يعذبه.. وإذا ما زاره النوم.. تخالطه أحلام يقبلون عليه حاملين أوعية.. يستجدونه فرط العطش.. يبحث حوله يحمل إناءً كبيراً.. ينسكب ماءاً زلالاً.. يصرخون مبتعدين: لا.. لا.. هذا لا يروينا.. نريد دماءً حارة!. يشكو لها عذاب لياليه.. وتقلبه بين الأرق والرؤى المفزعة.. يرجوها ألا تمل سماع حديثه مهما كانت مفزعة. يذهلها نطقه لكلمة أرجوك.. وكثيرا ما تدمع عيناها حزناً عليه.. لتتردد صدى صوته الحزين في أعماقها.. تسأله بخجل:

- لو عاد الزمن إلى الوراء.. ماذا كنت ستصنع؟

يمط رقبته.. ويعتدل في جلسته وقد بدت على وجهه علامات الجِدَّة:

- سأصنع ما صنعت. يصمت قليلا ويردف: بل وأكثر!

يتجهم وجه زهرة وهي تردد عليه نفس السؤال.. ليهز رأسه مكرراً إجابته بثقة.

- لا أصدق أن من يشكو مرارة ماضيه.. يعيشه بنفس القسوة مرة أخرى.

- للأسف أن الآخر لا يترك لك أي خيار.

تتأمل وجهه مندهشة.. وترد:

- هذا ما كانت ترددده شادن.

- ليس تلك الشقية أو أنا من نقول ذلك.. هي الحياة ومن حولك من يفرضون عليك أن تقومي بفعل ما ينبغي فعله لردعهم.

فكرتْ زهرة في استغلال لحظات تجليه.. وغامرت بسؤالها المعلق منذ حين:

- كنت أظن بأنك لو عاد بك الزمن لما أشعلت عوداً في غابة العصاة.

- لولا تلك النار لما مكثتُ في حصني بسلام.

صمتت وقد شعرت تجاهه بالشفقة.. يغشها شعور خوف عليه.. تعجبها فيه صلابته ولا تريد أن تراه ضعيفاً.. عاد يسألها:

- أتركينا من أحداث الماضي.. وأسألك هل تتمنين شيء لغدك؟

يهرب مبتسماً بسؤاله من ذكرها للحريق الكبير. لتتواطأ مع رغبته وتجيبه:

- سأحدثك بما أتمنى بعد أن تحدثني أنت.

- أن يعود أبني جمال.

يتوقف للحظات عن الحكي ثم يسترسل بصوت هامس حول مكر زيد.. وألاعيب فاطم التي تنزوي بحملها عن الأنظار.. يسهب في أمانيه متصورا كيف سيكون الحصن بعد وصول ابنه.. ناظراً إلى وجهها تارة وأخرى إلى الوادي.. تستمع وأناملها منشغلة تُفَلي أغصان قاته.. تحدث كثيرا ليصمت.. ثم يعاود النظر إليها سائلاً: وأنتِ ما قولك؟ تربكها طريقته تلك.. فعادة ما تسرح بها بعض حكاياته بعيدا بعيداً. تبادله النظرات ولا تجد ما تقوله.. فتلوذ بابتسامتها.. يعرف لحظتها بأنه كان يحدث نفسه وأنها كانت عن حديثه بعيداً.. يمسح على رأسها ضاحكا من نفسه.. ثم يقول لها: لا عليك.. لاعليك.

لتتذكر أن تقول له أمنيتها:

- أتمنى أن تسمح لي بالخروج.

نظر إليها مستغربا:

- وأنا!

هزتها لهفته وأتساع عينيه وهو ينطق بتساؤله فردت بعفوية:

- وأنت ماذا؟

لم يرد على سؤالها.. وكأنه أدرك بأنها لا تعي مقدار حاجته إليها.. مدركة أردفت:

- أن أزور امرأة عمياء عرفتها يوم هربت مع شادن.

- هل مللتِ منادمتي؟.

- أبداً.. فقط أزورها وأعود.

- ثم كيف تقول مللت. وقد أصبحت ملاذي. من أعيش بفضله بعد أن كنت في عداد الموتى... لم تكمل وأجهشت بالبكاء.. ليمد كفيه ويحتضنها.. يمسد شعر رأسها وقد عاد ينظر إلى وجهها بحنان:

- تظنين بأني من أنقذك!.

- ومن غيرك.

- عليك أن تعلمي بأنها شبرقة من فعلت!.

- سيدتي شبرقة؟

- أتعرفين أن وجهك هو وجهها؟.

- يقولون بأني أشبهها.

- حين رأيت وجهك معلقاً على العمود.. كان هو وجهها يوم زفافها. فوجهها من دفعني إلى انزالك من العمود.

صمتت تفكر فيما يتحدث به.. بينما واصل: ألا تتذكرين محبتها لك صغيرة. أتذكر أنها حدثتني ذات مساء عن خوفها عليك بعد رحيل أمك.. ولذلك أخترت تلك التعسة لرعايتك والعناية بك.. وأجزم بأن روحها ستظل ترعاك طوال حياتك.

صمتت لتسمع صدى صوت شادن يتردد "يجب أن تتحلي بالإيمان يا زهرة.. فلم أكن أرعاك وأقف إلى جوارك لولا أمرها بذلك!".

يراقب حيرتها.. ثم التفتت إليه وقد أشرق وجهها بابتسامة وقالت:

- أنسيتني أمنيتي.

- سنذهب معاً.

تتفرس وجهه غير مصدقة ما نطق به.. نهض راسماً ابتسامة وقال: هيا سنخرج سوياً.

ارتبكت تتصور ذلك الكائن الذي يخشاه الجميع وقد خرج من عزلته يحيطه به حراسه متجهاً إلى درم الأخدام. لم يمنحها فرصة.. أسرع بتغيير ملابسه هابطا من لحظتها إلى الساحة.. صارخا أن يعدوا له خيله.. أطلت من النافذة وقد أطلت من نوافذ الدور الأخرى عدة وجوه.. التفت إليها: هيا أسرعي أنا بانتظارك.

هبطت يغمرها سعادة وقد تزايدت وجوه النوافذ. ليأمرها بالصعود خلفه على ظهر خيلته.. وسريعا ما خرج بها آمراً الحراس عدم مرافقته.. عبر الساحة الخارجية.. ثم أنحدر بها حتى الطولقة الكبيرة.. يرفع كفه كلما حاذى أحداً.. يتلفت الجميع غير مصدقين بأنهم يروا الشيخ وقد خرج وحيدا على ظهر خيله. تشير عليه زهرة الطريق حتى اقتربا من درم الاخدام. يسابقها قلبها فرحاً.. وعند مشارف الدرم أحاطهم سرب من الأطفال العراة.. ثم عدد من الخوادم يتابعنهم باستغراب. بينما زهرة تشير إلى الطريق حتى كانا أمام بقايا كوخ. نزلت تسأل من تجمهرن حولهما.. لتصعقها اجاباتهن "العجوز فارقت الحياة بعد مقتل أبنها". صمتت للحظات وهي تنقل ناظريها بين وجه الشيخ ووجوه من حولها.. استجمعت قواها:

- هل قُتلت؟

- بل جوعا بعد رفضها للطعام والشراب!.

دخلت الكوخ دامعة.. لم يعد من شيء غير تراب مبعثر.. عرفت ممن دخلن في أثرها أن العمياء دفنت جوار أبنها وزوجها تحت أقدامها. ركعت تقلب التراب ليرتفع صراخها وهي تتمرغ أرضاً.

.....

أختار السيد الأمين زيد صلاة عيد الأضحى ليعلن قيامة بتطبيق شرع الله على الذين توافدوا بأعداد كبيرة للصلاة في باحات الضريح.... خطب :" وبدوري أدعوكم إعانتي على ما نويت عليه.. التمسك بكتاب الله وهدي نبيه وآله الأطهار. ومواجهة أصحاب الضلالة.. وعلى

رأسهم شنهاص الذي بلغني قبل أيام بأنه ومنذ تسلله إلى الوادي يتخفى بملابس النساء.. وأسألكم.. هل التشبه بالنساء من تعاليم رب العباد؟. وهل تأمنون لم يعيش متخفيا بأردية المكحلات.. يستبيح حرمات البيوت وينام بين النساء ..ويفسد ضعاف النفوس بالقليل من المال الحرام الذي أتى به من خارج الوادي. واليوم أكرر ما قلته بالأمس ليشهد الله ورسوله عليَّ.. فأنا -وكما تعلمون- لم أعلن دعوتي طمعاً في جاه أو سلطان بل تلبية لنداء "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت" وطاعة لرسول الكريم القائل "أني تاركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا.. بكتاب الله.. وعترتي أهل بيتي" ومن هنا أعلن دعوتي إلى التمسك بكتاب الله ونصرة رسول الهُدى.. حديث الصادق الأمين "ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا". وأعاهدكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسير بأخلاق من هدانا إلى صراط الله العظيم.. القائل عز وجل "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا". وأقول لمن يريد الإفساد في الأرض وتسليط أطماعه قد أتاك أهل البيت ورثة النبي الصادق الأمين.. قاطعي دابر الظلم والفساد.. ناصري دين الله القائل "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما". وقد رأيت أن أضع عليكم ما استخرت الله فيه وأدعوكم إلى نصرة الله القائل "كونوا أنصار الله" وأتباع سيد الخلق وآله.. فلن أكون شيخ عليكم لأسلب وأبطش.. بل داعيا لتطبيق شرع الله.. ولن تكون أفعالنا بعيدة عن الدين القويم.. فأدعوكم إلى طاعة الله والتقيد بأوامره ونواهيه.. كما يؤسفني أن أشيع إليكم خبر ما أصاب شيخنا من اختلال عقلي.. وقد علمتم أنه قد خرج قبل أيام يهيم دون عقل.. ووجب علينا القيام بواجبه وفاءاً لأمر الله عز وجل... ".

شعر زيد وسط تلك الحشود بأنه أمسى سيد الوادي بلا منازع.. وما زاد من قوته أن شنهاص قد كُشفت حيلته.. وعرف الجميع أن تلك المداوية التي تدخل البيوت وتنام بين النساء ماهي إلا شنهاص.

بعد خروج مرداس دون حرس وبرفقته إحدى خادمات الحصن.. أصبح الجميع يعامله كما لو أنه مختل.. وما زاد المه حين وصله ما تفوه به زيد في خطبة عيد الأضحى واصفاً له بالمجنون.. لا تعرف زهرة أتحزن لوفاة العمياء أم لحالة الشيخ الذي أختار الصمت.. ما أن تعيده إلى حيويته حتى يغرق من جديد في نوبات صمت تتزايد مساحتها يوما بعد يوم.. تبحث عن مواضيع تشده.. حول قرب عودة جمال.. عن خططه بالانتقام.. يبتسم بعيون ساهية:

- أظنه سيصل في أي لحظة.. لكن ما يؤلمني حال فاطم.

- فاطم في الشهور الأخيرة من حملها.. سيكون لك ولداً ثان من صلبك.

- لا يوجد أحد من صلبي.

- كيف؟

- لا تشغلي بالك...

يلوذ بالصمت ناظراً إلى الوادي وكأنه يراه لأول مرة.. لم يكن من أحد قد لاحظ تغير الشيخ عدى زهرة.. التي افتقدت حكاياته.

كانت الفاجعة أرتفع صريخ إحدى خادمات فاطم بعد أن وجدتها ممددة على فراشها وقد بقرت بطنها. قال لزهرة حين سمع بالخبر: ليس أنا الفاعل.. لماذا تنظرين إلي هكذا!

ظلت في حيرة وهي تنظر إلى قامته القصيرة وبنيته المتهالكة.. تفكر فيمن يكون له مصلحة في قتل فاطم . تصارع ظنونها.. لكنها تظاهرت بتصديقه. حضر السيد الأمين زيد معزياً في وفاة زوجة الشيخ. تكلم بكلمات مؤثرة عن فقدان أعز أبنائه.. قال: فاطم لم تكن مجرد ابنة.. كانت لي الأخت والصديقة. أعزيك ياصديقي العزيز مرتين مرة لوفاة زوجتك وأخرى لوفاة ولدك الذي كنا نستبشر بقدومه خيراً.. لكنها مشيئة المولى عز وجل.

كانت كلماته صادقة ومؤثرة. لكن ما أثار تعجب زهرة أن خبر مقتل فاطمة لم يتجاوز باب دارها.. ولا يعرف لها جنازة.. تحاول فهم ما يعتمل.. تسأل الشيخ الذي أظهر حزنا عميقا.. ودوما يلتفت إليها صامتاً دون أن تتغير ملامحه.. ثم يعاود النظر إلى الوادي. أمسى مرداس يغرق في صمتٍ متواصل.. تحاول زهرة إخراجه.. تستحثه تارة.. وأخرى تبكي بين يديه ترجوه.. لكنه يكتفي بالتقاط براعم القات.. يلوكهن بتمهل.. تكرر حديثها عن جمال.. وعن قرب عودته.. ليفاجئها بعد صمته لأيام: لا يوجد لي ولد بهذا الاسم!. أرجوك كفي عن الهذر.

في الوقت الذي كان مرداس قد فقد الأمل بعودة ابنه.. كان السيد الأمين قد وجد ما يواجه خطر وصول جمال.. أن يتجاوب مع إشارة عيشة.. المولعة به منذ شهور.. لتكون الورقة التي يمكن أن يُسير بها جمال.. عيشة التي ظلت لسنوات مهملة ومهجورة.. أن يجعل منها أداة مطواعة.. لم يفاجأ حين فاتحها بموافقتها. شارطه عليه أن يضعه في الدار الخلفية حبيس. ليعرض عليها أمراً آخراً:

- وإن كنت راغبة أن أضعه في القبر.. فسأضعه!

- لم يحن الوقت.. أريده أن يذوق ما أذاق بنو عمه لبعض الوقت.

- كنت أظن أن بك حنين لبعض أقاربك.

- الحنين موجود لوالدي. لكني أريده أن يراه جواره.

.....

خرج شنهاص سافراً عن وجهه.. داعياً انصاره الاستعداد لنصرة دين الله القويم. معلناً اقتراب جهاد أهل البدع من الروافض والمشركين.

يستحث حمية الناس ضد زيد الذي تجرأ بحبس مرداس في دار صغيرة بداخل الحصن.. وأمر بعدم السماح لأحد برؤيته.. ولم يكتفِ بذلك بل قام بخطوة أخرى تمثلت بزواجه من عيشة زوجة الشيخ السابقة.. محتلاً للدار الأوسط الذي كان سكناً لمرداس... ثم قام بتغيير أسم الحصن وأسماه "حصن الزيدي" مكلفا أكبر أبنائه بالإشراف عليه وعلى حراسه.. وعلى مخازن البن ومقاشره.. كما أطلق على الوادي أسم "وادي الزيدي". وأضحى لزيد مقرين: حصن الزيدي حيث الذخائر والسلاح والمال وزوجته عيشة. وقرية "الهجرة" حيث الضريح.

تلك الخطوة التي اتخذها شنهاص ردا على إعلان زيد دعوته.. الذي دعى أنصار آل البيت بمؤازرته في حربه.

.....

سكنت عيشة الدار الأوسط.. وأعادت توزيع الخادمات على الدور.. كان أشد ما يقلق عيشة أن يفكر زيد بنقل إحدى زوجتيه إلى الحصن.. ولذلك شغلت جميع الدور بالخادمات.. حتى لا تصبح مهجورة. وقد ضمت زهرة إلى خدمتها.. إلا أن قلبها كان معلق بمرداس.. تبحث عن طريقة لمعرفة أخباره.. وقد أمسى حبيس دار خلف الدور الكبيرة.. حاولت إقناع عيشة:

- أتمنى على سيدتي أن تلحقني بخدمة الشيخ.

لترد عليها بغضب غير مسبوق:

- أشك في أن لك روحاً شيطانة.؟

- عفوا سيدتي.. فقط أن أراه!

ابتسمت مخفضة صوتها:

- لماذا هذا الالحاح.. قولي لي ماذا كان يدور بينك وبينه؟!

كلماتها أعادتها إلى تلك اللحظات التي كان يسترسل بحكايته وقد تحول إلى طفل كبير.. يسعد حين يرى عينيها تتابع حركة فمه. تحاول معرفة لماذا كان متعلقا بها.. لكنها لم تعرف السبب. لم تجد ما ترد على عيشة.. أظهرت الانصياع لها.. وقد بيتت نيتها بزيارته. تعبر الساحة الداخلية.. تتسلل خلف أحد الدور شرقاً.. أشجار عملاقة تحيط بدار صغيرة من طابقين.. بجوار بابها المغلق مبنى صغير يبدو أنه للحراسة.. لا توجد نوافذ عدى ثلاث في الدور الثاني سدت بأحجار وطين.. كل شيء ساكن مهجور.. عادت أدراجها خوفاً أن يراها

أحد.. لأيام تلح على من يذهبن بطعامه.. عرفت بأنهن لا يرينه.. وأن حراس يتناولون ما يعدنه من طعام.. تسأل إحداهن عن وسيلة لرؤيته.. تتمنى عليها أن تساعدها. تبتعد مذعورة دون أن ترد.

كان الأمر محير.. تتذكر كيف استدرجت وشادن ذلك الحارس.. ومصير بنات مرداس.. وفاطم التي يتهامس الجميع بأن ما كان في بطنها نتيجة لمعرفتها بأحد الحراس.. تراود زهرة نفسها لتكرر ما كان.. علَّها تصل إليه عبر أحد الحراس.

لم تصدق عيناها وهو يسير بها وسط أكوام فضلات بشرية وبقايا خرق وأحذية عبر فتحة واسعة بداخل ذلك الدار.. سألته فلم يجب.. رأت أمامها باب سفلي.. ظنت بأنه سيفتح وقد أخذ يهتز.. ثم تسربت من شروخه أصوات.. هز الحارس عصاته صاعداً سلم في الزاوية القريبة.. ومع نهاية الدرج فتح باب متهالك على مساحة واسعة دون فواصل عدى أربعة اعمدة تحمل سقفاً باهت.. لم ترَ أمامها أحداً.. فجأة ظهرت ثلاثة وجوه شاحبة يقفون عرايا على مبعدة.. ورابع دون سيقان يتعكز على ساعديه.. كأنهم انبثقوا من العدم.. أرعبتها عيونهم الغائرة.. وشعر رؤوسهم المتصل بأجسادهم وقد تلبدت في جدائل غير متناسقة.. يبتسمون بأفواه فاغرة عن أسنان لوثها الهلاك.. تبرز عروقهم النافرة على هياكل عارية.. تراجعت فزعة دون شعور.. صاح فيهم ثم رفع عصاته تلاحقهم بغلظة الضرب على ضهورهم وأذرعهم وقد رفعوها حماية لرؤوسهم. هرولوا بعيدا حتى اختفوا. سألته بخوف: من هؤلاء؟. أمسكها من ذراعها وسار بها منعطفا حول ركن قريب لتفاجأ بالشيخ وقد أضطجع متكئاً على وسائد مهترئة.. لم يكن من شيء يستر بدنه ببياضه اللافت تاركاً جواره أغطية قديمة بعضها ممزق.. يحرك فمه فلا تعرف هل هو يمضغ أم يتحدث دون صوت.. كل ما حوله مبعثر.. على بعدٍ لمحت كومة براز.. وصحون فارغة.. جلست إلى جواره تحدثه دون أن يعرها انتباه.. استمرت حركة فمه.. استبشرت حين نظر إليها.. سألته: انا خادمتك زهرة! ظلت نظراته في وجهها دون معنى.. دون أن يرد عليها.. رجته إن كان ينقصه شيء.. ليذهب بنظراته بعيداً.. وفمه يلوك الهواء.. وكان لا أحد إلا هو في ذلك الخراب.

لا تعرف كيف عرفت عيشة بزيارتها لذلك الدار.. تهدر غاضبة وقد تكومت زهرة أرضاً.. بينما مجموعة من الخادمات ينتظرن أمر سيدتهن.. التي رفعت رأسها ناظرة إليهن وأمرتهن بالانصراف.. وعادت توجه غضبها إلى زهرة: أخترتك لتكوني قريبة مني.. سألتني أن تزوري مرداس فحذرتك.. وأنت تعرفين أن الأمين قد حرم عليه الزيارة.. وتعرفين أيضا أن الموت لمن يخالف. صمتت عيشة وقد صوبت عينيها إلى وجه زهرة وقالت بصوت هامس وهي تبتسم: أتعرفين بأني حين أعلموني بعصوانك عدت بذاكرتي لسنوات حياتك.. واكتشفت عجب العجاب.. فلا أعرف هل أتخلص منك؟ وقد رأيت أن من قربوك إليهم قضوا نحبهم

بداية: بأمك.. ثم شبرقة.. وصاحبتك شادن.. بنات مرداس.. فاطم.. ومرداس كما نراه بين الحياة والموت!. اليس في الأمر غموض؟!

رغم اسلوب سيدتها الهامس.. وابتسامتها العذبة التي أرادت أن يبدوا كلامها فيه شيء من الظرافة.. إلا أن زهرة شعرت بما ترمي إليه.. فردت بصوت باكي:

- اذاً يا سيدتي أسمحي لي بالرحيل بعيداً.

- كيف ترحلين وسيدك الأمين له رأي آخر فهو يرى أن من يعيشون في الحصن يحملون أسراره.. ولا يخرجون منه إلا إلى المجنة!

سرت قشعريرة باردة تنخر بدنها لوقع تلك الكلمات.. لتكتشف بأن عيشة ليست تلك المرأة التي يصفها الجميع بالسذاجة والطيبة. تتذكر شادن التي علمتها الاعتزاز بالنفس.. واعتزاز الفرد بذاته.. يتردد صدى صوتها "عليك معيشة محيطك دون أن تفقدي عزتك لأي شأن.. أن تكوني مع نفسك الكائن الذي تحبي أن تكونيه.. ذاتك التي ترينها".

بعد أيام استدعتها عيشة إليها.. وكما توقعت صرفت من حولها.. لتسألها وقد غلب على صوتها نوع العاطفة: ألم تسألي نفسك لماذا لم أخبر السيد الأمين عن معصيتك؟!.

ذلك السؤال ما كان يتردد في أعماق زهرة منذ زيارتها للشيخ.. وإن بشكل مقلوب.. فهي ظلت تتوقع العقاب.. في الوقت الذي كانت تشعر أن عيشة لا تريد ذلك. ظلت صامتة ولم تجب على سؤالها. أمسكت بوجه زهرة بين يديها وهمست: لأني أريدك بقربي.. خادمتي المفضلة!.

في تلك الهُنيهة شعرت أن عيشة عصية على الفهم:

- كما تريدين ياسيدتي.

أدركت بعد وقت من مجالستها سر تودها لها.. بعد أن أخذت تمطرها بالأسئلة:

- هل تتذكرين ما كان يتحدث به مرداس إليك.

- أي حديث تقصدين سيدتي.

- الم يتحدث عني.. عن السيد الأمين.. عن جمال؟!

- صحيح.

- هيا حدثيني.

- من أين أبدا فالحكايات كثيرة؟

- كما تريدين!.

- لكن لا أعرف أياً منه يهمك.

- كل ما عندك يهمني.. ما وراءنا احكِيه لي!.

تختار بواكير الأيام لتشاركها فطورها.. تدللها أما غيرة الجميع.. تقف زهرة محتارة ومتسائلة: ترى لو لم يزودني الشيخ بتلك الحكايات أكنت في عالم الأموات؟. أكان يعلم بأنها ستكون لي ذخر فضل يحكي؟!. في البداية كانت تأتي بما يطرأ على ذهنها.. لتتعرف حكاية بعد حكاية إلى ما يشد عيشة وما لا يهمها.. تنتقي بحذر حتى لا تقع في المحذور. تطلبها بين حكاية وأخرى عن حكايات متصلة. تستوقفها عند بعضها.. تسألها أن تعيد حكيها.. أو تطلبها بإعادة حكاية قيلت قبل أيام. وأحيانا تطلب منها تذكر بعض تفاصيل نقطة أو حدث ذكرته في إحدى الحكايات.

اكتشفت بعد حين بأن عيشة تحفر في جدار الحكايات عما تعين ابنها على زيد.. ليتجاوز حيله التي تغلب بها على مرداس.. ولا تريد أن ترى جمال مغلوب على أمره أما دهائه. ولذلك أضحى وعٍ بأهمية ما لديها من حكايات يجعلها تقتصد.. وأنه سلاحها الذي لا تمتلكه عيشة.. تصمت عاجزة في بعض الصباحات لتختلق حكايات لم تسمعها.. تلبية لشهوة تتنامى بداخل عيشة لتتمكن من نصرة أبنها.

كانت زهرة تشعر مع مرور الأيام بإحساس جديد بالأمان.. لتغامر سائلة:

- هل لا زلت تريني شؤماً سيدتي؟

سؤال فاجأها.. نظرت إليها بذهول من جرأتها.. تحولت إلى نظرة مبهمة.. ثم مدت كفها تملس شعر رأسها:

- ألازت.. تتذكرين ذلك.. لم أكن جادة وإن لاحظت بأن حياتك عجيبة؟!.

كانت تلك الكلمات مفتاح لأسئلة أخرى.. فضلت الاحتفاظ بها للوقت الذي تراه مناسباً.. مفضلة الحذر خشية أن يأتي اليوم الذي تراها أُفرِغت من محتواها.

.....

وكان يوم لبت فيه الجموع لإداء صلاة الجمعة في قرية الجفنة يوما مشهوداً. صعد شنهاص المنبر خطيباً ليقف سافر الوجه.. مرددا "هذا أنا اليوم سأواجهك يازيد.. وأتقرب إلى الله بدمك أيها الرافضي.. أقاتلك لنصرة لشرع الله. ولإيقاف فرق الموت التي ذبحت وحرقت وسرقت الرعية.. ولم تستحِ من الله حين تكذب وقد الصقتها بغيرك.. لكن ما تصنعه هو من لب

عقيدتك التي من أركانها التُقية والكذب وقلب الحقائق.. فلا تفصح بما تبطن.. ولا توفي بما تعِد.. ولا تخشى الله حين تسفك دماء الأبرياء. ولا تستحي من نبي الهدى وقد أدعيت بأنك الصادق الأمين.. ولم تخجل حين تزوجت زوجة مرداس وأهنته بحبسك.. نحن قادمون في سبيل الله.. لنحطم أضرحة الشرك رموز الطواغيت.. قادمون لمحاربة البدع والضلالة مشوهي دين الله الحنيف.. معلنين قرية الجفنة داراً للإسلام..."

استمر شنهاص خطيبا في الجموع التي توافدت من مختلف قرى الوادي.. يدعوها التمسك بكتاب الله وسنة رسوله الكريم. معلنا البدء بتطهير القرى من دعاة البدع والشرك.. منكراً ما يدعوه الروافض بورثتهم للنبوة. مرددا بعد أن أكمل خطبته.. الله أكبر ولله الحمد.. الله أكبر ولله الحمد. لتتبعه الجموع. لتردد صدى تكبيراتها الجبال المحيطة.

فوجئ زيد بأخبار كثرة مناصري شنهاص.. وإعلانه الحرب.. منصِّباً نفسه شيخاً لأهل سنة الرسول في كل مكان. داعياً لهم نصرته.

بدوره أعلن زيد النفير العام لرعيته محدداً الهجرة مركزا للتجمع.. مكررا توجيه الدعوة لمحبي آل البيت في كل مكان مناصرته.

أصطف جميع أنصار آل البيت على أطراف الهجرة غرباً. كما اصطفت أنصار السنة على مشارف الجفنة.. وكان يفصل بين المتحاربين ثلاث قرى. مع شروق صبح جديد سُمع الكل يردد "الله أكبر.. النص للإسلام". لتدوي أول رصاصة.. ولا يُعرف من أي اتجاه كانت.. تلتها مآت الطلقات من كل طرف.. وقد زحف المتحاربون متخللين تلك القرى حتى كانت المواجهة.. وسرعان ما ظهرت الغلبة للسلاح الجديد الـ"كلاشن كوف". الذي زود الأمين زيد أنصار آل البيت به.. وتراجع رجال أنصار السنة أطراف "دار الإسلام" الجفنة. ولم تغرب شمس ذلك النهار حتى أحكم أنصار آل البيت حصارهم على دار الإسلام من ثلاث جهات.. سقط عدد كبير من المهاجمين أثناء الحصار.. الذي استمر لستة أيام.

في اليوم السابع تغيرت الكفة حين استطاعت مجموعة من أنصار السنة الالتفاف ليلاً عبر سفوح الجبال الجنوبية.. ليفاجئوا المُحاصرين من الخلف.. دب الذعر بين أنصار آل البيت وظنوا بالخيانة. ليفروا من مواقعهم.. أستغل من في دار الإسلام ليشنوا هجوم واسع.. لسيطروا على مرتفعات تهيمن على عدة قرى.. ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانوا قد سيطروا على القرى الوسطية موجهين هجومهم باتجاه "الهجرة" عبر السفوح الجنوبية.. ولم تمض أيام حتى شُوهد سكانها يلوذون بالفرار شرقاً لكثرة الرصاص المنهمر عليهم.. ركز أنصار السنة على صعود ربوة الضريح. استمات المدافعون ليتحصنوا خلف جدرانه.. ومع قدوم الليل تسلل مجموعة من أنصار السنة ليزرعوا النواسف تحت جدرانه. دوت الانفجارات وأضيئت جبال الوادي.. سمع الدوي إلى أماكن قصية.. مع شروق الشمس ارتفعت هتافات

"الله أكبر ولله الحمد.. الله أكبر ولله الحمد". وقد تحول تلة ركام من الأحجار دفن تحتها المدافعين قيل بأن ثلاثة من أبناء زيد بينهمم.. أمر الشيخ شنهاص أنصاره بنبش قبر المهاجر وتسوية الأرض لتكون مصلى خالية من القبور إمتثالاً للسنة النبوية.. لكنهم لم جدوا في باطن قبر المهاجر طلاسم على الواح خشبية ولم يجدوا غيرها.. لينتظموا صفوفاً يؤدوا صلاة الشكر لله.

أرسل شنهاص برسول يحمل رسالة يدعو زيد فيها إلى الاستسلام وحقن الدماء.. واعداً إياه بأن يظل مستشاراً على الوادي كما كان. ليعلن رفضه مستشهدا بقول الرسول الكريم "لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لما...".

ظلت الهجرة قرية أشباح حتى سمح لهم شنهاص بالعودة معلنين براءتهم من أعمال زيد.. متعهدين أن لا يحملوا سلاحا.. وأن يعودوا كما كانوا مسالمين فلا يناصروا أحد على أحد.

منذ بداية القتال كان مجموعة من مشايخ الوديان المجاورة في مشاورات مستمرة .. ليظهروا مساعٍ حميدة لإيقافه الحرب.. بادروا إلى إرسال مجموعة من رجالهم للفصل بينهم. ولم يفطن زيد ولا شنهاص إلى تلك الحيلة.. إذ سرعان ما تزايد عدد الوافدين.. ليتمركزوا في تلال وسطية.. ما لبث الأمر أن سيطروا على عدة قرى.. لتنشب حرب متعددة الجبهات. عم خلالها النهب والسلب بطول وعرض الوادي.. لتتفرق رعية زيد الذي فر محتميا بالحصن.. ويسيطر كل متغلب على ما تحت يده من قرى. وأصبح الوادي مقسم إلى عدة أقسام.. حصن الزيدي وقرية المنحدر تحت سيطرة زيد.. بينما شنهاص يسيطر على خمس قرى بينها قرية الهجرة.. وتقاسم مشايخ المخاليف الأخرى بقية القرى وأعلنوا ضمها إلى مخاليفهم. ولعدة أشهر أنشغل الجميع بالقتال.. لتسود قعقة الرصاص ودوي النواسف ليلاً ونهاراً.. أستهدف الجميع الرجال والنساء ولم يسلم كبار السن.. والمواشي والكلاب.. وكل ما يتحرك كان عرضة للرصاص.. يقاتل كل شيخ طمعاً بالتوسع.. معلنا أحقيته مستشهدا بالكتاب والسنة.

.....

مع اقتراب قارون من الوادي.. عرف ممن يلتقيهم ما حل بالوادي.. تسلل من قرية إلى أخرى.. متجنباً قرية الجفنة حتى لا يلتقي بشنهاص.. خشيَّة من تعنيفه وقد رآه حليقاً لابسا بنطالاً وقميصاً ملوناً.. أينما عبر يحتك برعية يأملون ظهور منقذ.. والبعض يبشر بأن هناك علامات لظهور المهدي المنتظر. قرى يتوزعها عدة مشايخ حتى وصل قرية خاله.. عرف من زوجته بأنه تزوج من حبشية وقد قرر أن يستقر في السودان.. كما أخبرته بأن ولديها هاجرا إلى السعودية منذ أشهر.. وبدورها تعيش وحيدة إلا من زيارة بنتيها في الجوار. ودَّعها عابراً بين قرى تمترس سكانها خلف جلاميد حجرية.. ولا يرى منهم غير فوهات البنادق.. لم يعد من مزارع.. كل شيء خراب ورعب.

استجابت الأقدار حين تناقل الناس أخبار وصول الشيخ جمال ابن مرداس إلى صنعاء.. وأن حكومة العسكر قد منحته منصباً كبيراً. لاحظ الجميع يترقب وصوله. وقد خفتت قعقة الرصاص.. وأرسل زيد رُسله يدعوا شنهاص وبقية المتغلبين لإنهاء الاقتتال.. عارضا عليهم التحالف لمواجهة خطراً محتملاً.. لم يسمِ الخطر.. لكن الجميع فهم مقاصده. بينما كان يحدث زوجته عيشة عن استعداده للوقوف مع ابنها لاستعادة الوادي إذا ما وصل.

وصل قارون قريتهم قرية منحدر الحصن.. يسأل عله يجد أخباراً عن والده.. يتمنى ظهوره.. دون أن يستدل على خبر. وجد بيتهم مسكوناً بآخرين.. الأرض التي كانت تزرعها والدته مهملة وأشجار البن جفت. ترجى ساكني بيتهم السماح له بدخوله.. أن يجد شيئاً من أمه.. أن يطل من نافذته.. أو يرى الوادي من سطحه. اكتفوا بالنظر إلى شكله الغريب والضحك جماعياً.

أنشغل بالبحث عن قبر أمه.. قادته أحداهن إلى زاوية في مجنة القرية.. لم يجد البقعة تشبه بقية القبور.. مكان ترابي دون معالم.. حتى أنه لا يشبه أمه.. أو أنه يشبه بساطتها. رفع وجهه نحو السماء دامعاً وقد نوى الرحيل. لم يعد من شيءٍ يربطه بذلك المكان الذي ظل يحن إليه.. يفكر أي الاتجاهات يختار.. رآها وقد تساوت أمامه.. يفكر بترك قدميه تقوده كيفما شِئن.. للحظة تذكر رغبة قديمة.. أن يشكر تلك السيدة التي أنقذته يوما من الموت.. صعد الطريق حتى مرتفعات تذكره بيوم صعوده محملا بالشِرك.. لم تطل الطريق كما كانت.. وصل الساحة لتحاصره رهبة تصاعدت من أعماقه.. للحظة أرتجف بدنه ببرودة غريبة.. التفت حوله عله يجد سبباً.. كان كل شيء صامتاً.. أعمدة التعذيب.. ركام ضريح الجد الأكبر.. المسجد ببابة المخلع.. المجنة وقد تهالك سورها.. باب الحبس يتنفس زخماً أسود.. اقترب من البوابة الكبيرة عله يسترق النظر إلى الساحة الداخلية.. هزه صوت أحد الحراس:

- هيه.. أنت عن ماذا تبحث؟

- لا شيء.

- من أنت؟

- عابر.

- تبدو غريباً.. ماذا تريد؟

- لا شيء.. أردت أن أسلم.. فأنا راحل.

- تسلم على من؟.

- على السيدة عيشة.

- زوجة السيد الأمين!.

صُدم قارون بذلك الخبر.. مفضلاً الظهور بمظهر العارف:

- أرسل من يخبرها أن قارون يريد السلام.. لن تخسر شيئاً.

صمت للحظات.. ظنه سينهره لكنه ابتسم:

- أسمك قارون.

- نعم قارون.

- سنرى ان كنت تتحاذق.

رفع الحارس صوته ليظهر زميل له.. اشار أن يحل محله حتى يعود. ومضى. مر بعض الوقت.. عاد لاهثاً:

- هيه.. أتبعني أنت!.

يتمنى أثناء عبور الساحة أن يمهله ليملئ عينيه.. لكنه عبرها مسرعاً ليصعد خلفه سلالم الدار "الأوسط". شعر بسكون في البداية.. ثم بأصوات نسائية. حتى وصل به إلى صالة واسعة بالدور الثالث.. ظهرت امرأة أشارت إليه أن يتبعها.. يزداد الضوء والسكون كلما صعد.. وقفت به على أطراف قاعة احتشدت بالروائح العطرة.. رفع ناظريه على امرأة تقف وحيدة وقد لُف رأسها بطرحة سوداء أتت على نصف وجهها.. عادت ذاكرته إلى ضجيج سوط جبار.. ضوضاء الحراس:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. أهلا بك.

لبرهة جاء صوتها من ذلك اليوم.. تأكد بأنها هي نفسها:

- أنا قارون.. وقد أتيت لزيارة قبر أمي.. وسررت بالسلام عليك قبل مغادرتي.

- أهلاً بابننا قارون.. لكن أخبرني أين كنت كل هذا الوقت.

- شريد.

- غبني لقلبك.

نطقت كلماتها وصمتت لهُنيهة.. ثم رفعت كفيها بالتصفيق.. ليفصح أحد الأبواب عن مجموعة من النساء.. أصغرهن فتحت فمها لشهقة زفرتها حين نظرت لوجه قارون.. التفتت

العيون إليها.. نسيت أن تسحب عينيها.. أو أنها من تعمدت الإطالة.. ثم توارت مرتبكة. كأنه رآها يوماً ما.. يبحث في تلابيب ذاكرته عن وجه تلك الفتاة.. يتذكر سوط جبار يلسع أطرافه دون رحمة.. يسمع صراخها.. صباح كان جبار يمثل قدرا حتميا. تعالى خفقان قلبه وقد تداخل مع صوت عيشة التي أقبلت يومها هلعة "كفى يا جبار.. كفى".

أدركت عيشة لحظتها ما يدور في خلده أعاده صوتها من الماضي تطلب منه الجلوس.. اتكأ مترددا جوار نافذة تطل على الوادي.. أشارت تحدثه: لقد شبيت كثيراً عن آخر مرة رأيتك فيها.. أين كنت؟

- في عدن.

- في عدن! وأنا اتساءل من أين لك بهذه الغرابة؟

- والشيخ جمال ماهي أخباره.

- ألم تسمع بعودته.

- لقد سمعت.

- بقدر شوقي.. سأنتظره حتى يأتي هنا.

عادت زهرة تحمل أطباق طعام وكؤوس. وقفت تتابعه بنظرات جذلى.. تتمنى الجلوس إلى جواره.. أن تمسك بيده وتسأله عما يشغله.. غاب كل ما حولها.. وأرتفع ضجيج أعماقها. لم تنتبه إلى أن عيشة ترقبها وتتخيل ما يعتمل بداخلها. نهض مستأذناً.. وتوجه بكلماته نحو عيشة: شكرا.. سلمت عليكم.. والأن أستودعكم الله.

انشغلت زهرة بمتابعته.. قالت عيشة:

- هل ستعود للسلام على جمال حين يصل؟.

وداعه أيقظ توهان زهرة.. وتحفزت نظراتها.. وقد رد على دعوة عيشة:

- لا يوجد ما يبقيني في الوادي.. قد أزور جمال في صنعاء.

فجأة انفجرت زهرة باكية أمام دهشة الجميع. في الوقت الذي رأت عيشة بأنها استنفذت ما لديها من حكايات مرداس.. وأن بقاءها لم يعد مجدٍ.. أشارت على الجميع بالخروج.

رفعت زهرة صوتها كالملهوفة:

- إن كنتي تعنيني.. لن أخرج . إلا إذا سمحتي لي سيدتي بالرحيل.

نطقت تلك الكلمات ماسحة دموعها.. توزعت نظرات قارون بينهن محتاراً. وقد خشيت زهرة أن يذهب ويختفي للأبد. لم تشعر بأي إحراج من جرأتها. أو أنها روح شبرقة تدفعها وقد حضرت من الماضي. لاحظت عيشة ذلك التغير على وجه زهرة وتلك النظرات العطوفة من قارون.. أدركت أن زهرة في مواجهة فاصلة.. شعرت بالعطف عليها.. وقررت أن تكون في صفها مهما يكن الأمر.. أن تسمح لها بالمغادرة معه:

- لك ما تريدين يازهرة!.

ركعت أمام سيدتها باكية.. تحتضن ساقيها شاكرة.. بدا الأمر لقارون سريالياً.. أو أنهن يلقين به إلى أن لمح الجدية في صوتها: أنت ياقارون اليوم رجل.. وزهرة فتاة ناضجة سأتركها في ذمتك.. أن تتزوجا.. وأنت يا زهرة أنهضي وأجمعي ما تحتاجينه!

- سيدتي لا أعرف كيف أشكرك.

ابتسمت عيشة لتحتضنها.. ثم مسحت على رأسها: سامحيني إن كنت قد قسوت عليك يوماً.. وتذكري بأن داري سيظل مفتوحا لك. ثم وجهت أمرها لأحد النساء: رافقيهما وأخبري الحراس بالسماح لهما بالخروج.

تجرأت وأمسكت بكفه وكأنه أليفها منذ سنين.. تبعها بصمت وذهول.. يفكر في غده معها وهو الشريد. خرجت به من بوابة الحصن.. تعرف الطرق التي ستسلكها. عبرا الساحة صمتاً إلا من صهيل مشاعرها.. تعامله وكأنها تعرفه منذ سنين.. هبطا المنحدر حتى الطولقة الكبيرة.. ثم انحرفت به عبر مجرى السيل غربا.. تنظر بين فينة وأخرى إلى وجهه صامتة.. مندهشاً مما تصنع به.. عبرت سهول واسعة.. كان يود أن يسألها لكن خطواتها الجادة كانت تشي بيقين وجهتها.. أندهش حين اقتربت به من درم أخدام.. اخترقت أزقة الأكواخ.. لتقف أمام كوخ لم يتبقَ منه إلا سيقان متفرقة.. تقاطرن بعض الخوادم يستطلعن الأمر.. تسابقهم جوقة من الأطفال.. سألتها أحداهن:

- هل تبحثون عن شيء هنا؟

ردت زهرة متأملة وجه قارون:

- نريد أن نسكن كوخ جدتي.

التفتن من كُن واقفات إلى بعضهن متسائلات.. ثم نظرن إليها غير فاهمات.. دخلت تسوي قاع الكوخ.. يستغرب قارون مما يدور. قبيل مغيب الشمس وقف مجموعة من الأخدام تبوح عيونهم بتساؤلات حول وجودهم بينهم.

.....

تعددت الوفود الذاهبة والأيبة من صنعاء.. الكل يسعى لإقناع الشيخ جمال بالوصول لزيارة الوادي.. شارحين له ما آلت إليه أوضاع الوادي.. في الوقت الذي أستمر زيد يرقب ما يدور. متصوراً وصول جمال أبواب الحصن.. يخرج رسالته تلك يكرر قراءتها.. يردد وهو يذرع المكان وحيداً: ماذا عليَّ فعله للتخلص من ذلك الأصهب؟.

يلح على زوجته السفر لزيارته في صنعاء.. هادفاً ابقاءه بعيداً.. وحتى لا تكون سبباً في قدومه.. ومع تفاعل تلك المفارقات يكلف من يغادر إلى صنعاء ليرصد أغوار نفس جمال. وسريعاً ما عاد ليخبره بأن جمال يعيش حياة مترفة.. يعاقر الخمر.. ويقضي لياليه في مجون.. ولم يفطن إلى أن عيشة قد أشترت رسوله.. تيقن بعدها بان مكانته على الحصن في أمان.. مفضلاً استمرار استخدام جمال كفزاعة يرعب بها شنهاص وبقية المتغلبين.. مع استمرار محاولاته إقناع عيشة بزيارته صنعاء.. أملاً أن تبقى إلى جوار ابنها.. وبذلك يتغير الوضع.

.....

خيم الترقب على الوادي.. ليعود هدوء حذر بين أركان الصراع.. وقد أظهر كل متغلب شيء من القناعة بما تحت يده. وعاد الرعية لحرث حقولهم. إلا أن الأمين زيد كان في قلق دائم لعدم موافقتها زيارة صنعاء.. ساعياً لكسب ود ها.. ولا يعرف بأنها أُعجبت باللعبة الجديدة.. ترى الكل مذعور.. موحية لزوجها بثقتها من إخلاصه.. سائلة إن كان يعرف عن رسائل جمال.. ليعترف لها بأن مجموعة منها وقعت بين يديه.. وكان يظن أنهن لمرداس حسب ما خط على أغلفتها.. مدعياً عدم قراءتهن. لم يكن مثل ذلك الكلام ينطلي على عيشة.. لتتأكد بأن الغدر يسري في دمه.. تسعى لتدجينه لصالح أبنها. إلا أن وصول مجموعة من طرفة ليرافقوها إليه في صنعاء أغضبها.. ليكرر زيد رغبته بمراقتها وشوقه لزيارة جمال.. واعداً لها بحمل هدايا قيمة تشرفها.. يوما بعد يوم يتأكد سوء نواياه.. ومما يخطط له.. مظهرة كعادتها سذاجة وعدم فهم لما يدور.. وكان يقينها بوصل جمال ما دامت في الحصن.. إلا أنها كانت تخشى أن يعود مرداس للحياة من جديد.. وقد عرفت من منادمة زهرة أنه كان ينتظر عودة ابنه ليعود بهيمنته على الجميع.. يذيق من أساؤوا إليه بعض ما اذاقوه.. ولذلك تمنت على زيد سرعة التخلص من مرداس ومن معه مبررة رغبتها:

- حتى يصفى لنا الجو.

ناظراً اليها وقد أتسعت عيناه الصغيرتين:

- ووالدك؟!.

حدقته بعيون جامدة:

- كلهم !.

كان يعرف خوفها من مرداس.. متذكراً بأنه عرض عليها سابقاً التخلص منه.. لكن والدها وبقية أقاربها من رجال قرية المنحدر.. لم يفهم ما يدور في خلدها.. ولذلك فكر بعمل يدهشها.. لتعرف بأن سذاجتها لم تخفِ ما كانت تفكر به.

.....

رغم حلول الظلام ظل الأخدام يقفون في توجس.. لم يكن من رد على تساؤلاتهم.. غير أن زهرة خرجت تردد عليهم هذا كوخ "جدتي". هيا فاليذهب كل لشأنه. سألها قارون بدوره "من جدتك التي تذكرينها؟" مندهشا من حماسها للبقاء في ذلك الكوخ. أشرقت الشمس على تجمهر لخوادم وأطفال ومجموعة الرجال أمام الكوخ.. تساؤلاتهم مرسومة على نظراتهم.

خرجت زهرة باسمة:

- الم يراني أحدكم هنا من قبل؟

كل ينظر إلى عيون من حوله بصمت.. أردفت: العمياء جدتي من يعرفها منكم؟.. كانت تسكن هذا الكوخ.. وكنت أزورها. ابتسمت إحداهن وتقدمت خطوات: لقد رأيتك يوم جئت مع الشيخ. ثم تداخل همس ونظرات ما لبثت ملامحهم أن انفرجت على ابتسامات وكلمات ترحيب.. أنصرف الرجال وتقدمن النساء يساعدنها برفع عيدان السقف. البعض تهشن الأطفال.. منهن من ذهبن ليعدن حاملات أواني وأغطية وفراش مترب.. وقرع ملئ بالماء. ولم تعد زهرة منذ ذلك الصباح غريبة.

ما كان يهم قارون هو أن يجد ما يشربه.. يخرج قبيل الظهيرة ليعود بقليل من القات مكتئباً.. يصارحها إن لم يجد ما يشربه فسيرحل بعيدا عن الوادي. في البداية لم تفهم.. حتى تلك الظهيرة وقد عاد طروبا على غير عادته.. يهامسها لقد اهتديت إلى أحدهم وأخرج من بين طيات ملابسه قنينة صغيرة: هذا هو المتاح هنا!

تستغرب حين يرتشف عطراً.. وقد جلست إلى جواره كما كانت تجالس الشيخ.. تفلي أغصان القات له.

في ليلة مقمرة جلس قارون ثملاً أمام باب الكوخ.. يسأله عن أيامه في عدن:

- عدن.. مدينة من دخلها تسكنه طوال عمره.

- كيف؟

- تظنين بأني من هذا الوادي.. لكني لم أعد منه!.

- لم أفهمك.

- حتى أنا لا أفهم نفسي.

- حين تصمت أظنني أفهمك حتى تتحدث.

- دعينا والحديث.. سأسمعك شيئاً ربما تفهميني.

أخرج نايا من طيات ثيابه.. هم بالعزف.. قاطعته:

- وتعرف تعزف.

التفت إليها:

- وأرقص الف رقصة.

نهضت كمن لدغتها عقرب.. وعادت بمزمار العمياء:

- هذا مزمار قديم أهدتني إياه من كانت تسكن هذا الكوخ.. وقد حكت لي حكايات مدهشة.

وضع نايه على حجره.. يقلب ذلك الناي فاحصا له.. ثم أخذ يزيل ما التصق من دبق.. بينما زهرة تحكي: عرفت من حكاياتها بأن تلك العمياء جدتي لأمي.. وأن المزمار لجدي. صمتت لتميل في دلال واختبأت في صدره مغمضة العينين.. وما أن بدأ قارون ينفخ المزمار حتى أرتفع صوتها بإحدى أغناي العمياء.. بعد لحظات شعرت بأرواحٍ تحوم حولهما.. وقد تسللت رائحة العمياء.. ظل صوتها يعانق أنغامه.. يهتز فتهتز ملتصقه به في نشوة.. أمتد بهم الوجد طويلاً.. وحين فتحت عينيها رأت وجوهاً تنظر إليها بحيرة.. سرت همهمة بين من تجمعوا. لترتفع أكفهم بالتصفيق داعين لهم إلى السمر حول نار سيشعلونها في ساحة تتوسط الدرم.

منذ تلك الليلة.. يشعل الأخدام ناراً عالية.. يدعون قاروناً إليها.. تراه زهرة وقد جلس عازفا للنار كما كان جدها. يثير بأنغامه البهجة في دائرة واسعة من الأجساد السمراء التي ترقص.. يقوده ثمله مشاركاً رقصهم.. ليلة بعد أخرى أمسى قارون صديقا لليل.. معتمداً على مدخرات القليلة. لينام نهاره ليصحوا داعياً زهرة لمشاركته قاته ورشفات عطره.. التي تسايره بالقليل.. ثم تسير به منتشياً باتجاه دائرة الليل.. يراقص نارها بمزماره.

لا يعرف متى بدأ يتسلل بعض أبناء الرعية لمشاركتهم سهرهم.. لينتشر خبر تلك الليالي بين رعية الوادي.. وتزايد من يأتون خلسة من أبناء الرعية.

جلسا ذات مساء.. يسألها قارون:

- أي حياة تريدين أن نعيشها.

ترد بغنج:

- ما نعيشه الأن.

- أسعيدة بالحياة معي.

صمتت وثمة شعور يدفعها لاحتضانه.. تتأمل عينيه لتراهم تشابه عينيها.. بدوره احتواها بين ذراعيه.. أحس بنبض قلبها.. وقد التصق صدرها بصدره.. لأول وهلة شعر بأن لها صدر أشعل ناراً في بدنه.. قبَّلته ليذهبا بغلمته بعيدا وقد تمددا على أرض كوخهما.. في لحظة وَجْدْ هامسها: هل تقبليني زوجاً؟

لم تدرِ لحظتها إلا أنها انفجرت باكية.. لم يتوقف بكائها.. أستمر في مهامستها: لما لا تكون لنا ليلة بهيجة.. أن ندعو كل سكان الدرم لمشاركتنا.

صمتت هازة رأسها بالموافقة.. يلعق دموعاً بللت وجهها.

في منتصف تلك الليلة وقف حول النار معلناً دعوته لجميع سكان الدرم أن يشهدوا زواجهما.. طالباً منهم مساعدته. أبتاع صباح اليوم التالي كبشين.. وأستعد الجميع ليشارك في إعداد الوليمة.. إلا أنهم لم يجدوا أوعية تستوعب ما يكفيهم من طعام.. ما اضطرهم إلى شوي أوصال الكبشين على نار المساء الراقصة.. في تلك الليلة ثمل قارون وزهرة ليشاركهم الجميع بالرقص والغناء. ومع نهاية السمر دقت الطبول ورفعت المشاعل ليبدأ زفافهما من دائرة النار باتجاه كوخهم. فجأة ظهر في أطراف الساحة مجموعة من الرجال ببنادقهم.. عرفهم قارون من ملابسهم القصيرة ولحاهم الطويلة.. انزلوا بنادقهم وأطلقوا زخات من الرصاص في الهواء.. آمرين الأخدام بإخماد اللهب والعودة إلى أكواخهم.. وأشار أحدهم إلى قارون:

- أرسلنا الشيخ شنهاص لنقتادكم إليه.

أبدى لهم ترحيبه.. داعياً لهم المبيت بينهم حتى الصباح. لكنه رد محتداً.. وقد أمسكه من ذراعه:

- أن تسير الآن على قدميك خير من أن تُسحب أنت وزانيتك أمواتاً.

.....

اشرقت الشمس ولا زالون يسيرون.. لم يتفوه أحد طوال الطريق عدى أقدامهم على حصى مجرى السيل الجاف.. وبعد وصولهم أدخلوهم من باب دار عالٍ.. ليتركوهم في زريبة خالية من المواشي.. وبعد وقت اقتادوهم ليقفوا أمام رجل بالكاد يشبه شنهاص الذي يعرفه قارون.

تمدد على متكأ ممتلئ القوام.. وقد تحول شعر رأسه وذقنه إلى اللون الناري.. تغطيه طبقة من الهرد مساحة وجهه الضامر.. لا يعرف كيف عرف حين وجه كلامه صارخاً: لا زلت ثمل ياقارون! ألا تتقي الله.. أهذا ما عهدناك عليه.

ذلك الصوت زاد غضباً: انتظرت وعدك أن تلحق بي فخذلتني لتهرب أنت وصاحبك إلى عدن.. قلت قد يكون صاحبه الشيوعي زاد عليه.. لكنك عدت ولم تزورني عذرتك فربما ظروف الوادي حالت دون ذلك. لكن أن تتحول إلى نافخ مزمار.. سكير.. مصاحبا لزانية فهذا ما لن أغفره لك.

صمت شنهاص وهو يرتجف من الغضب. يهرب قارون أن لا تلتقي عيناه بعينيه.. وقف مهدداً وقد رفع ذراعة المبتورة إشارة إلى غضبه: لن أتركك تنشر الرذيلة في الوادي.. وهذا أنت بين يدي.. سأذبحك وأذبح ساقطتك ذبح النعاج.

رفع ناظريه وقال بصوت هامس:

- على ما تقتلنا.. هل نفخ المزمار أكثر جرماً عند الله من قتل النفس.. أنا لست قاطع طريق.. ولا سافك دم.. ومن تصفها بالزانية هي زوجتي.....

قاطعه متلجلجاً:

- تعلم بأن الله حرم الخمر.. وحرم المزامير. وأن عقاب شاربه الجلد.. وعقاب الزاني القتل رجما.

وقفت زهرة منكرة أن يكون ذلك الهرم هو من صورته شادن.. ذلك الصوت المزلزل.. والنظرات المرعبة.. والوعيد لا يشبه شادن. لم يشعر بدموعها وقد غمرت عينيها لتحجب وجهه.. تمنت لو أنها لا تسمعه. تعاتب شادن: أهذا الدك التي كنت تحدثيني عنه.. من أزهقت روحك للقياه.. أهذا من خرجتي لتعينيه؟. أعادها صريخه: وأنت أيتها الفاجرة.. ألم يعلموك أهلك العفة والحياء.. ألا تتقي الله.... ظل يهذر وقد أغمضت عينيها تتمنى أن تصاب بالخرس.

بعد ذلك أعادوهم الزريبة وقد أستمرت دموع زهرة بصمت لا تدري أتبكي على ما ينوي شنهاص.. أم تبكي شادن وفقدانها.

لا يدريان كم قضيا في الزريبة من أيام.. ليمثلا بين يدي شنهاص الذي كانت حدة صوته قد قلت بعض الشيء: رأيت لما بيننا من سابق معرفة أن أعرض عليك الاستتابة.. وأن تبتعد عن المعاصي.. وإلا فقسماً بمن حبسه جهنم لتقربت بدمك للملك الدايم.

خرجا غير مصدقين بالنجاة تحفهم نظرات ملتحية يتشبهونه في ملابسهم البيضاء وحف الشوارب.. يحفهم الصمت والدموع حتى وصلا.. يتردد صوت شنهاص.. نظراته القاسية.. محافظا قصر ثوبه الأبيض الذي عرفه به.. لم يَرَ ابتسامة في صوته.

وصل وزهرة إلى مشارف الدرم ليتجمع سكان الأكواخ يبكون. وما أن غابت الشمس حتى حضر من يدعوهم للسهر حول دائرة النار.. صرخت زهرة على غير عادتها:

- هيا أذهبوا عنا.. لا نريد أن نموت.

لكن قارون ابتسم لهم: سنلحق بكم أشعلوا ناراً كبيرة. محتضنا لها هامساً: يازهرة أتتذكرين بأنهم لم يكملوا زفتنا. هيا فالنثمل عطراً.. و نعيش لحظتنا فغدا موت.

تلك الليلة كان عزفه حزينا أبكى زهرة.. لم يكن من أحد يدرك ما يحمله قارون من ألم غيرها.. شاركهم الرقص حتى سقط أرضاً.. ليُحمل إلى كوخه فاقداً للوعي.. وأمست زهرة تبكيه حزينة. وليلة بعد أخرى تشاجره محاولة اقناعه عدم المشاركة.. تذكره تهديدات شنهاص ووعيده. يعدها بأنها آخر ليلة .. وما أن يأتي أول المساء ليخطو منتشياً في سعادة نحو النار.

حاولت زهرة اقناعه بالرحيل خارج الوادي فماطلها. ليصحوا ذات نهار ولا يجدها إلى جواره. بكت لعيشة شاكية عمَّ جرى لهم. لترسل من يحضره إلى الحصن.. تحدثت إليه:

- أتعلم أبن من تكون؟

- .....

- أتعرف المَزْمَرة مهرةْ من؟

- .....

- أنت قبيلي.. بل أنت ابن شيخ يا قارون.. لا أصدق ما أسمعه منذ زيارتك لي.. أيعقل أن تعيش عيشه الأخدام.. هذا لا يشرفنا.. سيؤجرك زوجي أرضاً وبيتاً تسكنه أنت وزهرة مثل بقية الرعية...

فاجأها وقد ظنت بأن كلماتها قد أثر به:

- لكني لست رعوي لأحد.

- الرعية قبايل يا ولدي فلا تبخِّس بنفسك.. وتبخس بنا معك.

كان صوت عيشة يتأرجح بين القسوة واللين: أنا على يقين من أنك تعي ما أقوله.. وأنك ستغير من أسلوب معيشتك. الحياة ليست غناء ورقص فقط.. فاعقل ما تصنعه من عبث يضر بسمعة الجميع. سأتركك تشاور نفسك.. وأخيِّرك بمسألتين: أن تفلح الأرض. أو أن ترحل عن الوادي بعيداً حيث لا تصلنا أخبارك.. وإلا فصيصل رجال زيد إليك قبل أن يصل شنهاص.. وعندها ذنبك على جنيك.

أقتنع قارون بالخروج من الوادي شرقاً.. متنقلين من قرية إلى أخرى.. يعبران أودية ومخاليف بجوع كاد يفتك بهما.. حتى إذا ما سمعا بحفل عرس سارعا باللحاق به.. وأمام منزل العريس وقف قارون يعرض مهاراته.. وسريعاً ما حلق حوله جمع يتابعون عزفه.. تجرأت زهرة رافعة صوتاً يعانق مزماره.. تزايد الناس يتهامسون حول مزمر مُبنطل.. ومغنية بيضاء.. ومن ذلك العرس تسبقهم أخبارهم من قرية إلى أخرى.. ومن عرس إلى آخر يتنقلان وقد عُرف بين الناس "الممسوخ". وأنه مَسَخ رفيقته ويعيشون عيشة الأخدام. لم يكن قارون يهتم لما يتهامسون به. وما كان يهمه أن يظل يعزف حتى لا يموت.. يهتز طربا مع أنغام مزماره.. تتبعه زهرة بصوتها وقد التصقت نظراتها بنظراته في وله.. ليرفع نشوة الحضور بحركات جذلى.. تتبعه متمايلة مع نغمات مزماره في رقصة ثنائية.. يسيران ذهابا وإيابا في دوائر بين الحضور.. كمن غمرتهما غيبوبة أو أن صوتاً من سموات عُلا يحركهما.. تفتح عينيها لإحساس اقتراب وجهه من وجهها.. وكأن عينيهما على موعد.. يتبادلان النظرات بوجد.. يشير عليها بطرف عينه أن تتقدمه. لتخطوا بخطوات موزونة.. يلحق بها.. محاكيا اهتزاز جسمها.. ليرقصان معا وقد زاد من حدة نغم مزماره.. يتمايلان كمن لا وجود لغيرهما.. يهتزان كأغصان تداعبهما الريح وقد فتح المدعوون أفواههم الفاغرة دهشة وتعجب.. يعودان إلى مكانهما مفسحين المجال للراقصين من ضيوف العريس. يتمنى بعضهم أن يراقصها.. أن يساير خطوها تحت "اتاريك" ليل الجاز ووشيشها.

لم يكن قارون يتصور كل ذلك الحب الذي تحمله زهرة.. يطرب لنظراتها وحين يختليان يسألها.. تنادمه مرددة: خلقت لأخاف عليك.. وكما كان خاطري يتمناك هذا أنا أعيش خوفا يكاد يقتلني.. لست متأكدة من أنا.. لكن يقيناً يسكنني بحبك.. فهل تشعر بيقيني؟. يحس قارون في رفقتها بالأمان.. تفهم لغة نظراته.. متى تنضح عيونه بالسعادة.. ومتى يحتل روحه الحزن.

سألها:

- لكنك اذهلتني يوم سلامي لفردهة.. شليتي تفكيري.

- فاجأني حضورك.. لحظتها فقدت صوابي أن أفقدك.. وكأن أكثر الأشياء تجعل الفرد كائن لا يعرف حتى نفسه.. فحضورك أنساني كل المحاذير.. حتى قول عيشة " من يسكن الحصن

لا يخرج منه إلا إلى المجنة". هي قوة لم أكن قد تعرفت عليها فيَّ.. لحظتها لم أكن زهرة التي أعرفها.. ولم أستردها حتى الأن.

- لكن صمتك طيلة الطريق كان يرعبني.

- حين خرجنا من الحصن.. كان شريط حياتي يمر في ذهني.. أحدث نفسي هل أنا بحاجة إليك.. لأكتشف بأنك الذي بحاجة إليَّ.. وأنك تائه.. أفكر ان أكون حارستك حتى تعيش دون قيود.. حياة حدثتني بها جدتي العمياء يوماً. فلا نطمع بالدنيا ولا تطمع بنا.. وكنت أخشى ألا تستسيغها.. لكني الأن عرفت بأن عدن قد جعلتك انساناً لا يشبهه أحد.

يستمع مصدقا لها.. وقد أحس بأنها ظهرت في الوقت المناسب.. متخيلا كيف كانت ستكون حياته لو لم يفكر بصعود الحصن. أعترف لها بأن إحساسها كان صادق حين أحست بضياعه.. وإن كان مستوعب بساطة موافقة سيدتها على الرحيل معه.. كررت له:

- كان تصرفي أمام سيدتي وليد اللحظة.. فقد كنت تعيش معي منذ سنوات.. وأشعر بقربك.. وهذا أنا وأنت كما كنت أحلم.

- لماذا أنا؟

- لأن أمي تسكنك!

لم يستوعب قارون تلك الكلمات. إلا أن إيقاع صوتها وعيناها الصغيرتان كانت مؤثرة على قلبه.

يعود بذاكرته باحثا عنها في ذلك الصباح.. تتداخل الأصوات.. ويسمع صبية تصرخ.. يراها بصعوبة تتلوى من لسع السياط...

ظل الغموض يحيط قارون وزهرة بين سكان القرى التي يمرون بها.. وظلَّا مثار جدل وهمس.. بدوره لم يكن ليهمه ما يتهامسون به.. طالما وهما بعيداً عن يدي عيشة وشنهاص.

يحرصان على أن يعيشا كل ليلة بليلتها.. ما أن يغلقان بابهما حتى يتعريان.. يرتشف العطر من فوق جسدها.. يرتشف من كأس فخذيها.. يقضيان ما تبقى من الليل في أحضان بعضهما عرايا.. ينامان حتى منتصف النهار.. مع بداية الليل يعطر قارون فمه بجرعات عطِره لينتشي محلقا بصوت زهرة.. أيام عديدة قضياها منتقلين من وادٍ إلى آخر. ليفاجئ زهرة ذات ليلة:

- الستِ مشتاقة لكوخنا؟

- بلى...

- فلماذا لا نعود؟.

- لكن عيشة وشنهاص ينتظران!

- نمكث أياماً في كوخنا دون أن يشعر بنا أحد ثم نعاود الرحيل.

- واذا ما عدنا لن تعزف ولن أغني.. ولن نظهر على أحد.

- لنجرب.

- أيام ونفر بعيداً عنهم.

عاد بها فرحاً إلى واديهم. تسللا ليلا إلى كوخهيما.. كل شيء كما تركاه.. لا تريد لفت انتباه أحد... لكنه الصباح تنفس ليعرف الجميع بعودتهما.. تفرقوا لجمع الحطب.. وما أن غابت الشمس حتى تعالت السنة نيران لم يرَ الدرم مثيلها.. دمعت زهرة حين أخذ يعب العطر بفرح طفولي.. ليخرج وسط صخب طبولهم.. كانت الدائرة أكبر مما كانت في الأيام السابقة.. ضج صراخهم حول النار لمرآة.. تسللت أصابعه ساحبة مزماره.. نفخ ليعلو لحن شجي لم يُسمع مثيلة من قبل.. التفتت زهرة بنظرات عاتبة وقد شعرت بأن تلك النغمات تنادي صوتها.. نظرت عينا قارون إليها مشجعة بإيماءة ترجمتها زهرة "عيشي لحظتِك" خرج صوتها مصاحباً لنغمات مزماره.. غنت بعيون دامعة.. يرتفع صوتها ويطول.. عاد إحساسها بهبوط أرواح حولها.. صوت العمياء صوتها.. رأت قارون تلك الليلة يرقص كما لم يرقص من قبل.

في صباح اليوم التالي فتحت زهرة جفونها على رجال يقفون بأسلحتهم أمام الكوخ.. لا تدري ما عليها فعله.. حاولت إيقاظ قارون.. ليخرجوه مسحوب إلى الخارج.. يتصارخون: الم تنذروا بعدم العودة لارتكاب الفواحش.

تجمع الأخدام بعيدا حذرين.. خليط رجال ونساء وأطفال.. سُمع نحيب هامس.. بينما أخذ المسلحون بتكبيل قارون إلى جوار زهرة.. ثم أطلقوا أعيرتهم النارية في الهواء ليتبعثر تجمع الأخدام . ثم وقفوا يرقبوهم من بين اكواخهم وقد مضوا بهم مقيدين بعيداً. يتردد صدى كلمات عيشة "وإلا سيصل إليكم رجال زيد.. وعندها لا تلومن إلا أنفسكم" ترمق زهرة قارون دامعة.. بينما يحاول زرع ابتسامة لطمأنتها.. كان يعرف حين عاد إلى الوادي إنما عاد لعذاب.

هذه المرة لم يريا عيشة.. ولا زيد الذي كانت تتوعدهما به.. قام الحراس بربط كل منهما إلى عمود.. يسألان فلا يهتم أحد إلى إليهما.. وليومين دون طعام أو شراب.. حتى صياح يوم

جمعة.. حين تناهى إلى سمعيهما هدير يرجف الأرض.. ورغم اعياء العطش والجوع إلا أن حواسهم أخذت تتلقى تلك الإشارات.

حصن الثورة

لا يعرف الوادي أن رأى عربه تدخله من قبل.. فلا مسالك غير مسالك الدواب.. إلى ظهيرة يوم مشمس حين سمع هدير يصم الآذان.. كان ذلك الهدير آت من جهات الجبال الشرقية.. خرج من سمع يتساءلون وقد ظهر مدفع طويل على دبابة ضخمة تنحدر بين الجبال.. تدك ما يعترضها من شجر وحجر مخلفة أعمدة من الغبار وأدخنة كثيفة.. يتساءل الجميع من أين قدمت؟. يتمنون معرفة غايتها. تجمع خلق كثير يتابعون هبوطها بحذر ورهبة حتى وصلت مجرى السيل.. يراقبون هديرها من خلف الصخور بريبه وحذر.. فهم لم يروا مثيلها يوماً وإن سمعوا بها.. توقفت بعض الوقت جوار الطولقة الكبيرة تحرك مدفعها الطويل يمينا وشمالا.. ثم واصلت ضجيجها صاعدة مرتفعات الحصن.

تسمع زهرة هدير.. وذلك العمود يهتز.. تسأل قارون: هل تشعر وتسمع ما أسمع به؟ لكنه كان في شبه غيبوبة لشدة حرارة الشمس.. لتصرخ زهرة وقد رأت تلك الدبابة تتجه نحوهما.. كان قارون قد أستيقظ من غيبوبته.. وظن أنها هلوسات الموت وهو يرى جموع غفيرة خلف تلك الآلة التي استقرت بالقرب من الأعمدة.. ومدفعها الطويل يدور حتى أستقر باتجاه الحصن لتدوي قذيفة أرعبت الجميع ورددت صداها جبال الوادي.. وأمسى أحد أبراجه أثراً بعد عين.. وقد توارى من كانوا يتابعونها مختبئين خلف شواهد قبور المجنة وركام الضريح وجدران المسجد. يرى قارون مدفعها وقد أستمر في الدوران.. لتدوي قذيفة أخرى باتجاه الوادي غرباً.. عرف الجميع فيما بعد بأنها اصابت دار شنهاص في الجفنة.. ثم قذيفة ثالثة ورابعة وخامسة في اتجاهات مختلفة.. قيل أنها أصابت دور المتغلبين على قرى الوادي. كانت زهرة تحاول فهم ما يدور.. تصرخ بقارون الذي أستعاد حواسة يتابع ما يدور بهلع. توقف المدفع بعد ذلك عن الدوران.. وصمتت جنازير الدبابة .. ليصمت كل شيء إلا من حركة الناس وقد بدأوا بالخروج من مخابئهم.. ظل التساؤل يستثير الجميع لمعرفة من يتحكم بتلك الآلة الجبارة، بعد سكون مريب أرتفع صريراً حاد ليفُتح باب في مؤخرتها.. تراجع الناس خشية .. يرقبون خروج مجموعة بملابس عسكرية.. ما لبث أن صعدوا برشاشاتهم "الكلاشن" على سطحها.. أعقب ذلك صريراً آخر.. فُتح باب أعلى برجها ليرى قارون وزهرة ظهر رأس تغطيه قبعة داكنة ونظارة سوداء.. توالى خروج بقية جسمه حتى وقف بقامته الفارهة وبزته العسكرية على سطحها.. رافعاً كفيه ملوحاً في مهابة.. ناظرًا ذات اليمين وذات اليسار وقد أزال نظارته لترى زهرة وجهه الأصهب الحليق.. راسماً ابتسامة عريضة.. يمسح بأصابعه حواجب كثة كأنه شارب أخطاء موقعه.. أرتفع صراخها:

أنه جمال.. أنه الشيخ جمالي.. أرتفع صخب الجموع وقد هرولوا ليحيطوا بالدبابة من كل اتجاه.. صرخ قارون فيمن اقتربوا منهما أن يفكوا وثاقهما.. رفع جمال صوته خطيباً: أيها الأخوة لقد أتينا لإنقاذكم.. لتطهير وادينا من دنس المستغلين وبطشهم. أيها الأخوة أنها ثورة من أجلكم.. لن يكون بيننا بعد اليوم متسلط.

أزداد تدافع الناس حول الدبابة يمدون أياديهم باتجاهه مبتهجين.. تحسس قارون بين ثنايا ثيابه وأخرج المزمار.. غمز لزهرة بطرف عينه فأضأت ابتسامة بياض وجهها.. ليرفع مزماره عقيرته بفرح وقد نسي كل منهما العطش والجوع والإعياء.. ليعزف وزهرة تغني. التفت جمال ملوحا بيديه في الهواء.. موزعاً ابتسامته الناعمة يمينا وشمالاً.. ثم واصل خطبته: أيها الشعب.. لقد أتينا لإنقاذكم من المستبدين وعملاء الخارج.. أتينا لنحرركم من الكهنوت باسم الله ومن السلالية والدجل.. فلا مذهبية ولا سلالية بعد اليوم.. كلنا أخوة سواسية. وأدعوكم اللحظة لتشكيل لجان ثورية لملاحقة أعداء الثورة وتعقب العملاء حتى نطهر وادينا من رجسهم.. من استباحوا كرامتكم. واستعبدوا.

كان زيد يتابع منذ بداية الهدير.. حتى دوي القذائف ..وهتافات الجموع.. وما ردده جمال. ليدرك بأن عليه أن ينقذ نفسه قبل فوات الأون.. مظهراً لعيشة سروراً غامراً بوصول جمال.. موحياً لها تأهبه لمشاركتها استقباله.. ليستغل انشغالها.. خرج يأمر الحراس بإخراج الشيخ مرداس ومن الى جواره مؤكداً عليهم أن يقودوهم بعد خروج عيشة كما هم. لينشغل بعد ذلك بترتيب ما يخصه.

لم يكمل جمال خطبته حين ظهرت أمه بطولها الفارع.. تحفها جمهرة من خادماتها.. شاقة طريقها بين الجموع.. كان وجهها بحمرة شفق زاهي.. وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة شعت من عينيها الواسعتين.. بينما هبط جمال مزيلاً قبعته عن شعرٍ طويل يتلاعب فوق كتفيه.. راكعا يقبل ركبتيها.. لترفع وجهه إلى عينيه وقد اغرورقت بالدموع.. في الوقت الذي أنسل زيد متنكراً بأردية خادمة من بين الحشود هابطاً نحو المنحدرات.

وكانت المفاجأة ظهور مجموعة من العراة ..عند بوابة الحصن.. بعيونهم الفزعة.. وشعورهم وأظافرهم الطويلة.. وقد غطى الدبق أجسامهم الهزيلة.. لتشهق عيشة وتصرخ **"فعلها الديوث!"**. لم يفهم من يحيطها ولا ولدها جمال من تعني بالديوث.. مدركة بأن زيد قد فر بفعلته في الوقت الذي كانت تعتبر مرداس من الأموات.. لتصمت الجموع. بالكاد تعرف جمال على والده.. كانت عيشة تداري وجهها أمام نظرات العرايا.. ومن بينهم والدها وعمها والد قارون.. بشراً بيات ترابية مخيفة. أقترب جمال من والده بعد أن خلع جاكته العسكري ليستر عورته.. ليخلع البعض شيء من ملابسهم يسترون من يعرفونهم.. ما لبث ان تعالى نحيب.. يحاول بعض العرايا النطق لتظهر ألسنتهم غارقة بدماء صديدية.. خمنت عيشة أن زيداً قد بتر السنتهم وفر. تحاول أن تنظر في عيني والدها لكنها كانت أضعف من أن ترفع

ناظريها. لم يتعرف قارون إلى أحد منهم حتى حين أشاروا عليه بوالده وقف أمامه متبلداً. بينما زهرة تخشب طولها فاقدة الحركة لنظرات ومرداس التائهة.

تفرقت الجموع بعد كلمة ختامية قصيرة دعاهم فيها للحضور صباح غد: " اليوم أعذروني.. فأنا جد متعب.. وقلبي بحاجة إلى السكينة بعد رؤية ما شاهدتموه.. وغدا ستشرق على وادينا شمس جديدة.. فلا بيننا خادم ولا رعوي.. كلنا سواسية ولا مكان للسلالية ولا للمذهبية.. غدا بكم وادينا سيبدأ مسيرة الحياة الثورية.. ولذلك أدعو كل الأحرار للاجتماع هنا أمام هذا الحصن.. الذي سيتغير أسمه إلى حصن الثورة.. وليس حصن الزيدي.. وهذه الساحة ساحة الثورة.. هنا سننشئ ضريح رمزاً للثورة. ومنكم سنشكل لجان ثورة لتنطلق.. لملاحقة من يشتبه بمناصرته للخونة أعداء الثورة.. واقتيادهم لينالوا جزاء خياناتهم.

مع شروق صباح اليوم التالي توافد سكان الوادي جموعاً كبيرةً نساء وأطفال خدم ورعية.. الكل أحتشد بانتظار خروج جمال.. والسماع إلى ما سيقول.. يتهامسون بأخبار زيد وشنهاص اللذان لجأ إلى الجبال الشرقية داعين أنصارهم من الغيورين على شرع الله وسنة نبيه الكريم الالتحاق بهم للجهاد في سبيل الله.. معلنين تحالفهم لقتال من يصفون أنفسهم بالثوريين.

مر الوقت والجموع تتزايد في الساحة وحول الدبابة.. لكن جمال لم يظهر.. وقبيل الظهيرة ظهرت عيشة متشحة بسواد لافت.. وقد تغضن وجهها وكأنه بلي في ليلة وضحاها.. تشي نظراتها بحزن عميق.. لم يكن من أحد حولها غير زهرة التي غشت نظراتها توهان وحيرة.. تنظر نحو دبابة وحيدة تشمخ بمدفعها من وسط جموع الناس .

تهامس الناس بإشاعات لغياب جمال.. منها أنه حين أتى كان مريضاً.. و قد أشتد عليه المرض حين رأى والده.. ومنها أن قارون سامرة طيلة الليل.. وقبيل الفجر خرجا من الحصن.. ولا يعلم أحد أين وجهتهما.

انقسمت الجموع.. قسم يرى أن تتولى عيشة مواجهة المخاطر المحدقة حتى ظهور ولدها.. وقسم رفض أن تقوده امرأة وانسحبوا مستشهدين بآيات القرآن و أحاديث المصطفى.. "لا ولاية لامرأة". تفرق الجمع وظلت الدبابة رابضة جوار أعمدة الساحة في سكون.. إلا من عصافير أخذت تبني أعشاشها على بداخل مدفعها.. وعناكب نشطت تنسج بيوتا في زواياها.

الشكر

للدكتور المقالح.. من دعاني إلى مكتبه بعد قراءته لمسودة العمل.. وأسمعني ملاحظات هامة.

للأصدقاء: الناقد والقاص زيد الفقيه بقدرتك على استبطان المعنى وامكانياتك اللغوية تجاوزت الكثير.. الشاعر محمد الأشول لدقتك في سبر أغوار النص واشاراتك العميقة .. الروائي أحمد قاسم العريقي بملاحظاتك في نقاشاتنا الدائمة حول الموروث الحكائي.. والمعقول والا معقول في السرد.. دكتور/ عصام واصل حين طلبتني الاطلاع على مسودة العمل قبل نشرها.. رغم مشاغلك كمدرس لمادة الأدب العربي في جامعة ذمار خصيتني من وقتك الكثير.. الروائية والفنانة التشكيلية سيرين حسن لتنبيهاتك بعدم وقوعي في التكرار إلى تفاصيل غاية في الأهمية.. الأديبة بلقيس كامل وعدة أوراق دونتِها لي حول الشخصيات وعدم الإسهاب في الوصف. تجاوزت بها نقاط هامة.

ومن شاركوا بالنقاش في ورشة نادي القصة ٢ اغسطس ١٧ الأديب فاروق مريش .. الناقدة منى الحملي.. الأديب حسن الدبعي.. القاص حامد الفقيه.. الأديب ثابت القوطاري.. الأديب عبدالفتاح اسماعيل.. القاص نجيب التركي. وبقية من حضروا بنقاشاتهم حول مسودة هذا العمل.. الشكر الجزيل لكم جميعاً.

للكاتب

في القصة:

-الشراشف ١٩٩٧..دمشق.. اتحاد الأدباء العرب.

-الظل العاري ١٩٩٨ صنعاء.. الهيئة العامة للكتاب.

- حريم أعزكم الله ٢٠٠٠.. صنعاء.. نادي القصة. وط٢ ٢٠٠١القاهرة.. مركز الحضارة العربية.

- ختان٢٠٠٢ بلقيس.. صنعاء.. نادي القصة.

- منارة سوداء٢٠٠٤.. صنعاء.. اتحاد الأدباء اليمنيين.

في الرواية:

- مصحف أحمر ٢٠١٠..بيروت.. رياض الريس.

- ظلمة يائيل،القاهرة.. الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠١٣. "الحائزة على جائزة الطيب صالح٢٠١٢".

- الثائر، بيروت.. دار الساقي ..٢٠١٤

- مسامرة الموتى، القاهرة.. الهلال.. ٢٠١٦"رواية المتن من رواية مملكة الجاوري"

- مملكة الجواري.. دار هاشيت انطوان.. بيروت ٢٠١٧

للتواصل بالكاتب:

ايميل: algarby@gmail.com

فيس بوك:

هاتف: ٠٠٩٦٧-٧٧٧٤١١١٢٠